البحوث الكيفية في الدراسات الإعلامية

د. محمد شومان



البحوث الكيفية في الدراسات الإعلامية

تأليف

د. محمد شومان

طبعة ٢٠١٦

شومان ، محمد.

البحوث الكيفية فى الدراسات الإعلامية/محمد شومان،تصميم غلاف ريم السخاوى ط ١.- الجيزة: اطلس للنشر والانتاج الاعلامى، ٢٠١٥ .

٢٤٨ ص ، ٢٤ سم .

تدمك: ٣ ٤١٤ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الإعلام - البحوث

أ- السخاوى، ريم (مصمم)

ب- العنوان

٣٠١,١٦١٠٧٢

البحوث الكيفية في الدراسات الإعلامية

تأليف

د. محمد شومان




عادل المصرى

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٥/٢٧٤٨٧

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤١٤-٣

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٦

الكتاب : البحوث الكيفية فى الدراسات الإعلامية

المؤلف : د. محمد شومان

الغلاف : ريم السخاوى

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

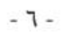
www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

فهرس الكتاب



الإهداء

إلى صديقي المفكر السعودي د. حمد المرزوقي الذي تعلمت منه الكثير..

مقدمة

تهيمن البحوث والدراسات الوضعية والسلوكية الكمية على دراسة الظواهر الإعلامية في مصر واالعالم العربى، وتعتمد هذه النوعية من البحوث على الإحصاءات والأرقام وتحليل المضمون والتحليل الإحصائي لاستجابات المبحوثين أو القائمين بالاتصال على أسئلة استمارات البحث، وغالبًا ما يخضع التحليل والتفسير للمعطيات الرقمية الكمية التي تأتي أحيانًا بلا معنى؛ لأنها قد تعتمد على عينات غير ممثلة للمجتمع، وعلى أسئلة نمطية يجاوب عليها المبحوث بطريقة سطحية أو بدون اكتراث.

ومع ذلك فإن التقاليد العلمية والبحثية في مصر تلتزم بهذه الطقوس الكمية التي تنطلق من المدرستين الوضعية والسلوكية، في أبسط صورها وأكثرها سطحية، من هنا تلجأ أغلب البحوث والدراسات المصرية والعربية إلى عدد من النظريات والنماذج المحدودة، والتي تفترض ثبات وتوازن الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وتبعية الإعلام لهذا التوزان الوظيفي، وضرورة أن يعمل من أجل الحفاظ عليه.

أن أغلب البحوث والدراسات التي تأثرت بالمدرسة النقدية أو بمدارس التحليل الثقافي في مصر اعتمدت على أدوات كمية في جمع وتحليل البيانات، وساد باراديم Paradiem (نموذج إرشادي) يؤمن بأن استعمال تحليل المضمون أو المقابلات بأنواعها واستمارة البحث، هي من شروط البحث العلمي ومن ضوابط تحقيق الموضوعية، وبالتالي رفض هذا الباراديم (نموذج إرشادي) خروج البحوث والدراسات الإعلامية عن النزعة الكمية التي تحولت إلى شكلية سطحية تزخر بالأرقام والجدول والرسوم، وتفتقر إلى الفهم والمعنى أو الدلالة.

وباستثناءات قليلة، ظهرت بعض البحوث والدراسات العربية في مجال الإعلام تعتمد على مقولات المدرسة النقدية أو مدارس التحليل الثقافي، وتحليل الخطاب، وأعتقد أن معظم هذه المحاولات ظهرت في المغرب العربي، وللأسف ظلت بعيدة عن التأثير في السيل

المتدفق من البحوث والدراسات العربية ذات التوجه الوضعي والسلوكي- الكمي، والتي هيمنت على المشهد الأكاديمي والبحثي في المشرق، خاصة في مصر والدول العربية، والمفارقة.

وبرغم هذا القصور إلا أن البراديم (نموذج إرشادي) الكمي الوظيفي المهيمن في كليات وأقسام الإعلام في مصر ودول المشرق، ادعى لنفسه تمثيل العلم والبحث العلمي، ورفض كل محاولات الخروج إلى أفق جديد منفتح على نظريات ومدارس أخرى، بعضها يعتمد على أدوات وأطر نظرية للتحليل الكيفي، وينطلق من نسبية العلوم الاجتماعية، وأن أي محاولة لتحليل الظواهر الإعلامية أو المؤشرات الكمية لا تخلو من تأويل، كما أنها قراءة في ضوء طبيعة الظاهرة الإعلامية والإطار الزمني والمكاني لها، وفي قناعتي أن البراديم (نموذج إرشادي) الكمي والوظيفي الذي هيمن على المشهد الأكاديمي والبحثي في المشرق، قد أعاق تطور البحوث الإعلامية، وجعل منها مسخًا مشوهًا يعيد إنتاج نفسه، ومن ثم فشل في متابعة وفهم كثير من الظواهر الإعلامية، وإدراك تحولاتها المتسارعة في عصر العولمة وثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، والتكامل بينها.

لقد ظل النموذج الإرشادي السائد يدعي الدقة والموضوعية في إجراءات تحليل المضمون ويرفض مدارس التحليل الكيفي، خاصة مدارس تحليل الخطاب، ويعتبر كل البحوث الكيفية هي تأويلات أو شطحات فردية، بالرغم من أن تحليل المضمون أو جمع البيانات اعتمادًا على استمارة المقابلة قد تنطوي على تحيزات وتأويلات، كما أن العينات غالبًا ما لا تمثل المجتمع، وبالتالي لا يمكن تعميم نتائجها. وأستطيع القول- وبعد سنوات طويلة من العمل في البحوث الكمية- إن تحديد فئات الشكل والمضمون في استمارة تحليل المضمون، وكذلك وضع أسئلة استمارة المقابلة، وموقف تطبيق الاستمارة، ينطوي على تحيزات لا تقل عن تحيزات تحليل الخطاب أو القراءة السميولوجية للصور والمشاهد التليفزيونية والسينمائية.

رسالتي أنه لابد أن يتواضع النموذج الإرشادي الكمي الوظيفي السائد في بحوث ودراسات الإعلام في المشرق، ومن الضروري أن يراجع مسلماته وفرضياته الأساسية نحو الانفتاح على مدارس وتوجهات نظرية وممارسات بحثية جديدة، أصبحت جزءًا لا يتجزأ من بحوث ودراسات الإعلام في أوربا وأمريكا، وأتصور أن الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ مهمته الأساسية هو إلقاء الضوء على بعض الأطر النظرية والأدوات المنهجية لبعض مدارس التحليل الكيفي، وذلك من خلال تقديم عدد من البحوث الكيفية التي حاولت تحدي النموذج الإرشادي السائد، وأعترف هنا أنني واجهت مشكلات كثيرة.. ومقاومة.. ورفض.. واستعلاء، إلى أن نجحت، ومعي عدد من الزملاء، في انتزاع حقنا في تقديم شيء جديد، صحيح أن خطواتنا الأولى في الثمانينات من القرن العشرين، كانت متعثرة، وبعضها جمع بين مسلمات وفرضيات لمدارس التحليل الكيفي، إلا أنه تأثر بالنموذج الإرشادي السائد، فجاء بين الكمي والكيفي، لكنني نجحت وبعض زملائي وتلامذتي في بلورة تيار جديد في التحليل الكيفي، خاصة تحليل الخطاب.

في هذا السياق جاءت فكرة هذا الكتاب، والذي يضم بحوثًا- قمت بها خلال مسيرتي البحثية- تتناول موضوعات وظواهر إعلامية مختلفة، إلا أن ما يجمعها هو الاعتماد على أطر وأدوات للتحليل الكيفي، واستخدام نظريات ونماذج أقرب إلى التفسيرية الاجتماعية، وهو مفهوم واسع يندرج تحته مجموعة من النظريات الجديدة عن الثقافة والمجتمع، ويعتبر تحليل الخطاب واحدًا من أهم مناهج التفسير الاجتماعي حيث لا يتوقف كثيرًا عند الأرقام وإنما يهتم بالتحولات والانقطاعات، وفي الوقت نفسه لا يحبس فكره أو تفسيره في نظرية واحدة، وإنما يعتمد على تكامل نظري ومنهجي يجمع بين مقولات مدارس التحليل الثقافي، والمدارس النقدية.

وإذا كان لي إضافات في هذا المجال فإنها تنحصر في محاولات التأصيل النظري والمنهجي لبحوث ودراسات كيفية في مجال الصحافة، وذلك في محاولة لإعادة الاعتبار لنظريات ومناهج التحليل الكيفي وإثبات صلاحيتها، خاصة بعد أن همشت في الدراسات

العربيـة، وخضعـت لهيمنـة وسـيطرة الاتجاهـات الكميـة في البحـوث الإعلاميـة ذات النزعتـين الوضعيـة والسـلوكية، لقـد حاولـت اسـتخدام المنهـج النقـدي، ومناهـج وأدوات التحليـل الثقـافي، وحاولـت التأصيـل لمـدارس تحليـل الخطـاب، وذلـك مـن خـلال التعـرف عـلى الأصـول النظريـة والتطبيقـات المختلفـة لأبـرز مـدارس واتجاهـات تحليـل الخطـاب في مجـالات الاتصـال والإعـلام، مـع اسـتخدام مناهـج التحليـل السـميولوجي، والهرمونطيقـا، ونظريـات، القـراءة التـي تتيـح للمتلقـي الفـرد إمكانيـة إدراك وفهـم النـص في ضـوء خبراتـه الذاتيـة ومعارفـه والظـروف المحيطـة بـه، ومثـل هـذه المـدارس النظريـة وتطبيقاتهـا المختلفـة انبثقـت في إطـار الفلسـفة البنيويـة ومـا بعـد البنيويـة في فرنسـا وأوربـا، ثـم انتقلـت إلى الولايـات المتحـدة وأصبـح لهـا حضـور ملحـوظ في الجامعـات الأمريكيـة.

ويضـم الكتـاب في الفصـل الثـاني بحثًـا عـن جـدل التطبيـع في الصحافـة المصريـة، يفنـد مقـولات وأطروحـات المؤيديـن والمعارضـين وأهـم البراهـين التـي اعتمـد عليهـا الفريقـان، وكذلـك أبـرز تحـولات خطـاب كل منهـما، كـما يحتـوي الكتـاب عـلى بحـث جديـد في موضوعـه ومناهجـه، إذ يبحـث في آليـات تكـون الـرأي داخـل جماعـة صغـيرة، مـن خـلال اسـتعمال أدوات منهجيـة جديـدة، وأظـن أن هـذا البحث قـد يكـون مفيـدًا لبحـوث الـرأي العـام العربيـة، والتـي مـا تـزال تتلمـس طريقهـا وتحتـاج إلى اجتهـادات ومغامـرات بحثيـة جديـدة، لاسـيما في ظـل الافتقـار إلى المنـاخ الديمقراطـي المناسـب والـضروري لتشـكيل الـرأي العـام، والتعبـير عنـه بحريـة، وإخضاعـه للقيـاس.

وفي هــذا الكتــاب بحــث جديــد عــن المشــاركة السياســية للمــرأة في خطــاب الكاريكاتــير في الصحافــة المصريــة، أثنــاء انتخابــات مجلــس الشــعب عــام ٢٠٠٠، حاولــت فيــه أيضًــا الدمــج بــين تحليــل الخطــاب والتحليــل الســميولوجي لعلامــات ورمــوز وقيــم ومعــاني ونصــوص الكاريكاتــير (الصريحــة والضمنيــة) وتجــدر الإشــارة إلى نــدرة البحــوث العربيــة التــي تناولــت بالتحليــل الكاريكاتــور كخطــاب مــرئي ومقــروء، واعتــمادًا عــلى مناهــج وأدوات كيفيــة في التحليــل تســمح بتقديــم قــراءات متعــددة تتلائــم مــع طبيعــة الكاريكاتــير كخطــاب مــراوغ، وكفــن وشــكل مــن

أشكال الاتصال، حيث أن معظم بحوث الكاريكاتير اعتمدت على تحليل المضمون الكمي والذي أعتقد بعدم صلاحيته لتحليل الثراء الكبير في معاني ودلالات الكاريكاتور، لذلك يمكن القول إن هذا البحث هو من بين البحوث العربية القليلة التي تعاملت مع الكاريكاتور كخطاب مرئي ومقروء، وليس مجرد فن، أو مجرد رسالة إعلامية، ضمن رسائل أخرى غير مترابطة.

وخلص البحث إلى اقتراح بفتح حوار مع منتجي الكاريكاتور في الصحافة المصرية بشأن قضايا المرأة بعامة، وقضايا المشاركة السياسية للمرأة، وذلك بهدف تصحيح بعض المفاهيم والأفكار وتبادل الخبرات، ومحاولة التوصل إلى ميثاق شرف مهني يقوم على فكرة أساسية، هي تخلي رسامي الكاريكاتور عن توظيف الصور المختلفة للمرأة في الإضحاك أو النقد الاجتماعي، لأنه رغم التسليم بضرورة النقد بأنواعه، إلا أن كثيرًا من القيم والدلالات غير المباشرة، وربما غير المقصودة، تسيء إلى المرأة المصرية وحقوقها الأساسية فضلًا عن أدوارها الإيجابية في المجتمع، إذ أن المطلوب هو إشاعة مناخ من الوعي والالتزام المهني والاجتماعي بين منتجي الكاريكاتور، بأهمية دور المرأة في المجتمع، وضرورة أن يقوم الكاريكاتور بإبراز هذا الدور، والانتصار لقضايا المرأة، دون أن يخل ذلك بمتطلبات الكاريكاتور، كفن يقوم على السخرية والمبالغات، ودون أن يسيء أيضًا إلى صور المرأة ودورها في المجتمع، أو يساعد في نشر دلالات وقيم سلبية تسيء إلى المرأة المصرية.

وبالمخالفة مع ما هو سائد في البحوث والدراسات الكمية عن الصورة، قدمت بحثًا عن صورة الولايات المتحدة في خطاب الإخوان المسلمين بمجلة الدعوة، أعتمدت فيه على المساهمات النظرية لمدارس متعددة فيما يتعلق بالصور، ودور الإعلام، خاصة الصحافة في خلق وترويج صور الآخر، مع الاستفادة من مساهمات "ميشيل فوكو" في تحليل الخطاب، وعلاقته بالمتغيرات التاريخية والمجتمعية المحيطه به، وقد استخدم الباحث أداة مسار البرهنة في تحليل مكونات صورة الولايات المتحدة في خطاب جماعة الإخوان المسلمين،

وربما كان هذا التحليل من بين المحاولات القليلة لتحليل صورة الولايات المتحدة في خطاب جماعة سياسية دينية، كان لها حضور في الشارع المصري والعربي، من هنا فإن التحليل قد انتهى إلى نتائج مهمة خاصة بصورة الولايات المتحدة في خطاب إيديولوجي ينتج ويوزع عبر مجلة الدعوة، لسان حال جماعة الإخوان في السبعينات من القرن العشرين.

وعلى مستوى التأصيل النظري والمنهجي سعى الفصل الأول لمناقشة مفهوم الخطاب وأهم مدارسه وطرق استخدامه في المجال الإعلامي ، وعرض وتحليل أهم المدارس الفرنسية والألمانية في تحليل الخطاب الإعلامي، وهي مدارس لم تأخذ حقها من الباحثين العرب، وقد ساعد هذا التأصيل النظري في:

أولًا: مناقشة أهم الإشكاليات التي تواجه مدارس واتجاهات تحليل الخطاب وعلاقته بالتوجه النقدي في الدراسات الإعلامية، والذي ارتبط بمدرسة فرانكفورت ومدرسة التحليل الثقافي وأعمال ميشيل فوكو وأخيرًا أعمال عالم الاجتماع الفرنسي بيير بوردو.

ثانيًا: نقد وتقييم الدراسات الإعلامية المصرية التي استخدمت تحليل الخطاب، بما فيها رسالتي لنيل درجة الماجستير، التي أستخدمت فيها تحليل الخطاب في تحليل تطور الفكر القومي العربي في الصحافة المصرية ١٩٢٤ :١٩٥٢.

ثالثًا: التوصل إلى توصية خاصة باختيار العينات في الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، حيث كانت تعتمد على عينات كبيرة من النصوص، نتيجة تأثرها بالمنهجية الوضعية السلوكية، التي تفترض المساواة بين أهمية النصوص، وإمكانية اختيار عينات ممثلة، وهو ما ترفضه أغلب مدارس تحليل الخطاب، حيث أن النصوص لا تتساوى في الأهمية، كما أن هناك نصوصاً مركزية أو حاكمة يطلق عليها ييجر (العقد الخطابية)، فضلًا عن ضرورة فهم واستيعاب التناص والتشابك والتكرار بين النصوص، والذي قد لا يضيف جديدًا لتحليل الخطاب؛ لذلك فمن

المهـم تحديـد العقـد والتشـكيلات الخطابيـة والممارسـات غـير الخطابيـة، والتركيـز عليهـا في التحليل بغـض النظـر عـن كـم النصـوص التـي سـتخضع للتحليـل، ولاشـك أن اختيـار النصـوص المركزيـة التـي تسـجل الخطـاب وتحولاتـه هـي إشـكالية نظريـة وإجرائيـة يـدور حولهـا نقـاش واسـع، مـن الـضروري أن يتابعـه الباحثـون العـرب في مجـال تحليـل الخطـاب، ويشـاركون فيـه نظريًـا وعمليًـا.

رابعًـا: ضرورة الانفتـاح والتواصـل مـع مـدارس تحليـل الخطـاب الأوربيـة، بـل الانفتـاح والتواصـل مـع الدراسـات العربيـة التـي أجريـت في المغـرب العـربي، في مجـال تحليـل الخطـاب عامـة، والخطـاب الإعلامـي خاصـة، والتـي يبـدو أنهـا تناولـت موضوعـات بالغـة الأهميـة، كـما تابعـت بوعـي وعـن قـرب مـدارس تحليـل الخطـاب، خاصـة المدرسـة الفرنسـية، لكـن العقبـة التـي تحـول دون تعميـم الاسـتفادة مـن هـذه الدراسـات عـلى النطـاق العـربي، تكمـن في أن معظمهـا كتـب باللغـة الفرنسـية، مـن هنـا يقـترح الباحـث ترجمـة ونـشر بعـض مـن هـذه الدراسـات تدعيـمًا للتواصـل والحـوار العـربي- العـربي في مجـال تحليـل الخطـاب الإعلامـي.

وفى الفصـل الخامـس قدمـت بحثًـا عـن خطـاب الإعـلان، المعـولم في الصحافـة العربية، هو عبـارة عن قـراءة سـميولوجية ومـن وجهـة نظـر نقديـة للعلامـات والرمـوز والقيـم والأفـكار الصريحـة والضمنيـة، التـي يقدمهـا خطـاب الإعـلان الـذي تنتجـه شركات متعـددة الجنسـية ويـروج لمنتجـات ورمـوز اسـتهلاكية يجـري تداولهـا واسـتهلاكها عـلى صعيـد السـوق الرأسـمالي المعـولم، ذلـك السـوق الموحـد أو الواحـد بفعـل مصالـح الـشركات متعـددة الجنسـية، ويمكـن القـول بـأن هـذا البحـث كان مـن بـين أبحـاث عربيـة قليلـة تعاملـت مـع الإعـلان كخطـاب وليـس كمجـرد نصـوص متفرقـة أو رسـائل إعلاميـة كل منهـا مسـتقل بذاته.

ويهمنـي قبـل أن أدعـوك عزيـزي القـارئ لقـراءة الكتـاب والحكـم عـلى مـدى جديـة ونفـع مـا ورد فيـه، أن أنبـه إلى مخاطـر الاسـتخدام الـسيء والسـطحي لمـدارس تحليـل الخطـاب في

بعـض البحـوث والدراسـات الجامعيـة، والتـي تنقـل باسـتخفاف وبـدون فهـم عنـا أو عـن غيرنـا، وتخلـط بجهـل بـين إجـراءات تحليـل الخطـاب وإجـراءات تحليـل المضمـون الكمـي، صحيـح أننـي وعـدد مـن زمـلائي قـد نجحنـا في إنتـاج نمـاذج جيـدة مـن بحـوث تحليـل الخطـاب والأسـلوبية وغيرهـا مـن مـدارس وأدوات التحليـل الكيفـي، لكـن قيـام بعـض الباحثـين وأعضـاء هيئـات التدريـس بادعـاء اسـتخدام تحليـل مضمـون دون معرفـة أو فهـم يجعلنـا نواجـه أزمـة الإسـاءة إلى مـدارس تحليـل الخطـاب، وتحويلـه إلى مجـرد تحليـل غـرضي وسـطحي لا علاقـة لـه بالعلـم والاجتهـاد.

إن الخطـاب بشـكل عـام في أي مجتمـع هـو مجمـل القـول والفعـل، وهـو الممارسـة الاجتماعيـة، ويقـوم الخطـاب الإعلامـي بنقـل هـذه الممارسـة الاجتماعيـة إلى الجمهـور مـن خـلال وسـائل الإعـلام التـي لهـا تحيزاتهـا المعلنـة وغـير المعلنـة؛ لذلـك مـن الـضروري تحليـل الخطـاب الإعلامـي، لنتعـرف عـلى مـدى دقتـه في نقـل الواقـع ومـا هـي اسـتراتيجياته؟ ومـا الـذي يخفيـه أو يـبرزه؟ ولمصلحـة مـن يعمـل أويوظـف هـذا الخطـاب؟؟

ولا يوجـد خطـاب إعلامـي واحـد، وإنمـا هنـاك خطابـات إعلاميـة متصارعة، لكـن دائمًا يوجـد خطاب مهيمـن ومنتـشر بغـض النظـر عن دقته في نقـل الممارسـات الاجتماعية، وهنـاك محاولات لتحليـل الخطاب الإعلامـي المـصري قامـت بهـا بعـض رسـائل الماجسـتير والدكتـوراه، عـلاوة عـلى بعـض الأبحـاث في كليـات وأقسـام الإعـلام، لكـن للأسـف الشـديد فـإن أغلـب تلـك المحـاولات خاطئـة، ولا علاقـة لهـا مـن قريـب أو بعيـد بالمناهـج والأسـاليب العلميـة المسـتخدمة في مـدارس تحليـل الخطـاب في العـالم، وتعتمـد أغلب تلك المحـاولات عـلى أربعـة أو خمسـة مناهـج وأدوات ظهـرت قبـل حـوالي أربعـين عامًـا، وفي بدايـات تحليـل اللغـة اجتماعيًـا وإعلاميًـا، وقـد تطـورت كل تلـك المناهـج والأدوات ولكننـا في مـصر نقـف عنـد تحليـل الأطروحـات، ومسـار البرهنـة، والحجـج والبراهـين، والحقـول الدلاليـة للخطـاب الإعلامـي، ويكـرر بعـض الباحثـين المصريـين والعـرب هـذه المناهـج والأدوات الأربعـة بـلا فهـم صحيـح لماهيـة الخطـاب وكيـف

يتشكل، وعلاقته بالهيمنة الناعمة في المجتمع، وتزييف وعي الجمهور؛ لذلك حول بعض الباحثين تحليل الخطاب إلى إجراءات كمية تحصي التكرارات، وتضعها في جداول لا معنى لها سوى محاولة تقليد تحليل المضمون الكمي!!، بالرغم من أن مدارس تحليل الخطاب تتفق على أنه تحليل كيفي وليس كميًا، ولا يعني كثيرًا بالعينات الكبيرة التي تتكرر فيها المعاني والصور.

إن تحليل الخطاب لا يهتم بالتكرار أو التماثل وإنما يركز على الندرة، ندرة المعاني والصور، ويتوقف طويلًا عند التحولات في الخطاب الإعلامي، فمثلًا لا يهمنا كثيرًا حساب تكرارات موقف إدارة أوباما من ٣٠ يونيو أو تعاطفها مع الإخوان، وإنما يهمنا أكثر التحول في الموقف الأمريكي والذي عبر عنه جون كيري وزير الخارجية الأمريكي في زيارته للقاهرة في أغسطس ٢٠١٥، عندما وصف جماعة الإخوان بأنها تنظيم إرهابي تخريبي، لا يهمنا في تحليل الخطاب حساب كم مرة ظهر أو كتب شعار «الجيش والشعب إيد واحدة» وإنما يهمنا أكثر كيف تبدل هذا الشعار إلى «يسقط حكم العسكر» ثم كيف ظهر شعار يسقط حكم المرشد «وكيف ولماذا عاد شعار «الجيش والشرطة إيد واحدة»، هذه الأمثلة البسيطة توضح أن تحولات الخطاب أهم بكثير من استمراره في تكرار معانيه وصوره.

ويركز تحليل الخطاب أيضًا على الخطاب المهيمن، وكيف يصنع ويدافع عن تلك الهيمنة ولمصلحة من يعمل؛ لذلك هناك ضرورة لفهم آليات إنتاج وتمويل وتداول الخطاب المهيمن، وهل يعكس التحيز والتمييز الثقافي أو الاجتماعي السائد في المجتمع، أم أنه ينتج أشكالًا جديدة من التمييز. في هذا الإطار لابد من تحليل الخطابات المهمشة أو المستبعدة وهل لها تأثير وجمهور، ومدى فاعليتها الاجتماعية، وعلاقتها بالديمقراطية وحرية الرأي والتعبير في المجتمع، أكثر من ذلك لابد لتحليل الخطاب من دراسة علاقة الصراع والتداخل بين الخطابات المختلفة في المجتمع، فخطاب السلطة المهيمن قد يستعير ويعيد توظيف مفاهيم وصور وأفكار لدى خطاب المعارضة أو لدى بعض الخطابات المهمشة، والعكس صحيح، ما يعني أن هناك ثمة تداخل خطابي من المفيد دراسته.

للأسف الشديد، كل هذه الأسس المنهجية غائبة عن معظم دراسات تحليل الخطاب الإعلامي في مصر، والتي تقف معرفيًا ونظريًا عند ثمانينيات القرن الماضي، فلم تطور من أدواتها أو مناهجها، وما تزال عاجزة عن نقل وتقليد، ومن ثم تمصير، الحديث في مجال تحليل الخطاب، والذي وصل إلى مراحل متطورة للغاية في تحليل النصوص والخطابات المكتوبة والمصورة، وباستخدام برامج كمبيوتر تساعد الباحث في رصد مفاهيم الخطاب الأساسية وتحولاته، وعلاقته بالنظام السياسي والإعلامي.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف نحلل الخطاب الإعلامي؟

السؤال صعب ومعقد وربما تجد بعض جوانب الإجابة في هذا الكتاب، لكن وباختصار وبدرجة كبيرة من التبسيط، أجيب بأنه لابد من التمييز بين الخطابات العامة في المجتمع، وبين الخطاب الإعلامي، الذي لا يعدو كونه واحدًا منها، لكن أهميته تكمن في أنه ينقل كل الخطابات، سواء كان سياسيًا أو اقتصاديًا أو نسويًا إلى الجمهور من خلال وسائل الإعلام، وفي عملية النقل هذه تصبح كل الخطابات بمعنى ما.. خطابات إعلامية، كما أن النقل الإعلامي في الغالب لا يتسم بالدقة والموضوعية، وإنما يقع في أخطاء التهوين أو الاختزال أو التضخيم، لذلك لا يوجد خطاب إعلامي مماثل للواقع إلا في حالات نادرة واستثنائية، بكلمات أخرى، الخطاب هو مجمل القول والفعل، وهو الممارسة الاجتماعية، ويقوم الخطاب الإعلامي بنقل هذه الممارسة الاجتماعية إلى الجمهور من خلال وسائل إعلام لها تحيزاتها، وقواعد مهنية لها أيضًا تحيزاتها للمشاهير وأصحاب السلطة والأحداث الغريبة والمثيرة في المجتمع، علاوة على التحيزات المعلنة وغير المعلنة للإعلاميين أنفسهم.الخطاب الإعلامي في العالم كله لا يخلو من تحيزات، ولكن بدرجات مختلفة، وتتضخم هذه التحيزات في الدول غير الديمقراطية غالبًا لتصل إلى مستوى الأكاذيب والدعاية الفجة، وهنا يأتي دور تحليل الخطاب الإعلامي في كشف ونقد عملية إنتاج وتوزيع واستهلاك الخطاب في كل مجتمع، ومستويات الغش والخداع والتضليل في أي ممارسة خطابية، ويتفق علماء تحليل الخطاب على عدة عناصر لابد من التركيز عليها في تحليل أي خطاب، وهي باختصار شديد:

أولاً: الإطار العام للمجتمع، ومدى تطوره الديمقراطي، و أو ضاعه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ثانيًا: ملكية وسائل الإعلام، أي من يملك ويدير وسائل الإعلام، وهل هناك احتكار أم تعددية؟، وما هي مصادر تمويل الإعلام، ومدى الشفافية في الإعلان عنها ومراقبتها؟، وإلى أي مدى يعتمد الإعلام على الدخل من الإعلان؟.

ثالثًا: التشريعات والقوانين التي تنظم العمل الإعلامي، والهيئات التي تراقب الأداء الإعلامي، ومدى الشفافية، والحرية التي تتيحها في أرض الواقع ومن خلال الممارسة اليومية، بحيث لا تكون هناك فروق كبيرة بين ما تنص عليه التشريعات والقوانين، وما يطبق ويمارس فعليًا.

رابعًا: مستوى استقلالية وكفاءة التنظيمات النقابية للعاملين في الإعلام، وإلى أي مدى توفر ضمانات مادية ومعنوية لهم، في مقابل ضغوط الدولة ورجال الأعمال والإعلان.

خامسًا: القواعد المهنية والتقاليد المعمول بها في وسائل الإعلام المختلفة، وهل تتسم بالدقة والتوازن والشفافية؟، وهل تضمن مشاركة كل العاملين في إنتاج الخطاب؟، وهل تضمن عدم التمييز ضد بعض الفئات في المجتمع؟.

سادسًا: مستوى تعليم وخبرة الإعلاميين ومدى التزامهم بأدلة عمل ومواثيق شرف، فضلًا عن مدى احترامهم لحقوق المواطنين في الاتصال والإعلام.

سابعًا: المستوى التعليمي والثقافي لمستهلكي الخطاب الإعلامي وكيف يتعاملون معه، ومدى مشاركة الجماهير في إنتاج الخطاب الإعلامي، وتداوله؟، وهل توجد منظمات وهيئات مستقلة تدافع عن حقوق الجمهور في الاتصال وتضمن مشاركته؟ .

ثامنًا: مدى التعدد والتنوع في إنتاج وتداول الخطاب، وطبيعة العلاقة بين الخطاب المهيمن، والخطابات الفرعية، وإلى أي مدى تعاني الخطابات الفرعية والمعارضة من القمع والتهميش، سواء من السلطة أو الإعلاميين، أو حتى الجمهور نفسه.

تاسـعًا: التحـولات الرئيسـية في الخطـاب الإعلامـي؛ لأن دراسـة وتحليـل التحـولات والانقطاعـات، أهـم بكثـير مـن دراسـة الاسـتمرار والثبـات في إنتـاج وتـداول الخطـاب.

عـاشرًا: إلى أي مـدى يعـترف الخطـاب الإعلامـي بأخطائـه أو تحيزاتـه أحيانًـا، ويتخـذ إجـراءات جـادة لتصحيـح مسـاره، وهـل تقـوم بذلـك السـلطة، أم هيئـات مسـتقلة، وجهـات تمثـل المجتمـع المـدني، أم يقـوم بذلـك الإعلاميـون أنفسـهم مـن خـلال التنظيـمات والنقابـات التـي تعـبر عنهـم؟.

في الأخـير أتعشـم أن أكـون قـد نجحـت في هـذه المقدمـة القصـيرة في توضيـح أهـداف هـذا الكتـاب، وإلقـاء الضـوء عـلى مفهـوم الخطـاب، وكيـف يمكـن تحليـل الخطـاب الإعلامـي، والمقصـود بالبحـوث الكيفيـة في مجـال الدراسـات الإعلاميـة، التـي تتطـور بوتـيرة متسـارعة في الألفيـة الثالثـة، لتكـسر الهيمنـة الأكاديميـة والبحثيـة للنزعـة الكميـة، وأعتقـد أن هـذه المواجهـة لـن تخلـو مـن صراع معـرفي ومنهجـي، ومـا يهمنـي عزيـزي القـارئ أن تتجـرد مـن تحيزاتـك المسـبقة، سـواء لصالـح البحـوث الكيفيـة أو الكميـة، وتقـرأ البحـوث التـي يضمهـا هـذا الكتـاب، باعتبارهـا ممارسـات واجتهـادات في إطـار مـدارس التحليـل الكيفـي، أرجـو أن تقرأهـا بوعـي نقـدي، وبمحاولـة للفهـم والبحـث عـن جديـد، وأنـا أثـق أن هـذا الجديـد سـيكون أفضـل مـما جـاء في هـذا الكتـاب، وربمـا يكـون جمعًـا إبداعيًـا بـين النزعتـين الكميـة والكيفيـة، المهـم أن نراجـع مـا لدينـا مـن معـارف وقناعـات، ونعمـل عـلى تجديـد بحـوث ودراسـات الإعـلام العـربي، واللـه مـن وراء القصـد.

القاهرة، التجمع الأول، سبتمبر ٢٠١٥

الفصل الأول

إشكاليات تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية

الدراسات المصرية نموذجًا

مقدمة:

ارتبطت نشأة وتطور بحوث ودراسات الإعلام في العشرينات من القرن الماضي بالنموذجين الوضعي والسلوكي positivist and behaviourist paradigm، فقد استمد التخصص الجديد الكثير من منطلقاته ومفاهيمه وأطره النظرية والمنهجية من هذين النموذجين، في هذا الإطار ركزت بحوث الإعلام- وما تزال- على تأثيرات وسائل الإعلام في الجمهور اعتمادًا على ما يعرف بدراسات الجمهور، وأهملت إلى حد كبير دراسة مضمون وشكل الرسالة الإعلامية التي يفترض أنها تحدث التأثير المطلوب أو المرغوب من وجهة نظر المرسل أو القائم بالاتصال سواءً كان شخصًا أو مؤسسة إعلامية.

وحتى عندما التفت الباحثون لأهمية دراسة شكل ومضمون الرسالة الإعلامية، لم تعرف الدراسات الإعلامية سوى التحليل الكمي لمضمون أو محتوى الرسالة الإعلامية، والذي ذاع صيته بفضل مقال (بريلسون Berelson) الشهير، والذي نشره عام ١٩٥٢ بعنوان «التحليل الكمي للمحتوى في أبحاث الاتصال»، واستنادًا إلى مساهمات (بريلسون)وآخرون سادت تقاليد التحليل الكمي الدراسات الإعلامية، وأصبحت جزءًا من التقاليد البحثية في حقل الدراسات الإعلامية، بينما اختفت أو غيبت الدراسات الكيفية واتهمت بالتحيز والبعد عن الموضوعية، ويرصد (تومبكنس) استمرار هذه الظاهرة في أقسام وكليات الإعلام الأمريكية والمجلات العلمية حيث قام بتحليل ملخصات البحوث المنشورة في المجلات الإعلامية الأمريكية في الفترة من ١٩٨٨-١٩٩٤ ووجد ستة بحوث فقط استخدمت مناهج بحوث كيفية، وفسر تومبكنس ذلك في ضوء عاملين هما الاعتقاد السائد بين الباحثين بأن المجلات العلمية لا تنشر البحوث الكيفية، بالإضافة إلى نقص التدريب على تحليل المضمون الكيفي (Tompkins, ١٩٩٤ , PP ٤٤-٥٠).

لكن يمكن إضافة عامل ثالث لتحليل (تومبكنس) يتمثل في قلة الاهتمام بدراسة مضامين الرسائل الإعلامية والذي ارتبط بنشأة تخصص الإعلام في إطار الوضعية

والسـلوكية، مـن هنـا يذكـر (لنجـر) عـام ١٩٩٨ أن الرسـائل في النصـوص الإعلاميـة لم تحـظ فعليًـا بالاهتـمام الأول في مجـال بحـوث الإعـلام خـلال الخمسـة عـشر إلى العشريـن سـنة الأخـيرة، وظهـرت كثـير مـن البحـوث في التسـعينات تركـز عـلى عمليـات إنتـاج واسـتقبال الأفـراد أو المجموعـات للرسـائل الإعلاميـة، وذلـك رغـم أن الأفـراد المتلقـين يفـسرون النصـوص الإعلاميـة وفقًـا لحياتهـم الشـخصية وخبراتهـم وتجاربهـم الذاتيـة، إلا أن للنـص ذاتـه تأثـير حاسـم عـلى تفسـيراتهم (Langer,١٩٩٨).

عـلى أن سـيادة وهيمنـة مناهـج وأدوات التحليـل الكمـي، لم تمنـع مـن ظهـور كثـير مـن الانتقـادات، التـى انصبـت عـلى شـكلية وعـدم موضوعيـة فئـات التحليـل التـي تدعـي بـدون أسـاس عـلى الدقـة والموضوعيـة، وتنـزع إلى تفتيـت النـص، وتحويلـه إلى مجـرد أرقـام وبيانـات إحصائيـة لا تكشـف عـن معنـى النـص أو المعـاني التـي يحملهـا، إن التحليـل الكمـي عكـس التحليـل الكيفـي يهمـل سـياق النـص وعلاقـات القـوى داخلـه، ومنظـور الفاعـل، فضـلاً عـن عـدم الاكـتراث بالمعـاني الضمنيـة أو غـير الظاهـرة في النـص (عبـد الرحمـن وآخـرون, ١٩٨٣) مـن هنـا بـدأت تظهـر- وعـلى اسـتحياء- محـاولات لاسـتخدام مناهـج وأدوات للتحليـل الكيفـي في دراسـة النصـوص الإعلاميـة، وقـد اتسـمت في البدايـة بالـتردد والخلـط وعـدم الوضـوح أو التكامـل المنهجـي والإجـرائي، لكنهـا شـكلت نوعًـا مـن المواجهـة والتحـدي للتقاليـد السـائدة في مجـال الدراسـات الإعلاميـة (Curtin, ١٩٩٦).

وفي مطلـع السـبعينات مـن القـرن المـاضي اتجه عدد مـن الباحثين الاسـكندنافيين في مجـال الإعلام إلى تأييـد واسـتخدام التحليـل الكيفـي للمحتـوى من منظـور أيديولوجي، وعرف هـذا التوجه بالاتجاه الإنسـاني humanistic trend والـذي ركـز عـلى علاقـات القـوة التـي تحـاول النصـوص الإعلاميـة التعبـير عنهـا، كما سـعى لتطويـر أدوات التحليـل الكيفـي مسـتفيدًا مـن التطـور الـذي تحقق في مجـال الدراسـات العلاماتية، وتحليـل النـص، وكان مـن أبـرز ممثـلي هـذا الاتجـاه الباحـث الدانمـاركي بيـتر لارسـن Beter Larsen، والـذي أكـد أن التحليـل الكيفـي ليـس غايـة في حـد ذاتـه، ووفقًا لمايرينـج Mayring فـإن التحليـل الكيفي

للمحتوى يقوم على الفحص الدقيق لمصادر المادة المزمع تحليلها، وعلى الملاحظة الصريحة والفهم الذاتي للذين يقومون بالتحليل، مع الاهتمام أيضًا بوجهات نظر الآخرين، وكذلك تقبل نتائج إعادة التفسير، وتعتبر المصطلحات العلاماتية والنظرية البراجماتية للمعنى وقواعد التفسير على أساس التحليل البنيوي للنص من أدوات العملية التحليلية، والتي تتضمن المبادئ الأساسية لتلخيص وشرح وهيكلة المادة محل الدراسة- (Howley, ١٩٩٩ Langer, ١٩٩٨).

على أن هذه الأدوات المنهجية لم تكن كافية لدراسات الرسائل أو النصوص الإعلامية في علاقاتها المتشابكة والمعقدة مع الرسائل السابقة، ومع بنية المجتمع والقوة المهيمنة عليه، من هنا تطورت محاولات التحليل الكيفي وتطورت في الثمانينات من القرن الماضي باتجاه تبني منهجية تحليل الخطاب، وتحليل الخطاب النقدي، وقد تأثرت هذه المحاولات بهيمنة اتجاه ما بعد البنيوية، ورغم عدم الاتفاق على مفهوم الخطاب إلا أنه أصبح يستخدم على نطاق واسع في تحليل النصوص الإعلامية، ويمكن القول أن السيميولوجيا (العلاماتية) قد قادت في الستينات وأوائل السبعينات حقل تحليل النصوص الإعلامية، ووفرت للباحثين أسلوبًا لتحليل المعنى، بينما هيمن التحليل الأيديولوجي على هذا الحقل في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات، وقد زود الباحثين بمنهج للتفكير في العلاقات بين المعنى والبنية الاجتماعية.

ومنذ منتصف الثمانينات وحتى الآن أصبحت نظرية الخطاب هي التي تقود عمليات تحليل النصوص الإعلامية، ولقد دفعت نظرية الخطاب الباحثين إلى إعادة التفكير في العلاقة بين المعنى والبنية الاجتماعية، من خلال التركيز على السلطة من داخل نظام المعنى وليس من خارجه، فنظم المعنى نفسها تعتبر سلطة، وهي لا تظهر بسهولة كنظم، مثل بنية اللغة بل من خلال ممارسات ذات دلالة، إنها ليست ببساطة المعاني المرتبطة بالممارسات الاجتماعية، كما يقول (ألتوسير) في نظرية الأيديولوجية، بل إن المعنى والممارسة لا يمكن التمييز بينهما فهمًا مترابطان، أي أن المعنى هو الممارسة في نظرية الخطاب (Tolson, ١٩٩٦, p١٩٦).

إن الخطـاب ليـس هـو اللغـة، كـما توجـد اختلافـات عميقـة بـين الخطـاب والنـص، وذلـك رغـم نشـأتهما التقليديـة مـن الدراسـات اللغويـة، إن الخطـاب والنـص يبحثـان في البنـاء والوظيفـة لوحـدات اللغـة الكـبرى، كـما تطـورا في نفـس الوقـت تقريبًـا؛ لذلـك هنـاك مـن يعتبرهـما متطابقـين، لكـن لاشـك في وجـود فـروق كبـيرة بينهـما عـلى مسـتوى المفاهيـم والمناهـج والوظائـف، فالخطـاب يركـز عـلى اللغـة والمجتمـع. (Tankard,١٩٩٤)

إن الخطـاب- كـما يقـول (فـيركلاو)- يشـير إلى اسـتخدام اللغـة حديثًـا وكتابـة, كـما يتضمـن أنواعًـا أخـرى مـن النشـاط العلامـاتي مثـل الصـور المرئيـة- الصـور الفوتوغرافيـة، الأفـلام، الفيديـو، الرسـوم البيانيـة- والاتصـال غـير الشـفوي- مثـل حـركات الـرأس أو الأيـدي... إلـخ- ويخلـص إلى أن الخطـاب هـو أحـد أشـكال الممارسـة الاجتماعيـة، ثـم يسـتخدم (فـيركلاو) الخطـاب بمعنـى أضيـق حـين يقـول: «الخطـاب هـو اللغـة المسـتخدمة لتمثيـل ممارسـة اجتماعيـة محـددة مـن وجهـة نظـر معينـة»، وتنتمـي الخطابـات بصفـة عامـة إلى المعرفـة، وإلى بنـاء المعرفـــة. (fairclough ,١٩٩٥,pp ٥٣-٥٦)

عـلى أن (فـيركلاو) وغـيره مـن الباحثـين في حقـل تحليـل الخطـاب النقـدي قـد توسـعوا في تعريفاتهم واسـتخداماتهم لمفهـوم الخطـاب، بحيـث غـدا عندهـم يشـمل كل شيء، وتقـع تحـت مظلتـه تخصصـات ومجـالات واسـعة في العلـوم الاجتماعيـة، ومـن منظـور نقـدي، وقـد ترافـق ذلـك بالتوسـع في اسـتخدام تحليـل الخطـاب النقـدي عـبر تخصصـات مختلفـة ولأغـراض متباينـة، مـع غيـاب التعـاون بـين هـذه التخصصـات، مـا أدى إلى عـدم الاتفـاق عـلى مـا هـو تحليـل الخطـاب، وكيـف يمكـن تطبيقـه، ومـا هـي حـدوده وإمكانياتـه، ومثـل هـذه الحالـة لا تقلـق الكثـير مـن الباحثـين، حيـث يـرى البعـض أن كثـيرًا مـن المفاهيـم والنظريـات التـي تسـتخدم في العلـوم الاجتماعيـة لا يوجـد حولهـا اتفـاق، كـما هـو الحـال في عـدم الاتفـاق حـول تعريـف الأيديولوجيـة بـين التخصصـات المختلفـة. (Tankard,١٩٩٤)

إن عـــدم الاتفـــاق عـــلى مفهـــوم الخطـــاب واســـتخداماته لم تمنـــع مـــن انتشـــار بحـــوث تحليـــل

الخطاب وتناولها لموضوعات ومجالات متعددة، من بينها تحليل الخطاب الإعلامي، الذي يعتبر تطورًا مهمًا لمجال التحليل الكيفي للرسائل الإعلامية وشروط إنتاجها وتداولها وتأثيرها في الجمهور، فضلًا عن تفاعلاتها مع البنية المجتمعية.

مجمل التطورات السابقة فيما يتعلق بتطور تحليل النصوص والرسائل الإعلامية انعكست بصور مختلفة، وأحيانًا متباينة على البحوث والدراسات العربية في مجال الإعلام، كما كان لها- وبدرجات مختلفة- نماذجها وممثليها، ولكن بصفة عامة كانت تلك التطورات المنهجية والنظرية تنتقل إلى الدراسات والبحوث العربية بفارق زمني كبير، كما كان يجري تبنيها أحيانًا بطريقة آلية وبدون تمثيل لخصوصيات اللغة والثقافة العربية، وتكفي الإشارة هنا إلى أن البحوث الإعلامية العربية، والتي صدرت باللغة العربية في الجامعات المصرية استخدمت تحليل المضمون الكمي لأول مرة في مطلع السبعينات، وقد هيمن التحليل الكمي للرسائل الإعلامية على دراسات وبحوث الإعلام- خاصة رسائل الماجستير والدكتوراه- في مصر خلال السبعينات والثمانينات، ولم تظهر تقريبًا خلال هذه الفترة أي محاولة للتحليل الكيفي للرسائل الإعلامية، وفي مطلع التسعينات وبداية من عام١٩٩٠ بدأت تظهر دراسات كيفية استخدمت وبشكل متعثر مفهوم ومنهجية الخطاب، ثم ظهرت بعدها العديد من الدراسات والرسائل العلمية التي استخدمت منهجية الخطاب بشكل أفضل، كما استفادت من مناهج تحليل النص وعلم الدلالة.

أولاً: إشكالية الدراسة:

ترتبط إشكالية الدراسة بمجمل الإشكاليات الخاصة بتطور تحليل الرسائل والمضامين الإعلامية، وأهمها عدم التوازن بين التحليل الكمي والكيفي في دراسات وبحوث تحليل مضمون الرسائل الإعلامية، وهيمنة التحليل الكمي على التقاليد العلمية والمنهجية في مجال بحوث ودراسات الإعلام على المستويين العالمي والعربي، ورغم محاولات استخدام مناهج وأدوات التحليل الكيفي، وتطورها باتجاه استخدام تحليل الخطاب والاستفادة من علوم

اللغويات، والعلامات وعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي والاثنوجرافيا والدراسات الثقافية، إلا أنه لا يوجد اتفاق حول الخطاب, كما تختلف المفاهيم النظرية والاستخدامات العملية لمفهوم الخطاب، وقد انعكست تلك الإشكاليات على المحاولات العربية لتحليل الخطاب الإعلامي، والتي لم تتمكن من تحدي التقاليد العلمية السائدة واستخدام مناهج وأدوات التحليل الكيفي ومناهج تحليل الخطاب، إلا في مطلع التسعينات، وبعد أن أنجزت بحوث ودراسات تحليل الخطاب في الدول الاسكندنافية وبريطانيا وأستراليا وألمانيا خطوات مهمة على طريق التبلور المنهجي والإجرائي.

من هنا فإن الإشكالية الرئيسة لهذه الدراسة تتمحور في أن الفجوة الزمنية والعلمية بين مدارس تحليل الخطاب في العالم والمحاولات العربية، قد وفرت للباحثين العرب فرصة الإطلاع على ما قدمته مدارس التحليل الكيفي ومدارس تحليل الخطاب من مساهمات نظرية وتطبيقات عملية، لكنها ضاعفت من حدة ونوعية الإشكاليات التي تواجهها البحوث العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي- كما تجسده البحوث والدراسات التي أجريت في مصر باللغة العربية- حيث انتقلت الإشكاليات المعرفية والمنهجية الخاصة بمفهوم الخطاب وحدود استخداماته ونتائجه إلى الدراسات العربية، مما أدى إلى بعض الخلط المفاهيمي والمعرفي في استخدام بعض الدراسات العربية لتحليل الخطاب، من هنا فإن الدراسة تسعى إلى مناقشة إشكاليات تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية.

ثانيًا: أهداف الدراسة:

في ضوء الإشكالية الرئيسة للدراسة وما ارتبط بها من إشكاليات يمكن تحديد أهداف الدراسة في:

١- التعرف على الملامح الرئيسة لمدارس تحليل الخطاب والتي جاءت من تخصصات وعلوم مختلفة، وأثرت على البحوث العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي.

٢- الكشف عن أهم الاختلافات المعرفية والمنهجية بين مدارس تحليل الخطاب، والتي أدت إلى عدم الاتفاق حول مفهوم الخطاب، وحدود استخدامات تحليل الخطاب، ونتائجه.

٣- رصد وتحليل نشأة وتطور البحوث والدراسات الإعلامية العربية التي ظهرت في مصر واستخدمت مفاهيم وأدوات ومناهج تحليل الخطاب.

٤- الوقوف على مدى الدقة والوضوح في مفاهيم وإجراءات استخدام وتطبيقات تحليل الخطاب في الدراسات العربية، في ضوء تأخر ظهورها واعتمادها على مدارس تحليل الخطاب الأوربية والتي تعاني من إشكاليات عدم الاتفاق على مفاهيم الخطاب وحدود استخدامات تحليل الخطاب ونتائجه.

ثالثًا: تساؤلات الدراسة:

١- ما هي العلاقة بين تحليل الخطاب والدراسات اللغوية من جهة, وبين تحليل الخطاب ودراسة النص من جهة ثانية؟

٢- ما هي الجذور المعرفية لتحليل الخطاب؟ وما هي أهم مفاهيم الخطاب واستخداماته؟

٣- ما المقصود بتحليل الخطاب والتحليل النقدي للخطاب؟ وما هي حدود استخداماتهما؟

٤- ما المقصود بالخطاب الإعلامي وكيف يمكن تمييزه عن بقية الخطابات في المجتمع؟

٥- إلى أي مدى يمكن التقريب بين المدارس المختلفة لتحليل الخطاب؟

٦- لماذا تأخر ظهور الدراسات والبحوث الإعلامية التي استخدمت تحليل الخطاب؟

٧- ما هي الظروف والتحديات التي أحاطت بنشأة الدراسات والبحوث العربية التي استخدمت مفاهيم تحليل الخطاب؟

٨- كيف انعكست الإشكاليات المنهجية الخاصة بمفاهيم الخطاب وحدود استخداماته على الدراسات والبحوث العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي؟

٩- ما هي أهم موضوعات الدراسات والبحوث الإعلامية العربية التي أجريت في مصر واستخدمت مفاهيم ومناهج تحليل الخطاب؟

١٠- ما هي أهم الأصول المعرفية والإجراءات المنهجية التي استخدمتها الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب؟

١١- كيف يمكن مواجهة وحل الإشكاليات التي تعاني منها الدراسات والبحوث العربية الإعلامية التي اعتمدت على تحليل الخطاب؟

رابعًا: حدود الدراسة وأهميتها:

تستمد هذه الدراسة أهميتها من حداثة استخدام تحليل الخطاب في البحوث والدراسات الإعلامية العربية، ومن ثم قلة الكتابات النظرية والتطبيقات العملية في مجال تحليل المضمون، مع وجود قدر من الغموض المفاهيمي والاضطراب النظري حول تحليل الخطاب واستخداماته، من هنا تبرز أهمية التأصيل النظري للموضوع، ومناقشة إشكاليات استخدام تحليل الخطاب في البحوث والدراسات العربية، بغية التوصل إلى بعض المقترحات لتطوير استخدامات تحليل الخطاب الإعلامي في البحوث والدراسات العربية.

وتنتمي الدراسة إلى الدراسات الوصفية التحليلية، كما تقتصر على وصف وتحليل نماذج من رسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت وأجيزت في كلية الإعلام جامعة القاهرة، واستخدمت تحليل الخطاب، ويأتي اختيار رسائل الماجستير والدكتوراه في ضوء:-

- فرضيـة أن تلـك الرسـائل تراعـي التقاليـد العلميـة المتعـارف عليهـا، كـما تلتـزم بأكـبر قـدر ممكـن مـن الدقـة المنهجيـة.

- معرفـة ومتابعـة الباحـث للمسـاهمات النظريـة والتطبيقيـة في مجـال تحليـل الخطـاب الإعلامـي في مـصر.

- عـدم قـدرة الباحـث عـلى الاطـلاع عـلى بحـوث ودراسـات تحليـل الخطـاب الإعلامـي في تونـس والجزائـر والمغـرب، وذلـك بالرغـم مـن محاولاتـه العديـدة للحصـول عـلى نمـاذج منهـا، ويمكـن القـول إن تلـك المحـاولات كشـفت عـن نـدرة البحـوث والدراسـات المكتوبـة باللغـة العربيـة عـن تحليـل الخطـاب الإعلامـي في دول المغـرب العـربي؛ لذلـك ربمـا تقـدم البحـوث والدراسـات المصريـة نموذجًـا للمسـاهمات العربيـة في مجـال تحليـل الخطـاب الإعلامـي.

وإذا كانـت العنـاصر السـابقة تمثـل حـدودًا أو قيـودًا معلنـة مفروضـة عـلى الدراسـة، فـإن هنـاك قيـودًا وحـدودًا ضمنيـة أو غـير معلنـة تقتـضي الأمانـة العلميـة الاعـتراف بهـا، وتتمثـل في ارتبـاط موضـوع الدراسـة بمجـال عمـل الباحـث واهتماماتـه، مـما قـد يخلـق نوعًـا مـن التعاطـف غـير المعلـن مـع الموضـوع، كـما أن محاولتـه للوقـوف عـلى مـدى دقـة ووضـوح اسـتخدام الدراسـات التـي تشـكل عينـة الدراسـة لمنهجيـة تحليـل الخطـاب، ربمـا توقعـه في إشـكالية تقييـم زمـلاء وأصدقـاء مـن باحثـي الإعـلام في مـصر تربطهـم والباحـث علاقـات مهنيـة وشـخصية، فضـلًا عـن أن إدراج الباحـث لرسـالته للماجسـتير ضمـن عينـة الدراسـة، ربمـا يوقعـه في إشـكالية تقييـم الـذات، بمـا لهـا وعليهـا مـن سـلبيات وإيجابيـات.

خامسًا: الإجراءات المنهجية:

تنـدرج الدراسـة ضمـن الدراسـات الوصفيـة التحليليـة؛ لذلـك اعتمـدت عـلى المنهـج المسـحي بشـقيه الوصفـي والتحليـلي، بالإضافـة إلى المنهـج المقـارن، أمـا عينـة الدراسـة فتكونـت مـن ٩

رسائل للماجستير والدكتوراه نوقشت في كلية الإعلام جامعة القاهرة، خلال الفترة من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٣، وقد اختيرت هذه الرسائل بطريقة عمدية بحيث يتوافر فيها شرطان، الأول: تقديم إطار نظري حول منهجية الخطاب واستخداماته، والثاني: استخدام منهجية الخطاب في تحليل موضوعات إعلامية متنوعة، ويمكن القول إن هذه العينة تمثل أكثر من نصف رسائل الماجستير والدكتوراه التي استخدمت تحليل الخطاب في كلية الإعلام جامعة القاهرة (خلال الفترة من ١٩٩٠ - ٢٠٠٣).

سادسًا: مدارس تحليل الخطاب الإعلامي:

سبقت الإشارة إلى تداخل واختلاط المفاهيم والأسس النظرية التي تستخدمها مدارس تحليل الخطاب، من هنا تأتي أهمية عرض وتحليل أبرز هذه المدارس للوقوف على أهم مساهماتها النظرية والتطبيقية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي:-

١- مدارس التحليل اللغوي للخطاب الإعلامي:

اهتم علماء اللغة منذ وقت طويل باللغة المستخدمة في وسائل الإعلام، حيث ركزوا على تركيب الجمل والقواعد النحوية والبلاغية المستخدمة، كما ناقشوا السمات البنائية والبلاغية الخاصة بلغة الإعلام أو ما عرف بالخطاب الإعلامي، وتظهر الأصول النظرية لتحليل الخطاب اللغوي في أعمال عالم اللغة الشهير (فردينالد دي سوسيير سيسور)، الذي أسس المدرسة البنيوية في دراسة اللغة، والتي تطورت بعد ذلك واهتمت بتحليل الأسلوب، والنص، وبالتطبيقات اللغوية في مجالات وسياقات مختلفة. (Bartton, ٢٠٠٢, pp ٥٧٥-٥٩٨) .

في هذا الإطار ظهر اتجاهان في دراسة الأسلوبية، الأول أقرب إلى البلاغة، والثاني يدرس علاقة التعبير بالفرد أو الجماعة، ويعتبر (شارل بالي) هو مؤسس علم الأسلوبية اعتمادًا على دراسات سوسيير في اللغة، وقد عرف علم الأسلوبية بأنه يبحث في لغة جميع الناس بما تعكسه- لا من أفكار خالصة- بل من عواطف ومشاعر، وأن موضوع الأسلوبية

هـو لغـة كل النـاس... فجميـع الظواهـر اللغويـة بمسـتوياتها المختلفـة يمكـن أن تكشـف عـن الخـواص الأسـلوبية في اللغـة، لكـن تلاميـذ (بـالي) ضيقـوا مـن مجـال بحـث الأسـلوبية وحـصروه في الدراسـات الأدبيـة، كـما أخضعـوا الجوانـب الجماليـة للتحليـل اللغـوي اعتـمادًا عـلى مناهـج نفسـية وبنيويـة، وقـد أوضـح (سوسـير) أن علـم الأسـلوب يمثـل المجـال اللغـوي كإبـداع، بينـما علـم اللغـة يمثـل المجـال اللغـوي كتطـور وتاريـخ، كذلـك ظهـرت اتجاهـات أحـدث اهتمـت بشـخصية المؤلـف وبعمليـة التفاعـل بـين المؤلـف والقـارئ. (فضـل, ١٩٨٥, ص ص ٢١ - ٣٧).

وتعرضـت الدراسـات اللغويـة التقليديـة والأسـلوبية إلى انتقـادات واسـعة بسـبب تركيزهـا عـلى اللغـة أو الأسـلوب بعيـدًا عـن السـياق المجتمعـي، وعلاقـات القـوة داخـل المجتمـع، مـن هنـا ظهـر مـا يعـرف بالاتجاهـات اللغويـة الاجتماعيـة، والتـي اهتمـت بدراسـة اللغـة الإعلاميـة مـن منظـور اجتماعـي ثقـافي، بـرز بوضـوح في أعـمال عـالم اللغويـات الاجتماعيـة (بـل Bell) والـذي اهتـم بدراسـة علاقـات الارتبـاط بـين الملامـح اللغويـة المتغـيرة وبـين الملامـح المتغـيرة للسـياق الاجتماعـي، وقـد خلـص عـلى سـبيل المثـال إلى أن درجـة تبسـيط نطـق نهايـات الكلـمات في لغـة المذيعـين، تختلـف فيـما بـين محطـات الإذاعـة في نيوزيلنـدا، وفقًـا للمهـن الرئيسـية لجماهـير المسـتمعين (Fairclough, ١٩٩٥, p ٢٧).

وتركـز دراسـة تحليـل الخطـاب ذات المنحـى اللغـوي الاجتماعـي عـلى النـص الكامـل سـواءً كان مكتوبًـا أو منطوقًـا، كـما تهتـم أيضًـا بشـكل النـص، وبنيتـه وتنظيمـه عـلى كل المسـتويات الفونولوجيـة- علـم الأصـوات الكلاميـة- والقواعـد النحويـة، لكـن اللغـة هنـا تشـمل القواعـد النحويـة وتركيـب الجملـة ومسـتويات تنظيـم النـص في مفاهيـم خاصـة، فضـلاً عـن بنيـة المناقشـات العامـة، والتـي تتجـلى مـن خـلال مـا هـو اجتماعـي وسـياسي، والقواعـد المؤسسـية لممارسـة الحـوار (Currtin, ١٩٩٦). إن السـؤال الرئيسـي الـذي يسـعى تحليـل الخطـاب إلى الإجابـة عليـه هـو: لمـاذا أخـذ هـذا النـص هـذا الطريـق ولم يأخـذ طريقًـا آخـر، وتـرى (كوتـس جينيفـر coates jennifer) أن إجابـة هـذا السـؤال تتطلـب تحليـل سـتة مسـتويات هـي:-

- أن الخطاب يُشكَّل من خلال الكلمة، كما أنه يُشِكّل الكلمة.
- اللغة تُشِكل الخطاب والخطاب يُشِكل اللغة.
- الممارسة تُشِكّل الخطاب، كما أن الخطاب يُشِكّل الممارسة.
- الخطاب يُشكّل من خلال الخطاب السابق- خطاب الماضي- والخطاب يُشِكّل إمكانيات خطاب المستقبل.
- الخطاب يُشكَّل من خلال وسيلته، كما أن الخطاب يُشكّل إمكانيات هذه الوسيلة.
- الخطاب يُشكّل بواسطة غرضه، كما أن الخطاب يُشكّل الأغراض الممكنة.

وتؤكد (كوتس جينيفر) أن الخطاب يرتبط باللغة والدراسات الأدبية ودراسات التعبير والاتصال وتخصصات أخرى متعددة. (Jennifer, ١٩٨٨, pp٢٣٧ - ٢٤٧)

ومهدت المساهمات السابقة إلى ظهور مدرسة اللغويات النقدية critical linguistics في السبعينات من القرن العشرين، بجامعة (إيست انجليا) على يد مجموعة من الباحثين، وتقوم هذه المدرسة على محاولة الدمج والتأليف بين الدراسات اللغوية النظامية والدراسات اللغوية الاجتماعية والمناهج النقدية والدراسات السميولوجية (الدلالية)، حيث تنطلق من تعدد وظائف النص، خاصة النص الإعلامي، فهناك الوظيفة الفكرية- تكوين الأفكار- ووظيفة تصوير العلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية، كما تنظر هذه المدرسة إلى النصوص كنتاج لاختيارات من بين نظم الخيارات المتاحة من ناحية النحو ومفردات الكلمات وما إلى ذلك، ويعتبر الخطاب هنا مجالاً للعمليات الأيديولوجية وللعمليات اللغوية.. مع وجود علاقة محددة ومقررة بين هذين النوعين من العمليات، وبشكل محدد يمكن أن تحمل الاختيارات اللغوية داخل النصوص معنىً أيديولوجيًا، كما تركز تلك المدرسة على عملية الإقرار أو التقديم representation أي طريقة عرض الأحداث، والوظيفة الفكرية أي المتعلقة بفكرة معينة (Howley, ١٩٩٩-Fairclough,١٩٩٥,p ٢٣) ، ولعل (ترو Trew)، وكلاً من (وهودج وكريس) Hodg and Kress من أبرز رموز تلك المدرسة، حيث قدم الأول

أبحاثًا عديدة حول مسيرة الخطاب في الصحف، ركز فيها على عملية تحويل المواد الإخبارية الواردة من وكالات الأنباء والمصادر الأخرى إلى تقارير إخبارية منشورة، والتغييرات التي تخضع لها القصة الإخبارية من تقرير لآخر، أو من التقارير إلى التحليل المعمق.. إلى المقالات الافتتاحية، عبر فترة زمنية معينة، فقد يحذف الفاعل بهدف ترك القوى الفاعلة أو الجهات المسئولة غير محددة، كما قد تعاد صياغة الجمل أويقع الاختيار على كلمات محددة بطريقة معينة تتضمن اختيارات وتحيزات أيديولوجية، بينما ركز (هودج وكريس) على سلاسل التناص في الممارسات الخطابية، وعلى أهمية اختيار المفردات اللغوية والضمائر والأفعال المساعدة. وميز هودج وكريس بين النص والخطاب من ناحية المفاهيم والإجراءات النظرية والمنهجية والأهداف التي يسعى كل منهما إلى تحقيقها، فالخطاب هو العملية الاجتماعية التي تكون النصوص متضمنة فيها، بينما النص هو جزء الخطاب، أي أن النصوص هي تجليات للخطاب، كما ميز (هودج وكريس) بين الخطاب والأشكال الأدبية، رغم أنهما يحملان معاني اجتماعية. (pennycook ,٢٠٠٢ ،Gunter and Roert, pp٦٧-٧٣).

وقد (بلور هودج وكريس) نموذجًا لتحليل الخطاب من خلال النظر إلى اللغة كأيديولوجية، تمامًا كما فعل (هوليداي) في السبعينات من القرن العشرين، حيث استفادا من نظرياته في تحليل الخطاب، واتفقا معه في أن قواعد اللغة هي اختيارات وليست قواعد، كما أن النحو هو نظرة للواقع وليس عملًا محايدًا كما يعتقد معظم الناس؛ لذلك ركزا على أن اللغة والتركيبات اللغوية يمكن أن تتحدد وتتمفصل مع الأيديولوجية، وتمنح الشرعية لمؤسسات السلطة في المجتمع، ويتكون نموذج (هودج وكريس) من شبكة من المفاهيم تشمل الفاعلين والأفعال أو العمليات والمفعول به، والعلاقات بينها، وعلى سبيل المثال عندما نقرأ جملة (البوليس أطلق النار على المشاغبين)، فإن الفاعل واضح، بينما المشاغبون هم المتأثرون بالفعل، لكن عندما نقرأ (ويجري رجل الشرطة)، فإننا لا نعرف ما هي طبيعة العلاقة، وما هو سياق وهدف قيام رجل الشرطة بذلك، وهل هو هنا في دور الفاعل أم المفعول به؟ (Delinger,١٩٩٥ - Tankard,١٩٩٤)

ورغـم أهميـة الاسـتنتاجات التـي توصـل إليهـا الباحثـون اعتـمادًا عـلى الأطـر النظريـة والنـماذج التحليليـة لمدرسـة اللغويـات النقديـة، إلا أنهـا تعرضـت لانتقـادات عديـدة، نظـرًا لإهمالهـا بحـث قواعـد التركيـب اللغـوي والنحـوي، وكذلـك لعـدم اهتمامهـا بطبيعـة فهـم أو تأويـل الجمهـور للنصـوص التـي تشـكل الخطـاب الإعلامـي، أي أن التحليـل ينحـصر في إطـار العمليـات التـي يقـوم بهـا المحللـون.

٢- (ميشيل فوكو) وتحليل الخطاب:-

منحـت أعـمال (فوكـو) الخطـاب كمفهـوم ومنهـج للتحليـل حيـاة جديـدة، وفتحـت آفاقًـا رحبـة أمـام الباحثـين في العلـوم الاجتماعيـة، حيـث أسـس مفهومًـا للخطـاب لا يقـوم عـلى أصـول ألسـنية أو منطقيـة، بـل يتشـكل أساسًـا مـن وحـدات سـماها بالمنطوقـات، وهـذه المنطوقـات تشـكل منظومـات منطوقيـة تسـمى بالتشـكيلات الخطابيـة، هـذه التشـكيلات تكـون دائمًـا في حقـل خطـابي معـين، وتحكمهـا قوانـين التكويـن والتحويـل، وعـلى هـذا الأسـاس يخلـص (الـزواوي بغـورة) إلى أن الخطـاب يختلـف عـن الجملـة والقضيـة، كـما يختلـف التحليـل الخطـابي عـن تحليـل اللغـة والتحليـل المنطقـي، ذلـك أن تحليـل الخطـاب يعتمـد عـلى الوصـف الأركيولوجـي والتحليـل الجينولوجـي- ويسـعى الأول إلى سـن قوانـين نـدرة المنطوقـات وتراكمهـا، أمـا الثـاني فهـو يعنـي البحـث عـن البدايـات، لكـن بطريقـة غـير تقليديـة تختلـف عـن الطريقـة التقليديـة التاريخيـة، حيـث تركـز عـلى تبـين الانقطاعـات والفواصـل- مـن أجـل الكشـف عـن نـدرة وخارجيـة وتراكـم وقبليـة الخطابـات، أو بتعبـير دقيـق يقـوم عـلى التحليـل التاريخـي للخطابـات، ولا تعـود مرجعيـة الخطـاب إلى الـذات أو إلى المؤسسـة أو إلى الصـدق المنطقـي أو إلى قواعـد البنـاء النحـوي، وإنمـا إلى الممارسـة (بغـورة, ٢٠٠٠, ص ص ١٢٤ - ١٤٤).

وركـز (فوكـو) عـلى نقـد وهـدم التفكـير الغـربي الـذي كان دائمًـا يركـز عـلى معنـى أن نكـون بـشرًا بـدلاً مـن كيـف نكـون بـشرًا، وفي هـذا الإطـار أكـد عـلى وفـاة الفاعـل الموحـد أو الوحيـد وظهـور كثـير مـن الفاعلـين، فالبـشر ليـس هـم الفاعـل الوحيـد بـل هـم منتجـات الممارسـات الخطابيـة،

كذلك ليست الموضوعات حقائق اجتماعية، بل هي كيف يأتي الفاعلون بالأشياء إلى الوجود من خلال اللغة؛ لذلك يمكن القول بوجود علاقة بين السلطة أو القوة power واللغة، وبالتالي يجب اعتبار الفاعلين تكوينات اجتماعية تم إنتاجها من خلال الخطابات الاجتماعية، التي تضع هذه التكوينات الاجتماعية في حقل علاقات القوة. (Langer, ١٩٩٨)

ولعل تهميش (فوكو) لدور البشر كفاعلين اجتماعيين هو ما عرضه لكثير من النقد، بالإضافة إلى تعدد وغموض بعض المفاهيم الأساسية التي اعتمد عليها في تحليله للفكر الغربي، وفي مقدمتها مفهوم الخطاب ذاته، حيث أشار إلى الخطابات كتصريحات، وعرف تحليل الخطاب على أنه تحليل للأداء الشفوي، كما اعتبر الخطابات عوامل نشطة لتكوين وبناء المجتمع مع تبعيتها في الوقت نفسه لمجتمع معين أو مؤسسة معينة، وفي موضع آخر اعتبر الخطابات تعبيرًا عن علاقات القوة، كما تشير أيضًا إلى كل ما يمكن التفكير فيه أو كتابته أو قوله بشأن موضوع أوشيء معين، ويهدف تحليل الخطاب لدى (فوكو) إلى تنوير البنية غير الواعية التي تحد من طريقة تفكيرنا، وفي كتابه الشهير (أريكولوجيا المعرفة) حاول فوكو إنشاء طريقة غير تأويلية وغير جدلية وغير متعلقة بنظرية المعرفة، لوصف وتصنيف التكوينات الخطابية التاريخية (Langer, ١٩٩٨).

ويخلص (الزواوي بغورة) إلى أن الخطاب يتنافى وما تعودنا على تسميته في إطار تاريخ الفكر بالنص، والأثر والقضية والجملة والمجال العلمي أو الفرع العلمي، إن المفهوم الخاص بالخطاب لا يمكن اشتقاقه مباشرة من الألسنية أوالتحليل الخطابي أوفلسفة التحليل، ولكن في نفس الوقت لا يمكن فصله عن مجمل الحوارات والمناقشات والأسئلة المطروحة والمناقشات والأسئلة في هذا الميدان، والتي كانت موضع تفكير فوكو، وإن بطريقة مختلفة وبمفاهيم مغايرة (بغورة, ٢٠٠٠، ص ١١١).

ويحتل مفهوم المعرفة والسلطة (القوة) مكانة مركزية عند (فوكو)، حيث ناقش كافة أشكال السلطة، وقد حدد مفهوم المعرفة- السلطة بالجمع والربط بينهما، لا بالفصل

والتمييز، كما هو الحال عند الفلاسفة والباحثين الماركسيين أو المنتمين لمدرسة فرانكفورت (بغورة، ٢٠٠٠، ص ص ٢٣١- ٢٣- ٢٤٣)، وعارض (فوكو) فكرة أن السلطة مساوية للعنف والإخضاع والهيمنة كقاعدة أساسية، بل يعطي للسلطة دورًا إيجابيًا، دور الإنتاج دون إهمال للعنف كممارسة أو كحل تلجأ إليه السلطة في بعض الأحيان، ثم يعرف السلطة بأنها مجموعة من علاقات القوى ضمن استراتيجيات محددة (بغورة، ٢٠٠٠، ص٢٣٣)، وفي الخطاب يحدث أن تتمفصل السلطة والمعرفة، يقول (فوكو): «يجب ألا نتخيل عالمًا للخطاب مقسمًا بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض، أو بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة (وذلك) لأن الخطابات عناصر أو كتل تكتيكية في حقل علاقات القوى، قد تكون هناك أشكال متباينة منها وحتى متناقضة داخل الاستراتيجية الواحدة نفسها، وبالعكس يمكن أن تتنقل هذه الخطابات بين استراتيجيات متناقضة دون أن يتبدل شكلها (بغورة, ٢٠٠٠, ص ٢٧٨)، ويخلص الزواوي إلى أن الخطاب ليس فقط موضوعًا من الموضوعات كالمعرفة والسلطة والذات، بل الحقل أو الميدان الذي منه تتمفصل المعارف والسلطات والذوات؛ لذلك لا يمكن أن نقول أن هناك خطابات مقبولة وأخرى مرفوضة. (بغورة، ٢٠٠٠, ص ٢٧٨)

وهناك من يرى أن (فوكو) ما بعد حداثي، بينما يعتبره آخرون ما بعد بنيوي؛ لأنه يؤكد على الوجود الإنساني اعتمادًا على أشكال المعرفة والخطابات التي تعمل من خلال اللغة، إن اللغة والخطابات تحدد الواقع بالنسبة لنا، كما أن الخطاب يشكل هويتنا وسلوكنا.. فالخطابات تحدد الحياة الاجتماعية من حولنا.. وتحدد من نحن وطريق حياتنا.. إن الخطاب يشكل هويتنا وسلوكنا، كما ينعكس في الصراع حول السلطة(٤٢٢- ٤٢١pp.٢٣٤-p, ١٩٩٦ ,Tolson).

ولاشك أن أعمال (فوكو) قد أحدثت تأثيرات معرفية ومنهجية واسعة، كما أثارت

جدلاً واسع النطاق وخضعت لقراءات متعددة، وأدت بعض تلك القراءات إلى تطوير لبعض مفاهيم فوكو نفسه، حيث أعاد بعض الباحثين تعريفها وتوظيفها في مجالات متنوعة، من بينها بحوث ودراسات تحليل الخطاب الإعلامي، فما من دراسة في تحليل الخطاب الإعلامي، أو في التحليل الكيفي لمضامين وسائل الإعلام إلا وتستفيد من أعمال فوكو، رغم أنه لم يكتب عن وسائل الإعلام أو الثقافة الشعبية بشكل مباشر، وتبدو تأثيرات (فوكو) واضحة في أعمال تحليل الخطاب الإعلامي التي قدمها علماء اللغويات خاصة اللغويات الاجتماعية واللغويات النقدية، كما ستظهر بوضوح في أعمال (فيركلاو)، و(فان ديك) وآخرين.

٣- التحليل السميولوجي للخطاب الإعلامي:-

السيميولوجيا Semiology والسيميوطيقا مصطلحان منقولان عن الإنجليزية، وهما بدورهما منقولان عن الأصل اليوناني Semeion بمعنى الإشارة أو العلامة، ولذلك فقد ترجم المصطلح إلى العربية أحيانًا بعلم الإشارة وأحيانًا أخرى بعلم العلامات، وإن فضل معظم الباحثين العرب ترجمتهما كما هما في الأصل الإنجليزي أوالفرنسي (السيميولوجيا والسيميوطيقا)، ويترجمهما البعض بالسيمياء، والسميائية، والرمزية (النفادي, ٢٠٠٢)، وإذا كان موضوع العلامة هو أساس علم السميولوجيا فإن وسائل الإعلام تنقل، وأحيانًا تخلق، فيضًا من العلامات والرموز، من هنا ظهر الاهتمام بدراسات سيميولوجيا الخطاب الإعلامي، وقد بدأ هذا الاهتمام بدراسة صور الإعلانات أو الصور الإشهارية في الأربعينات من القرن العشرين، حيث أثير نقاش واسع حول العلاقة بين السميولوجيا واللسانيات، بمعنى هل سيميولوجيا الصورة مجرد نقل حرفي مباشر لمفاهيم اللسانيات مطبق على النماذج البصرية؟، وفي إطار محاولات الإجابة على هذا السؤال تطورت مناهج تحليل الصورة الإشهارية (الإعلانية)، استنادًا إلى لسانيات (دي سوسير)، وانثربولوجيا (ك. ليفي ستراوس) و(رياضيان شانون)، وأبحاث (رولان بارت) السميولوجية والأعمال

الخاصة بالتواصل التي بدأت في سنة ١٩٦٠ في المدرسة العليا بباريس، ويختزل (ك. كوست) أنواع المناهج التي انبثقت عن هذه الأبحاث في مجال تحليل الصورة في منهجين اثنين هما المقاربة اللسانية، والمقاربة البلاغية التي تزعمها رولان بارت، ثم ظهر بعد ذلك المنهج البنيوي الذي تزعمه (لوي بورشر (L.porcher)، ومنهج السميائيات السردية الذي تزعمه (فلوش J.M.Floch) (غرافي, ٢٠٠٢، ص ص ٢٢١-٢٤٩).

وتفاعلت هذه المناهج مع بعضها تأثيرًا وتأثرًا، وأنتجت الكثير من البحوث حول خطاب الصورة الإشهارية (الإعلانية) والصورة الفوتوغرافية، والصورة السينمائية، ومع انتشار الصور التليفزيونية اتسع مجال عمل تلك النوعية من دراسات تحليل الصور، وعلاقاتها بالنص المصاحب من جهة، وعلاقتها بالواقع من جهة أخرى. في هذا الإطار أفردت مجلة الاتصال الفرنسية عام ١٩٦٤عددًا خاصًا ساهم فيه عدد من الباحثين الذين وضعوا الأسس الأولية لمشروع تحليل الخطاب أهمهم بريموند (وتودوروف، ومينز، ورولان بارت)(القرني، ١٩٩٧، ص٣٧-٥٢)، لكن تأمل أسماء هؤلاء الباحثين يرجح القول بأن محاولاتهم انصبت على وضع أسس تحليل الخطاب السميولوجي في وسائل الإعلام، أو بعبارة أخرى تحليل الخطاب الإعلامي من منظور سميولوجي فقط.

بيد أن هناك مساهمات مهدت الطريق لظهور مساهمات لعدد من باحثي الإعلام والاجتماع في السبعينات والثمانينات، ربما كان من أبرزهم (هارتلي Hartley) الذي ركز على تحليل النشرات الإخبارية التليفزيونية من خلال مجموعة من الأكواد والأعراف السميولوجية التي تشكل أساس الملامح اللغوية والمرئية للفقرات الإخبارية، ويشمل تحليل الأكواد المرئية Virsual cods الطرق المختلفة لتقديم الأخبار مثل ظهور رأس مذيع الأخبار، أو المراسل.. واستخدام الصور الفوتوغرافية الثابتة والتقارير المصورة.. وإطار الصور وتحركات الكاميرا، ويفترض هذا التحليل أن الاختيارات المتاحة في نطاق الأكواد المرئية، بما في ذلك الخيارات التقنية المتعلقة بعمل الكاميرا، تحمل معاني اجتماعية،

وكذلـك اختيـار الموضوعـات وتركيـب الفقـرات والجمـل، ودور المذيعـين في توجيـه الحديـث، مـن هنـا يركـز التحليـل عـلى ربـط خصائـص النصـوص بالأيديولوجيـات الصريحـة والضمنيـة ,Fairclough ١٩٩٥ (p ٢٤).

٤- تحليل المحادثة:

في إطـار نقـد وتجديـد علـم الاجتـماع التقليـدي اقـترح عـالم الاجتـماع الأمريـكي (هارولـد جارفينـكل Harold Garfinheld) في منتصـف السـتينات مـن القـرن المـاضي الاهتـمام بتحليـل الأسـاليب التـي يسـتخدمها النـاس العاديـون في حياتهـم اليوميـة لتفسـير أنشـطتهم وجعلهـا مفهومـة سـواء لأنفسـهم أو للآخريـن، وفي هـذا السـياق صـك (جارفينـكل) مصطلـح الاثنوميثودولوجيـا Ethnomethodology والـذي يعنـي منهجيـة الجماعـة أو بالأحـرى منهجيـة دراسـة الإدراك العـام للجماعـة، وقـد نهضـت الاثنوميثودولوجيـا عـلى خلفيـة فلسـفية متنوعـة منهـا الفينومولوجيـا، وفلسـفة فيتجنشـين، كـما تمثـل مـن جانـب آخـر كثـير مـن اتجاهـات مـا بعـد البنيويـة ومـا بعـد الحداثـة، واهتمـت باللغـة والمعنـى وبالطريقـة التـي يسـهم بهـا حديثنـا في خلـق واقعنـا الاجتماعـي، وقـد ظلـت الاثنوميثودولوجيـا اتجاهًـا مقبـولاً للبحـث لـدى قلـة مـن الباحثـين، إلا أنهـا قـد أصبحـت جـزءًا مـن قلـب نظريـة علـم الاجتـماع، خاصـة بفضـل أعـمال انتـوني جيدنـز (مارشـال، ٢٠٠٠، ص ص٨٧-٩١).

وفي ضـوء مسـاهمات الاثنوميثودولوجيـا أسـس (هـارفي سـاكس) قواعـد لتحليـل المحادثـة أو مـا يعـرف أحيانًـا بخطـاب الحيـاة اليوميـة سـواء كانـت أحاديـث هـذا الخطـاب تجـرى بشـكل رسـمي أو غـير رسـمي، وبغـض النظـر عـن طبيعـة الاختـلاف أو الاتفـاق بـين أطـراف المحادثـة اليوميـة، وقـد اسـتخدم (هيريتـاج وجريتباتـش وهاتسـبي) هـذه القواعـد لتحليـل الأحاديـث والحـوارات في وسـائل الإعـلام المختلفـة، وركـز (هيريتـاج) عـلى الصيـغ التـي يسـتخدمها مـن يقومـون بإجـراء الأحاديـث ضمـن نـشرات الأخبـار لتلخيـص مـا قالـه المتحدثـون، حيـث يؤكـدون عـلى نواحـي معينـة ويهملـون جوانـب أخـرى، ويـرى (هيريتـاج Heritage) أن هـذه

الصيغ عبارة عن أداة تقنية أو فنية يستخدمها الذين يجرون الأحاديث، لإدارة تلك الأحاديث في نطاق القيود التي يضطرون للعمل في ظلها، ولكن توجد اختلافات في معايير وقواعد إجراء الأحاديث نتيجة التطور الزمني، وإمكانيات وخصائص كل وسيلة إعلامية، والأسلوب الخاص للشخص الذي يجري الحوار، ويخلص (فيركلاو) إلى أن تحليل المحادثة قد أضاف موردًا جديدًا إلى اللغويات الوصفية، من خلال دراسة عمليات توجيه الحوار والتحكم في الموضوع وصياغة الأفكار، لكنه تجاهل الكثير من الجوانب التي يهتم بها الوصف اللغوي، حيث يركز على التفاعل أثناء الحوار، كذلك لم يهتم تحليل المحادثة بربط خصائص كل وسيلة إعلامية بعلاقات القوة والأيديولوجيات والقيم الثقافية داخل المجتمع (Fairclough, ١٩٩٥, p ٢٢). ورغم هذا النقد إلا أن تحليل المحادثة قد حقق انتشارًا، بعد أن استخدم على نطاق واسع في دراسات تحليل الحوارات عبر الإنترنت.

٥- تحليل الخطاب في إطار مدرسة التحليل الثقافي:-

تأسست مدرسة التحليل الثقافي العام cultural generic analysis في رحاب مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام في بريطانيا عام ١٩٦٤، إلا أن أصولها ربما ترجع إلى نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات، ومن أبرز أعلامها (ريشارد هوجارت Richard hoggert، وتومبسون P. Thompson، وستيورت هال Stuart Hall)، لكن ربما كانت أعمال (ريموند ويليامز Raymond Williams) الأكثر أهمية في تأسيس هذه المدرسة، التي ربطت بين الثقافة والإعلام في إطار اهتمامها بتحليل معنى الثقافة، وتحول الثقافة إلى سلع تنتج وتوزع على نطاق واسع في ظل المجتمع الرأسمالي، من هنا ظهر مفهوم الثقافة الجماهيرية، المادية، وكيف أن وسائل الاتصال الجماهيري تلعب دورًا بالغ الأهمية في إنتاج وترويج الثقافة الجماهيرية وعلاقة ذلك بأسلوب الحياة والأيديولوجية والوعي في المجتمع. (Munns and Rajan,١٩٩٥)

وفي إطار اهتمامات مدرسة التحليل الثقافي بالإعلام ظهرت كثير من البحوث التي تناولت بالتحليل الخطاب الإعلامي من زاوية تأثيره في خلق أو تغييب الوعي لدى الجمهور، وكذلك دور الخطاب الإعلامي، في عملية التفاعل الاجتماعي، وقد طور (ستيورت هول) مفهوم الضمنية والتصريح والتغيير في اللغة، وأكد أن المعنى هو نتاج العملية الجدلية بين النص والقارئ، في سياق اجتماعي وتاريخي معين، وخلص إلى أن وسائل الإعلام لا تعكس الواقع، وإنما تقوم بإنتاجه عبر المعاني والاختيارات الأيديولوجية التي تنتجها أو تروج لها (Hall, ١٩٧٧,pp ١٢٣ -١٢٩).

واستفادت بحوث تحليل الخطاب في هذه المدرسة من أعمال (جوفمان)، ومن النظرة متعددة الوظائف للنص التي طورها (هاليدي)، كما اقتحمت مجالات جديدة على يد (مونتجمري) تناولت الحوارات المفتوحة مع الجمهور في برامج الإذاعة والتليفزيون وعملية السرد، والتناص بين النصوص الأدبية ونصوص البرامج والخطابات الإعلامية المختلفة، كما قام (تولسن) بدراسة تطور عمليات إجراء الحديث، وخلص إلى أن هذا التطور أدى إلى تجزئة الجماهير المستمعة وتنحية الجمهور العام (Fairclough, ١٩٩٥ , p ٣٢)، ويمكن القول أن باحثي التحليل الثقافي العام استخدموا مناهج وطرق في تحليل الخطاب قريبة من تحليل المحادثة، إلا أنها تختلف معها في النظرة الشاملة للمحادثة في وسائل الإعلام في علاقتها بالمجتمع، حيث تربط بين تحليل المحادثة وبين الأيديولوجية وعمليات السيطرة في المجتمع.

٦-منهج تحليل الخطاب الاجتماعي الإدراكي:

ارتبط هذا المنهج بأعمال الباحث الهولندي (فان ديك) في تحليل الخطاب الإعلامي والخطاب السياسي والأيديولوجية، والذي ربط فيها بين دراسة النص من النواحي النحوية والتركيبات اللغوية والسردية والإدراكية، بالإضافة إلى مناهج تحليل الخطاب، وربما يرجع الطابع التأليفي لمنهج (فان ديك) إلى جذوره الأولى، حيث دعا في السبعينات من القرن

الماضي- وقبل تحوله إلى مجال تحليل الخطاب- إلى ضرورة اهتمام نظريات تحليل النص وتحليل الخطاب الإعلامي بالنصوص ذات الصلة وسياق النص، كما دعا أيضًا إلى الجمع بين المؤشرات الكمية والكيفية في تحليل الخطاب, من هنا توسع في تحليل عينات كبيرة نسبيًا من الأخبار والمواد الإعلامية (Langer,١٩٩٨).

ويمكن القول إن (فان ديك) قد انتقل إلى مجال تحليل الخطاب في مطلع الثمانينات من القرن الماضي، حيث اهتم بالتكوينات الخطابية لتحليل الخطابات الإعلامية، مع الأخذ في الاعتبار كل المستويات والأبعاد الكلية والجزئية داخل النص، كالتنظيم العام للنص، والفكرة الرئيسة، والبنية التخطيطية للنص، والبنية الجزئية والتي تشمل الكلمات وتركيب الجمل والآليات البلاغية والدلالات اللفظية والقيم الإخبارية... إلخ. وركز (فان ديك) على عملية إنتاج واستقبال النصوص وفق نموذج إدراكي أطلق عليه البنية أو البنيات الفوقية superstructures التي تسكن النصوص الإعلامية, في الوقت ذاته فإن النصوص الإعلامية تعتبر مركز تجمع ووسيلة إظهار لهذه البنيات الفوقية، من هنا ركز (فان ديك) على دراسة الخطاب السياسي والأيديولوجية المعلنة والمضمرة التي يحملها الخطاب الإعلامي بكافة أشكاله(١٩٥- ١٦٣ Fairclough,٢٠٠٠, pp)

ويرى (فيركلاو) أن (فان ديك) قام بتطوير نموذج لتحليل الأخبار المنشورة في الصحف بصفة خاصة باعتباره خطابًا مكونًا من ثلاثة أبعاد هي (النص، وممارسة الخطاب، والممارسة الاجتماعية الثقافية)، ويعتبر التركيز على ممارسة الخطاب وسيلة لربط التحليل النصي بالتحليل الاجتماعي- الثقافي، ويتابع أن أبحاث (فان ديك) مثل الدراسات السميولوجية الاجتماعية أنجزت انتقالاً مهمًا من تحليل النص (وهو مجال اهتمام اللغويات النقدية) إلى تحليل الخطاب Fairclough,١٩٩٥, p (٢٩).

وتلعب الأيديولوجية دورًا جوهريًا في المنهجية التحليلية لـ(فان ديك) فالأيديولوجيات من وجهة نظره هي أطر تفسيرية تقوم بتنظيم المواقف.. وتعتبر أيضًا أساسًا للإدراك،

واهتمت أبحاث (فان ديك) بقضايا التمييز الإثني في الصحافة سواء في إطار الثقافة الواحدة أو بين ثقافات متعددة، كما ركز على قضايا الإدراك متأثرًا بمفهوم فيسك Fiske عن الإدراك، حيث أشار إلى أن الصحفيين ومستخدمي وسائل الإعلام يملكون نماذج ذهنية بشأن العالم، وبالتالي يكون النص في الواقع مثل جبل ثلجي من المعلومات، وقمة هذا الجبل هي فقط التي يعبر عنها فعليًا بالكلمات والصور، أما الباقي فيفترض أنه مورد بواسطة الكلمات والصور المكتوبة والنماذج المعرفية لمستخدمي وسائل الإعلام. (Delinger,١٩٩٥)

والشاهد أن أعمال (فان ديك) ركزت على الخطاب الإعلامي المنشور في الصحف أكثر من بقية وسائل الإعلام، خاصة التليفزيون، كما أنه يركز على التحليل اللغوي ويهمل عملية التناص، أي كيفية بناء النصوص من خلال تكوينات الخطابات والأنواع الأدبية، وكذلك يهتم بممارسات صنع الأخبار واستقبالها باعتبارها عملية مستقرة تسهم في إعادة إنتاج علاقات الهيمنة وأيديولوجيات التمييز، ولا يهتم بتنوع وعدم تجانس تلك الممارسات (Fairclough, ١٩٩٥ , p ٣٠)، إلا أن إسهامه المهم تمثل في تحديده لمفهوم وأبعاد التحليل النقدي للخطاب وعلاقاته بالدراسات اللغوية وبالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، وإقراره بتعدد مجالاته وتنوعها، ومن ثم ضرورة استخدام مناهج وأطر نظرية تكاملية. (Van Dijk,١٩٩٨)

٧- المدرسة الألمانية في تحليل الخطاب الإعلامي:

ظهرت في إطار الجامعات الألمانية مدرستان نقديتان في تحليل الخطاب الإعلامي، ربما كان أهم ما يميزهما عن المدارس الفرنسية والبريطانية اهتمامهما باللغة والبلاغة وبالاستراتيجيات الجدلية داخل الخطاب، وتعرف المدرسة الأولى بمدرسة ديوسبرج The Duisberg School وارتبطت بسيجموند ييجر Siegfried Yager الذي تأثر بأعمال (ميشيل فوكو) وبمدرسة فرانكفورت وباللغويات النقدية، وقد أسس منهجه في التسعينات

مـن القـرن المـاضي عـلى نقـد لـكل البحـث اللغـوي التقليـدي والبحـث الاجتماعـي، فاللغويـون يركـزون بحثهـم بصفـة رئيسـية عـلى النواحـي الشـكلية للغـة دون الانتبـاه إلى مضمـون النصـوص والممارسـة الخطابيـة والمحيـط الاجتماعـي والثقـافي للنصـوص، كـما انتقـد البحـوث الاجتماعيـة الكيفيـة لافتقارهـا إلى نظريـة أو طريقـة بحـث محـددة لتأويـل النصـوص، ثـم اعتمـد (ييجـر) عـلى مقـولات المدرسـة الثقافيـة التاريخيـة التـي أسسـها عـالم النفـس الاجتماعـي (فيجوتسـكي) في تطويـر نظريـة تعيـد تعريـف العلاقـة بـين الفعـل acting والتفكـير والاتصـال، والعلاقـة بـين الفـرد والمجتمـع، وأكـد (ييجـر) أن النصـوص ليسـت شـيئًا فرديًـا فقـط، وإنمـا تمثـل دائمًـا شـيئًا اجتماعيًـا، فالنصـوص أجـزاء مـن خطابـات فـوق فرديـة، وكـما ذهـب (ميشـيل فوكـو) يـرى (ييجـر) أن أجـزاء الخطـاب سـواء كانـت نصوصًـا أو أجـزاء مـن نصـوص يمكـن أن تشـكل سلسـلة خطابيـة يمكـن وضعهـا عـلى مسـتوى خطـابي واحـد أو عـدة مسـتويات خطابيـة- عـلى سـبيل المثـال في السياسـة، والتعليـم، والإعـلام- وبالتـالي تمثـل السلاسـل الخطابيـة تدفقًـا للأجـزاء الخطابيـة عـن نفـس الموضـوع.

ويخلـص (ييجـر) إلى أن تحليـل النـص هـو أول تحليـل للخطـاب، إذا اعتبرنـا أن النصـوص هـي أجـزاء مـن خطـاب تمتـد جـذوره اجتماعيًـا وتاريخيًـا، كـما يؤكـد أن تحليـل الخطـاب يهـدف إلى فـك الاشـتباك بـين نصـوص وخطابـات معينـة، لأن النصـوص والخطابـات المختلفـة تتداخـل وتخلـق توتـرًا خطابيًـا، ويقـترح (ييجـر) التركيـز عـلى تحليـل العقـد الخطابيـة أو النصـوص المركزيـة في سلسـلة خطابيـة، لأن هـذه النصـوص سـابقة زمنيًـا في السلسـلة الخطابيـة أو تتنـاص مـع خطابـات أخـرى، ويؤكـد (ييجـر) أن إجـراءات تحليـل الخطـاب يجـب أن تظـل كيفيـة، كـما ينفـي وجـود وصفـة أو إجـراءات روتينيـة يمكـن تطبيقهـا عالميًـا عنـد تحليـل الخطـاب، لكـن يجـب أن يصمـم تحليـل الخطـاب لـكي يكـون متفقًـا مـع اهتمامـات البحـث وأهدافـه ومضمـون الخطـاب محـل التحليـل، في ضـوء ذلـك يقـترح (ييجـر) أن يشـمل تحليـل الخطـاب تحليـل البنيـة الكليـة للخطـاب، وتحليـل السـياق اللفظـي، وغـير اللفظـي، والتحليـل اللغـوي عـلى المسـتوى الجـزئي للنـص، وأخـيرًا التحليـل النهـائي للرسـالة والجمهـور المسـتهدف

والإطـار الأيديولوجـي والاجتماعـي للخطـاب والملامـح اللغويـة لفهـم الخطـاب والآثـار المقصـودة (Langer,١٩٩٨).

أمـا المدرسـة الألمانيـة الثانيـة فتعـرف بمدرسـة فيينـا، وترتبـط بأعـمال أسـتاذة اللغويـات التطبيقيـة (روث فـوداك Ruth Wodak) التـي تعتـبر أشـهر مـن يمـارس تحليـل الخطـاب عـلى المسـتوى العالمـي في الـدول الناطقـة بالألمانيـة، وتقيـم (فـوداك) في فيينـا وتكتـب أبحاثهـا بالألمانيـة والإنجليزيـة والفرنسـية، ويعتمـد منهجهـا لتحليـل الخطـاب عـلى الأبحـاث اللغويـة الاجتماعيـة، وأعـمال مدرسـة فرانكفـورت وميشـيل فوكـو، بالإضافـة إلى الدراسـات الثقافيـة لـ (سـتيوارت هـول)، ونظريـة رأس المـال الرمـزي لعـالم الاجتـماع الفرنـسي بيـير بورديـو، كـما اسـتفادت فـوداك مـن أعـمال عـالم اللغـة الألمـاني (يوتـس مـاس Utz maas)- أثـرت أعمالـه في مدرسـة ديوسـبرج- الـذي يعـرف الخطابـات بأنهـا أشـكال لغويـة ترتبـط بالممارسـة الاجتماعيـة ويجـب بحثهـا مـن نواحـي التاريـخ وعلـم الاجتـماع، مـع الاهتـمام بالبعـد البلاغـي والتأويـلي، أمـا فـوداك فتميـز بـين ثلاثـة مسـتويات مـن التحليـل هـي: المضمـون والاسـتراتيجيات الجدليـة والملامـح اللغويـة، كـما تؤكـد عـلى أهميـة البحـث في تاريـخ الخطابـات مـن خـلال منهـج متعـدد المسـتويات، ولذلـك تجمـع أعـمال مدرسـة فيينـا بـين التحليـل التاريخـي والكمـي عـلى مسـتوى الخطـاب والممارسـة الاجتماعيـة، وبـين التحليـل الكيفـي عـلى المسـتوى الجـزئي النـصي. (Langer , ١٩٩٨ - Delinger,١٩٩٥)

ولعـل أهـم مـا يميـز أعـمال (روث فـوداك) ومدرسـة فيينـا هـو الاهتـمام بالبعـد التاريخـي للخطـاب وبالاسـتراتيجيات الجدليـة والملامـح اللغويـة، لكـن الطابـع العـام لتلـك المدرسـة يقـترب مـن حقـل اللغويـات أكـثر مـن حقـل تحليـل الخطـاب الإعلامـي، حيـث تمنـح (فـوداك) الأولويـة للتحليـل اللغـوي مـع الاعـتراف بأهميـة النواحـي التاريخيـة والاجتماعيـة، ذلـك أن التأكيـد عـلى كل مـن بنيـة نصـوص الإعـلام وسـياقها الاجتماعـي يمكـن أن يسـاعد الباحثـين النقديـين عـلى تغيـير طبيعـة الرسـائل الأيديولوجية أو الكشـف عــن الاعتبـارات التـي تؤثـر في بنيـة هــذه الرسـائل (Wodak, ١٩٩٩,pp, ١٨٥-١٩٣)- .

٨- التحليل النقدي للخطاب لـــ(النورمان فيركلاو):

مـن حقـل الدراسـات اللغويـة انتقـل عالم اللغـة الإنجليـزي (نورمـان فـيركلاو Norman Fairclough) إلى تطويـر نمـوذج للتحليـل النقـدي لكافـة أشـكال الخطـاب، بمـا فيهـا الخطـاب الإعلامـي، ثـم قـام بتوسـيع مجـال عمـل نموذجـه التحليـلي بحيـث يشـمل كافـة مجـالات البحـوث الاجتماعيـة، فالتحليـل النقـدي للخطـاب هـو تحليـل للعلاقـات الجدليـة بـين الخطـاب- والـذي لا يشـمل اللغـة فقـط بـل والسـميولوجيا والصـور المرئيـة_ وكل عنـاصر الممارسـة الاجتماعيـة، ومـع ذلـك يؤكـد أن التحليـل النقدي للخطـاب يهـدف إلى توضيـح كيـف أن التغيـيرات في اسـتخدام اللغـة تعكـس التغيـيرات الاجتماعيـة- الاقتصاديـة والتـي ترتبـط بعلاقـات القـوة والهيمنـة في المجتمـع؛ لذلـك يدعـو فـيركلاو علـماء الاجتـماع إلى تجديـد أفكارهـم ومناهجهـم وأدواتهـم البحثيـة لدراسـة الخطـاب. (Fairclough N, ٢٠٠٠)

وبغـض النظـر عـن نتائـج تلـك الدعـوة، تكتفـي الدراسـة الحاليـة بعـرض ومناقشـة أعـمال (فـيركلاو) في علاقتهـا بالخطـاب الإعلامـي، حيـث يمكـن القـول بـأن (فـيركلاو) تأثـر بشـكل واضـح باللغويـات النقديـة وبأعـمال (ميشـيل فوكـو) وأعـمال (غرامـشي) عـن الهيمنـة الإيديولوجيـة، إضافـة إلى تأثـره الواضـح بعـالم الاجتـماع الفرنـسي (بيـير بورديـو)، ويتفـق (فـيركلاو) مـع علـماء اللغـة جزئيًـا في تعريفـه للخطـاب، ثـم يؤكـد اختلافـه معهـم، فالخطـاب هـو اللغـة المسـتخدمة لتمثيـل ممارسـة اجتماعيـة مـن وجهـة نظـر معينـة، والخطابـات تُشـكِّل وتعيـد إنتـاج الهويـات الاجتماعيـة والعلاقـات الاجتماعيـة، وتمثـل نظـم المعرفـة لمسـتخدم اللغـة، ويعتـبر كل خطـاب جـزءًا مـن نظـام خطـابي داخـل مؤسسـة معينـة أو مسـاحة معينـة مـن المجتمـع.. ويضـع التحليـل النقـدي للخطـاب تصـورًا للممارسـات الخطابيـة لمجتمـع معـين- أي الطـرق المعتـادة لاسـتخدام اللغـة مـن هـذا المجتمـع- باعتبارهـا شـبكات معينـة، أطلـق عليهـا أنظمـة الخطـاب، ويتكـون نظـام الخطـاب لمؤسسـة اجتماعيـة أو مجـال اجتماعـي معـين مـن كافـة الأنمـاط والممارسـات الخطابيـة المسـتخدمة في تلـك المؤسسـة أو ذلـك المجـال.. كذلـك تعتـبر نظـم الخطـاب مجـالاً وبـؤرة للـصراع والنـزاع الاجتماعـي وأحـد مجـالات الهيمنـة الثقافيـة.

ووفقًا لنموذج فيركلاو فإن تحليل أي نمط معين من الخطابات، بما في ذلك الخطاب الإعلامي يتضمن تناوب التركيز على جانبين مترابطين ومتكاملين هما: الأحداث الاتصالية، ونظام الخطاب، ويشمل الجانب الأول على تحليل للعلاقات القائمة بين ثلاثة أبعاد أو ملامح للحدث الاتصالي هي:

- نص: قد يكون مكتوبًا أو شفويًا، والنصوص الشفوية قد تكون مذاعة فقط أو مذاعة ومرئية كما في التليفزيون، وفي هذا المستوى يجب تحليل المعجمية، مفردات اللغة، ودلالات الألفاظ، والنحو وصوتيات النص ونظام كتابته، وكذلك التماسك المنطقي، والتركيبات النصية والوظائف المختلفة لكل جملة، وسيميولوجيا النص من كافة النواحي، وما ينتجه كل ذلك من معاني متعددة ومختلفة، سواء كانت معلنة أو مضمرة.

- ممارسة الخطاب: يقصد به تحليل عمليات إنتاج النص واستهلاكه، والنواحي النفسية والإدراكية الخاصة بكيفية توصل الأفراد إلى تأويلات معينة أو ما يعرف بالعمليات التأويلية، وكذلك تحليل التناص والذي يهدف إلى الكشف عن كيفية تشكيل واستخدام النصوص وتشابك الأنواع الأدبية والخطابات المختلفة الممزوجة في النص، والتي قد تتضمن استخدامًا تقليديًا لأنماط موجودة بالفعل أو استخدامًا إبداعيًا أو مزجًا بينهم.

- ممارسة اجتماعية ثقافية للتيارات الاجتماعية والثقافية السائدة، والتي يشكل الحدث الاتصالي جزءًا منها، ويتناول التحليل هنا مستويات مختلفة، منها السياق المباشر للحدث أو السياق الأوسع نطاقًا للممارسات المؤسسية، ويمكن تناول الكثير من جوانب الممارسة الاجتماعية الثقافية لعل أهمها الجانب الاقتصادي، والسياسي المتعلق بقضايا القوة والأيديولوجية، وثقافي يرتبط بالقيم والهوية. (Fairclough, ١٩٩٥)

ورغـم أهميـة نمـوذج (فـيركلاو) إلا أنـه يعتـبر نوعًـا مـن التفكـير النظـري المجـرد، حيـث لم يختـبر علي نحـو جـاد، ولم يظهـر سـوى عـدد محـدود مـن البحـوث والدراسـات التـي اسـتخدمته، وهـذا الوضـع يختلـف عـن منهجيـة (ميشـيل فوكـو) في تحليـل الخطـاب، والتـي ربمـا اكتسـبت طابعًـا عمليًـا تطبيقيًـا، عميقًـا وشـاملاً، سـاعد في تطويـر وتجديـد مكوناتهـا النظريـة.

ملاحظات حول تحليل الخطاب الإعلامي:-

لعبـت مـدارس الخطـاب السـابقة دورًا مهـمًا في التقريـب بـين تحليـل الخطـاب مـن ناحيـة ودراسـة الإعـلام مـن ناحيـة ثانيـة، لكنهـا لم تنجـح في بلـورة أطـر نظريـة واضحـة، والاتفـاق عـلى إجـراءات منهجية محـددة لعمليـة تحليـل الخطـاب الإعلامـي، ويبـدو أن غيـاب الاتفـاق أصبـح أحـد مظاهـر عـصر مـا بعـد البنيويـة، أو عـصر مـا بعـد الحداثـة الـذي نعيشـه، والـذي يؤكـد (إيهـاب حسـن) عـلى أن اللاحسـم والذاتيـة هـما أبـرز سـمتين لهـذا العـصر (بيـتر بروكـر، ١٩٩٥، ص ص٢٩-٣١)، ومـع ذلـك يمكـن رصـد العديـد مـن نقـاط الاختـلاف والاتفـاق بـين هـذه المـدارس، مـع وجـود تيـار قـوي للتأليـف بينهـا أحيانًـا أو اسـتعارة بعـض المفاهيـم التحليليـة واسـتخدامها، أو إعـادة تعريفهـا واسـتخدامها في سـياقات جديـدة:-

١- باسـتثناء الدراسـات اللغويـة التقليديـة التـي اسـتخدمت مفهـوم الخطـاب، يلاحـظ الباحـث حضـورًا مؤثـرًا وقويًـا لمنهجيـة (ميشـيل فوكـو) ومفاهيمـه الأساسـية في التحليـل، مـع وجـود اختـلاف في درجـة اعتـماد كل مدرسـة عـلى منهجيـة (فوكـو)، في هـذا الإطـار يمكـن القـول بـأن مـدارس تحليـل الخطـاب الألمانيـة أكـثر تأثـرًا بمنهجيـة (ميشـيل فوكـو)، مقارنـة بأعـمال (فـيركلاو) (وفـان ديـك)، وقـد نجـح الأخـير في دمـج وتطويـر البعـد الإدراكي في عمليـة تحليـل الخطـاب، بينـما لفـت (فـيركلاو) الانتبـاه إلى أهميـة تحليـل ممارسـات إنتـاج النصـوص الإعلامية واسـتهلاكها، أي اسـتقبال الجمهـور وتفاعلـه مـع الخطـاب الإعلامـي، فضـلاً عـن اهتمامـه بعمليـة بنـاء النصـوص والخطابـات الإعلاميـة.

٢- إن التوجه النقدي في تحليل الخطاب- والذي أصبح أحد أهم السمات الهيكلية لمدارس تحليل الخطاب- ارتبط بالتأثر الواضح بمدرسة فرانكفورت ومدرسة التحليل الثقافي وأعمال (ميشيل فوكو)، وأخيرًا أعمال عالم الاجتماع الفرنسي (بيير بورديو)، وقد تجسد هذا التوجه النقدي في التركيز على دراسة علاقات السلطة والهيمنة داخل المجتمع، والأيديولوجية، وكذلك اختيار موضوعات للدراسة التطبيقية ذات طابع اجتماعي وسياسي مؤثر، مثل قضايا التمييز العنصري والتمييز ضد المرأة وضد الأقليات والفئات المهمشة في المجتمع.

٣- تلعب الأيديولوجية دورًا مهمًا في التحليل النقدي للخطاب، فاللغة اختيارات أيديولوجية.. كما أن الخطاب ممارسة ذات طابع أيديولوجي من حيث التكوين والتأثير، مع ملاحظة أن مدارس تحليل الخطاب استخدمت مفهومًا للأيديولوجية والسيطرة الأيديولوجية أقرب ما يكون للغرامشية الجديدة، حيث يتفق (فان ديك) وكرس (فوداك وفيركلاو) على أن ممارسة القوة في المجتمعات الديمقراطية الحديثة لم تعد تعتمد على الإكراه بالدرجة الأولى بل على الإقناع، أي أصبحت عملية أيديولوجية بالمعنى الغرامشي، ويرى (فان ديك) أن الأيديولوجية هي أطر تفسيرية، كما تعتبر أساس لإدراك المواقف الاجتماعية. (Delinger,١٩٩٥)

٤- رغم أهمية الأعمال التحليلية للخطاب الإعلامي التي قدمت في إطار المدارس الأربعة إلا أنها تظل محدودة من حيث الكم والنوع، وبالتالي فإن كثيرًا من المفاهيم التحليلية التي استخدمت لم تختبر على نطاق واسع، خاصة المفاهيم التي اعتمد عليها (فيركلاو) والتي لم يستخدمها إلا في تحليل عينات محدودة، اختارها بدون توضيح لأسباب ومبررات هذا الاختيار، من جانب آخر فإن أغلب دراسات تحليل الخطاب الإعلامي ركزت على خطاب الصحافة المنشورة، ولم تمنح الخطاب الإعلامي في الإذاعة والتليفزيون اهتمامًا مماثلاً، ربما لصعوبات تتعلق باختيار العينات، وتحليل الصوت والصور.

٥- يمكن القول بأن مدارس تحليل الخطاب اعتمدت على عينات صغيرة من المواد الإعلامية، خاصة المواد المنشورة في الصحف، واعتبرت نفسها نوعًا من التحليل الكيفي، ومن ثم لم تهتم بالمؤشرات الكمية (Curtin, ١٩٩٦)، بل ركزت على الفهم والتأويل، انطلاقًا من فكرة مهمة عبر عنها (ييجر)- استنادًا إلى (ميشيل فوكو)- وتدعو إلى ممارسة التحليل وفهم الخطاب من خلال التعرف على القواعد والإجراءات الروتينية الخطابية في كل جزء من الخطاب، وبالتالي يمكن حل مشكلة التعميم النمطي عن طريق الاستمرار في تحليل الأجزاء المختلفة من الخطاب (العقد الخطابية والنصوص المركزية) حتى لا يوجد شيء يمكن العثور عليه بواسطة هذا التحليل، ويؤكد (ييجر) أن تجاربه الذاتية في مجال الدراسات التجريبية تشير إلى أنه بعد تحليل عدد قليل من أجزاء الخطاب لا توجد معلومات أو ملاحظات جديدة (Langer, ١٩٩٨).

٦- لكن ربما كان فان ديك الوحيد الذي خرج في محاولاته البحثية التطبيقية عن التوجه السابق، وقام باختيار عينات كبيرة نسبية، ركز فيها على الأفكار العامة والبنيات الكلية للنصوص، وحاول من خلال تحليلها التوصل إلى مؤشرات كمية وكيفية، ويرى الباحث أن محاولات (فان ديك) أقرب إلى المناهج الإجرائية التقليدية، كما أنها حالت دون التعمق في دراسة النصوص الإعلامية وسبر غور الخطاب الإعلامي الذي يختلف عن بقية أنواع الخطابات في المجتمع من عدة أوجه هي عمليات وظروف الإنتاج، والتوزيع، وعمليات الاستقبال أو التلقي، والتي تتوقف بدورها على طبيعة الخطاب الإعلامي، وهل هو مقروء أم مسموع أم مرئي (Fairclough, ١٩٩٥).

٧- مهما يكن من أمر الاتفاقات أو الاختلافات بين مدارس تحليل الخطاب فإن منهجية تحليل الخطاب الإعلامي باتت تقليدًا علميًا معترفًا به ومتناميًا، ويكتسب

كل يـوم أرضاً جديـدة رغـم عـدم وضـوح مفهـوم الخطـاب وتضـارب واختـلاف المفاهيـم والأطـر النظريـة الخاصـة بتحليـل الخطـاب، لكنـه وبشـكل عـام يعتمـد عـلى عـدة علـوم اجتماعيـة، كـما يدمـج بـين المسـاهمات الحديثـة والنقديـة في مجـال اللغويـات واللغويـات التطبيقيـة، كـما يـزاوج بـين التحليـل اللغـوي والسـميولوجي، ويسـتفيد مـن الاتجاهـات النقديـة في علـم الاجتـماع والانثربولوجـي، والدراسـات الثقافيـة، وعلـم النفـس الاجتماعـي، كـما يمنـح الخطـاب الإعلامـي أهميـه خاصـة، وفي الوقـت نفسـه يراعـي خصوصيتـه مـن زاويـة تعـدد أشـكاله ومضامينـه، سـواء كان مكتوبًـا أو مذاعًـا أو مرئيًـا، بالإضافـة إلى علاقتـه الجدليـة بالمجتمـع، فهـو لا يعكـس الواقـع أو علاقـات القـوة والهيمنـة في المجتمـع فقـط، وإنمـا يسـاهم في بنائهـا عـبر عمليـات التنـاص بـين الخطابـات والتفـاوض بينهـا، ولاسـيما التفـاوض بـين منتـج الخطـاب والجمهـور الـذي يسـتقبله، كـما يلعـب الخطـاب الإعلامـي دورًا مؤثـرًا في بنـاء العلاقـات الاجتماعيـة وتحديـد الهويـات الاجتماعيـة والثقافيـة، فهـو عمليـة مسـتمرة ومعقـدة تتفاعـل فيهـا وعبرهـا قـوى ومتغـيرات محليـة ودوليـة تعكـس أوضـاع المجتمـع وثقافتـه.

تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية:-

وقـع الاختيـار عـلى تسـع دراسـات مصريـة كنمـوذج للدراسـات العربيـة التـي اسـتخدمت منهجيـة تحليـل الخطـاب في مجـال الإعـلام، كان مـن بينهـا أربـع رسـائل للماجسـتير، وخمـس رسـائل للدكتـوراه، هــي:-

١- انقرائيــة الخــبر الصحفــي اللغويــة: بالتطبيــق عــلى الخــبر الصحفــي في جرائــد الأهــرام والجمهوريــة خــلال عــام ١٩٧٨، رســالة ماجســتير، إعــداد: محمــود إبراهيــم خليــل، ١٩٨٩

٢- تطـور فكـرة القوميـة العربيـة في الصحافـة المصريـة ١٩٢٤- ١٩٥٢، رسـالة ماجسـتير، إعـداد: محمـد عـلي شـومان،١٩٩٠

٣- التطور الأسلوبي والدلالي للغة الصحافة اليومية في الفترة من ١٩٦٠-١٩٨٠، رسالة دكتوراه، إعداد: محمود إبراهيم خليل، ١٩٩٣

٤- تأثير السياسة الخارجية للدولة في المعالجة الصحفية للشئون الدولية، دراسة مقارنة للصحافة المصرية خلال الفترة من ١٩٩٠-١٩٩٢، رسالة ماجستير، إعداد: هشام عطية عبد المقصود محمد، ١٩٩٥

٥- علاقة النخب السياسية المصرية بالصحافة وتأثيرها في أنماط الأداء الصحفي في التسعينات، رسالة دكتوراه، إعداد: هشام عطية عبد المقصود محمد، ١٩٩٨

٦- الخطاب الديني في الصحف المصرية خلال الفترة ما بين عامي ١٨٨٢-١٩١٤، رسالة دكتوراه، إعداد: محمد أحمد يونس، ٢٠٠٠

٧- التغطية الصحفية الغربية لشئون العالم الإسلامي خلال عقد التسعينات، رسالة دكتوراه، إعداد: محمد حسام الدين إسماعيل، ٢٠٠١

٨- صورة مصر في الخطاب الصحفي لمراسلي الصحف ووكالات الأنباء العربية العاملة في مصر خلال الفترة من ١٩٩٠- ١٩٦٦، إعداد: وائل محمد عارف قنديل، رسالة دكتوراه، ٢٠٠٢

٩- موقف الصحافة المصرية من الثورة العرابية في الفترة من ١٨٧٧-١٨٨٢، إعداد: محمد عبد الحفيظ الباز، رسالة ماجستير، ٢٠٠٣

ومن خلال قراءة وتحليل الرسائل السابقة، فضلاً عن خبرة الباحث الشخصية ومعايشته عن قرب لظهور تلك الدراسات وغيرها، تتكشف مجموعة من المعلومات والحقائق لعل أهمها:-

١- ترجع بداية ظهور واستخدام مفهوم الخطاب ومناهج تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية المصرية إلى نهاية الثمانينات من القرن العشرين، وهي بداية متأخرة زمنيًا مقارنة بالدراسات الإعلامية الأوربية التي استخدمت تحليل الخطاب، لكن يمكن القول إن هذا التأخير يرجع إلى هيمنة مناهج وأدوات التحليل الكمي، واعتبارها داخل المؤسسة التعليمية التجسيد الوحيد للبحث العلمي في الدراسات الإعلامية التي تتناول تحليل النصوص والرسائل الإعلامية، من هنا واجهت المحاولات الأولى لاستخدام تحليل الخطاب مقاومة عنيفة وانتقادات واسعة، حيث اعتبرت نوعًا من التمرد أو الخروج عن التقاليد العلمية السائدة التي تنتمي إلى الوضعية والسلوكية بمدارسها المختلفة، ونزعتها إلى التعامل الكمي والإحصائي مع النصوص والرسائل العلمية، معزولة عن سياقها الاجتماعي والسياسي والتاريخي، أي التعامل مع النص بمعزل عن شروط إنتاجه وتداوله واستهلاكه، كما نظر البعض إلى محاولات استخدام تحليل الخطاب بوصفه نوعًا من الرغبة لدى الباحثين الشباب في الاختلاف أو تقليد الجديد دون فهم ودراية كاملة بمناهج تحليل الخطاب وخلفياته الفلسفية والمعرفية.

٢- ارتبط استخدام تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية بجيل جديد من الباحثين الشبان الذين حاولوا تقديم إضافة جديد تتجاوز ما هو سائد في حقل تحليل النصوص والرسائل الإعلامية، كما تعاملوا معها بوصفها خطابًا، ولاشك أن هذا الجيل استفاد من تشجيع أساتذة كبار كانت لهم انتقادات واسعة لتحليل المضمون الكمي، ودعوا لتجاوزه، والبحث عن أدوات ومناهج تحليل جديدة، في مقدمتهم خليل صابات ومختار التهامي، ولعل الكتاب الجماعي للأساتذة عواطف عبد الرحمن ونادية سالم وليلى عبد المجيد قد عكس هذه الدعوة وجسدها، وقدم وبشكل عملي أول دعوة وممارسة عملية لتجاوز الأدوات والمناهج السائدة، لاسيما وأن الثلاثة كن قد مارسن تحليل المضمون الكمي ثم انتقدنه بعد أن اكتشفن العديد من نقاط

ضعفه وجوانب قصوره، وقد اهتمت عواطف عبد الرحمن بالدعوة إلى إعادة الاعتبار للتحليل الكيفي والانفتاح على مساهمات المدارس الفرنسية والأوربية في تحليل المضمون وعدم الاكتفاء بالمدرسة الكمية التقليدية التي وضع أساسها بيرلسون. (عبد الرحمن سالم، عبد المجيد،١٩٨٣).

٣- أن معظم الدراسات الإعلامية التي استخدمت تحليل الخطاب تناولت نصوص أو مضامين صحفية، أي ما يعرف بخطاب الصحافة المطبوعة بينما أهمل تحليل الخطاب الإعلامي المسموع والمرئي في الإذاعة والتليفزيون، وكذلك أهمل الخطاب الإعلاني (الإشهاري) والذي يجمع بين النص الصورة، والنص المقروء، وذلك رغم التطور الكبير في تحليل خطاب الصورة، والذي أحرزته مدارس تحليل الخطاب الأوربية، ويمكن تفسير ذلك في ضوء صعوبات عملية تحليل الخطاب المسموع والمرئي، وعدم توافر أطر نظرية وتقاليد بحثية راسخة في مجال تحليل الخطاب، تستطيع أن تتعامل مع هذه الصعوبات، من هنا ربما كان البدء بتحليل الخطاب الصحفي المطبوع والمقروء في مصر أسهل على الباحثين الذين يقتحمون مجالاً جديدًا، في هذا السياق تعتمد عينة الدراسة الحالية على دراسات تحليل الخطاب الصحفي فقط، حيث لم يجد الباحث رسائل علمية في كلية الإعلام تناولت تحليل الخطاب المسموع والمرئي وتنطبق عليها شروط اختيار عينة الدراسة.

٤- رغم تركيز الدراسات التي استخدمت تحليل الخطاب على الخطاب الصحفي، إلا أنه يوجد تعدد وتنوع في موضوعات ومجالات هذه الدراسات، ولعل عينة الدراسة تكشف عن هذا التنوع، فقد ركزت أربع دراسات على قضايا مهنية تتعلق بالأداء الصحفي (خليل، ١٩٨٩، ١٩٩٣)، (محمد، ١٩٩٥)، (قنديل، ٢٠٠٢)، بينما تناولت دراستان موضوعات ذات طابع فكري تاريخي، وتتعلق تحديدًا بتاريخ الأيديولوجية، (شومان، ١٩٩٠، يونس، ٢٠٠٠) حيث اختصت الأولى بالخطاب

القومي العربي في الصحافة المصرية، بينما اختصت الثانية بالخطاب الديني في الصحافة المصرية، وتناولت إحدى الدراسات تأثير السياسة الخارجية للدولة في المعالجة الصحفية للشئون الدولية (محمد، ١٩٩٥)، بينما اهتمت دراسة محمد حسام، ومن منظور عبر ثقافي مقارن، على التغطية الصحفية الغربية لشئون العالم الإسلامي في التسعينات (إسماعيل، ٢٠٠١)، وقد شاركه في المنظور نفسه وائل قنديل (قنديل، ٢٠٠٢)، أما دراسة الباز فقد اتخذت موضوعًا تاريخيًا يتعلق بموقف الصحافة المصرية من الثورة العرابية ١٨٧٧- ١٨٨٢(الباز، ٢٠٠٣). وبمقارنة موضوعات الدراسات العربية مع التراث العلمي في مجال تحليل الخطاب الصحفي يجد الباحث أن ثمة اتفاق واضح بينها، فتاريخ الفكر والأيديولوجيا، ولغة الصحافة وكذلك الصور المتبادلة بين الشعوب، كلها موضوعات مشتركة تناولتها الدراسات الأوربية والعربية، وذلك رغم قصور مستوى التحليل ومنهجيته في الدراسات العربية، واعتماده على حجم كبير من العينات.

٥- ضعف ومحدودية الأطر النظرية والمنهجية التي اعتمدت عليها الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب، إذ خلت تلك الدراسات من العرض التحليلي الشامل لمدارس تحليل الخطاب الإعلامي، وغابت بعض المدارس عن دائرة اهتمام الدراسات العربية، فعلى سبيل المثال لم تظهر مدارس تحليل المحادثة، والتحليل السميولوجي، كما لم تظهر المساهمات الألمانية، وكذلك مساهمات الباحثين في الدول الاسكندنافية.

من جانب آخر فإن تبني بعض مدارس وأدوات تحليل الخطاب جاء منفصلاً عن الفلسفات أو الرؤى الكلية التي ظهرت تلك المدارس في إطارها، أي أن الخلفية المعرفية تكاد تكون غائبة أو غير واضحة ربما باستثناء دراستي محمود خليل للماجستير والدكتوراه حيث اعتمد فيهما على اللغويات واللغويات النقدية، واستخدم على وجه التحديد التحليل

الأسـلوبي والتحليـل الـدلالي مـع ربطهـما بالسـياق المجتمعـي (خليـل، ١٩٨٩- ١٩٩٣)، ورغـم أهميـة دراسـتي خليـل إلا أنهـما لم تتجـاوزا حـدود التحليـل اللغـوي وعيوبـه التـي تعرضـت لهـا هـذه الدراسـة في موضـع آخـر.

أمـا دراسـات شـومان وهشـام عطيـة ومحمـد حسـام الديـن فقـد عرضـت لبعـض مـدارس تحليـل الخطـاب، لكنهـا لم توضـح بشـكل كافٍ الخلفيـة المعرفيـة لهـذه المـدارس، كـما لم تقـدم إطـارًا نظريًـا متماسـكًا، بـل إن الدراسـات الثـلاث، ربمـا تكـون قـد قدمـت وبدرجـات متباينـة خلطًـا مفاهيميًـا ونظريًـا، فدراسـة شـومان التـي حـاول فيهـا ولأول مـرة تجـاوز مـدارس التحليـل اللغـوي والـدلالي للخطـاب الصحفـي، جمعـت بـدون وعـي معـرفي ومنهجـي بـين بنيويـة (ميشـيل فوكـو) وتأويليـة (بـول ريكـور)، وقـد أدى هـذا الخلـط المعـرفي والمنهجـي إلى اعتـماد الدراسـة نوعًـا مـن تحليـل الخطـاب يجمـع بـين المـؤشرات الكميـة والكيفيـة (شـومان، ١٩٩٠)، أمـا دراسـتي هشـام عطيـة للماجسـتير والدكتـوراه فقـد قدمتـا تحليـلاً أدق وأعمـق مـن دراسـة شـومان، غـير أنهـما وقعتـا في نفـس الخلـط النظـري والمفاهيمـي، (محمـد ١٩٩٥- ١٩٩٨)، ونجـح محمـد حسـام في الاطـلاع عـلى عـدة مـدارس لتحليـل الخطـاب، كـما كان لـه فضـل عـرض أعـمال (فـيركلاو) غـير أنـه لم يسـتفد مـن هـذا العـرض في بلـورة إطـار نظـري أو تطويـر أدواتـه التحليليـة (إسـماعيل ٢٠٠١).

والمفارقـة أن الدراسـات الأحـدث لم تقـع في نفـس الأخطـاء السـابقة فقـط، بـل أنهـا لم تبـذل جهـدًا كبـيرًا أو تقـدم جديـدًا عـلى صعيـد بلـورة مفاهيـم أوأطـر نظريـة لتحليـل الخطـاب الصحفـي، بـل توزعـت اهتماماتهـا وأولوياتهـا، ومـن ثـم لم تطـور في المفاهيـم أو أدوات التحليـل، بـل اعتمـدت في الغالـب عـلى الدراسـات العربيـة السـابقة، ومـن ثـم نقلـت الكثـير مـن جوانـب قصورهـا (يونـس وقنديـل والبـاز)، وتجـدر الإشـارة إلى أن يونـس سـعى إلى إعـادة تعريـف الخطـاب بطريقـة انتقائيـة وعـلى أسـس لغويـة تراثيـة اسـتنادًا إلى أعـمال سـيف الديـن الأمـدي، والإمـام الجوينـي، ثـم ميـز بـين الخطـاب بالمفهـوم الشرعـي والخطـاب الدينـي الـذي اختزلـه بطريقـة تعسـفية في مجموعـة

المقولات والتصورات والرؤى التي تطرحها الجماعة الصحفية إزاء قضايا المجتمع، مستندة إلى الدين الإسلامي بشكل مباشر أو غير مباشر (يونس, ٢٠٠٠، ص ص٤- ٧)، من دون أي اهتمام بالخطاب الصحفي للأقباط واليهود المصريين.

١- تعكس مدارس تحليل الخطاب الأوربية حالة من عدم الاتفاق والجدل حول مفهوم الخطاب، وهل هو نظرية أو منهج، كما تعكس تعدداً في استخدام أدوات وطرق تحليل الخطاب، وحدود هذا التحليل، ومثل هذه الحالة لا تعكسها الدراسات العربية التي استخدمت تحليل الخطاب، فثمة اختلافات ولكن من دون جدل أو نقاش علمي، كما أن أغلب هذه الاختلافات تفتقر إلى الأسس النظرية والمعرفية فضلاً عن محدودية الممارسات والتطبيقات العملية التي يمكن الاعتماد عليها في إثراء الجدل والنقاش العلمي، وربما يمكن تفسير ذلك في أن مستوى ونوع الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي لم ترتبط بوضوح بمدارس تحليل الخطاب الأوربية، ولم تتواصل معها أو حتى تنقل عنها بوضوح، بمعنى أنها كانت مجرد ظلال غير محددة الأبعاد لبعض تلك المدارس.

٢- أن الضعف النظري والمنهجي في الدراسات العربية التي شكلت عينة هذه الدراسة يتجسد في عدة مستويات تفصيلية تتعلق بـ:-

- الاعتماد على عدد محدود من المصادر والمراجع التي تكررت في الدراسات العربية وتناقلتها إما عن لغاتها الأصلية أو مترجمة، بالإضافة إلى النقل والاقتباس عن دراسات تحليل الخطاب الإعلامي في صورة أقرب ما تكون إلى إعادة إنتاج الشيء نفسه بكل إيجابياته وسلبياته.

- باستثناء دراستي خليل اللتين اعتمدتا على نظريات التحليل اللغوي مع استخدام التحليل الأسلوبي والدلالي، استخدمت عينة الدراسات العربية في تحليل الخطاب مسار البرهنة، وتحليل القوى الفاعلة، وتحليل الأطر المرجعية، وقد تكرر استخدام

هـذه الأدوات الثـلاث- كلهـا أو بعضهـا- بصـورة نمطيـة في الإجـراءات المنهجيـة للدراسـات التـي استخدمت تحليـل الخطـاب، مـع اختـلاف في مسـتوى وعمـق التحليـل، بحسـب جديـة الباحث وموضـوع بحثـه، وحجـم عينـة النصـوص والرسـائل الإعلاميـة التـي اختارهـا، ويمكـن القـول إن هـذه الدراسـات قـد نقلـت الأدوات الثـلاث عـن أطروحـة مارلـين نـصر حـول تحليـل الخطـاب النـاصري بـدون اطـلاع أو معرفـة بأسسـها المعرفيـة والنظريـة، وارتباطهـا العميـق بالدراسـات اللغويـة واللغويـات النقديـة (نـصر, ١٩٨٣)، ثـم قـام شـومان وهشـام عطيـة بتطويـر وتوضيـح إجـراءات مسـار البرهنـة، بينـما نقلـت بقيـة الدراسـات عنهـما وعـن مارلـين نـصر بـدون تطويـر أو تأصيـل نظـري، خاصـة فيـما يختـص بتحليـل القـوى الفاعلـة وتحليـل الأطـر المرجعيـة.

- عـلى عكـس مـا هـو سـائد في دراسـات تحليل الخطـاب الإعلامـي في العالم اسـتخدمت الدراسـات العربيـة عينـات كبـيرة ومتنوعـة مـن النصـوص الصحفيـة، الأمـر الـذي يفـسر حجمهـا الكبـير، حتـى أن بعضهـا تجـاوز الألـف صفحـة، ومـع ذلـك لم تقـدم تحليـلًا معمقًـا، وعـلى سـبيل المثـال اسـتخدم شـومان ويونـس كميـة هائلـة مـن النصـوص الصحفيـة عـبر عـشرات السـنين، وشـملت عـدة صحـف, بـل وأحيانًـا عـشرات الصحـف والمجـلات مـما أضعـف مـن مسـتوى التحليـل ونوعيتـه، وحـال بينـه وبـين التعمـق في فهـم وتحليـل الخطـاب (شـومان, ١٩٩٠,- يونـس, ٢٠٠٠)، أمـا دراسـة محمـد حسـام التـي غطـت ثلاثـة أشـهر فقـط (إسـماعيل, ٢٠٠١)، وكذلـك الدراسـات التـي اقتـصرت عـلى سـنة واحـدة (خليـل, ١٩٨٩) أو سـنتين (محمـد, ١٩٩٥) أو أقـل مـن سـت إلى سـبع سـنوات (قنديـل، ٢٠٠٢- البـاز, ٢٠٠٣) فقـد اعتمـدت عـلى عينـات كبـيرة مـن الصحـف، وبالتـالي لم تنـج مـن السـطحية في التحليـل أو التشـتت أحيانًـا، وإن كانـت أفضـل حـالاً مـن دراسـتي شـومان ويونـس، حيـث توصـل أغلبهـا إلى نتائـج مهمـة سـاعدت عـلى سـبر أغـوار الخطـاب الصحفـي، وفهـم آلياتـه وعلاقاتـه بسـياقه التاريخـي وفضائـه المجتمعـي.

- جمعت ثلاث دراسات من إجمالي عينة التحليل بين تحليل الخطاب وبين تحليل المضمون الكمي التقليدي بطريقة تعسفية وشكلية، وبدون إدراك للتناقض النظري والمعرفي بين تحليل الخطاب والتحليل الكمي، ومن ثم قدمت مبررات نظرية أو منهجية ضعيفة وغير مفهومة لهذا الجمع التعسفي، مما قاد إلى نتائج متناقضة أو غير مقنعة، ولعل دراسة شومان تكشف عن هذا الخلط، فقد قام بإحصاء عدد الأطروحات والبراهين المستخدمة، واتخذ من أكثرها تكررًا معيارًا لتقدير أهميتها وتأثيرها داخل بنية الخطاب، وهو إجراء لا يتفق مع المنطلقات والأسس النظرية والمعرفية لتحليل الخطاب، كما أن خليل مزج وبشكل فيه قدر من الاجتهاد بين التحليل الكمي والكيفي، حيث أشار في أطروحته للماجستير إلى استخدامه لـ أسلوبي التحليل الكمي والكيفي وذلك اتساقًا مع طبيعة مشكلة وأهداف الدراسة «(خليل، ١٩٨٩، ص٣٥)، أما في أطروحته للدكتوراه فقد أعلن التزامه بأسلوبي التحليل الكمي وبخاصة فيما يتعلق بالأسلوب الصحفي، والتحليل الكيفي، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة الصحفية »(خليل, ١٩٩٣، ص٣).

وبعيدًا عن هذا المزج يعرف محمد حسام تحليل الخطاب ويستخدمه بوصفه مدخل تحليل كمي- كيفي (إسماعيل،٢٠٠١)، أما قنديل فقد حاول استخدام تحليل المضمون بطريقة كيفية مبتكرة تهدف إلى «تنظيم المادة الأولية للكتلة التحريرية، وقولبتها ضمن فئات مضمونية يمكن الإفادة من دلالاتها ومؤشراتها». (قنديل، ٢٠٠٢، ص٣٣)

- ارتباطًا بالملاحظة السابقة يمكن القول بأن الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب قد شغلت نفسها بقضية التحليل الكمي أم الكيفي التي تجاوزتها أغلب مدارس تحليل الخطاب الأوربية، ثم حاولت أن تأخذ موقفًا وسطيًا يمزج بين الأساليب الكمية والكيفية في التحليل، تحت دعوى أن طبيعة البحث وأهدافه تفرض نوعية التحليل والأساليب المستخدمة، وهذه الدعوة ظهرت بوضوح في

دراسات خليل وشومان وهشام وآخرين، لكنها لم تؤصل نظريًا، وظلت قاصرة ومحصورة في استخدام التحليل الأسلوبي والدلالي، ومسار البرهنة، وتحليل القوى الفاعلة، وتحليل الأطر المرجعية، ولم تتعرف على مناهج وأدوات أخرى في التحليل، من هنا لم تطور بشكل حقيقي وجاد من أدواتها للدمج أو التكامل بين التحليل الكمي والكيفي.

***

الخاتمة:-

يستخدم مفهوم الخطاب في مجالات بحثية متنوعة، وتخصصات متعددة، في إطار الآداب والعلوم الاجتماعية، وقد ارتبطت نشأته بحقل اللغويات، ثم تطور مع ظهور عدة نظريات ومناهج في تحليل الخطاب، ورغم هذا التوسع والانتشار في استخدام الخطاب وتحليل الخطاب فإنه لا يوجد اتفاق حول المفهوم والإطار النظري والمنهجي لتحليل الخطاب، بل ظهرت عدة مدارس يوجد بينها نقاط اتفاق واختلاف عديدة، ولعل أهم نقاط الاتفاق هي التوجه النقدي في تحليل الخطاب، والاتجاه للتقريب بين مدارس تحليل الخطاب، حيث سقطت أو تكاد الحدود التقليدية بينها، خاصة بعد أن سعى الكثير من الباحثين للدمج والتأليف بين مفاهيم وطرق لتحليل الخطاب تنتمي لمدارس متعددة من جهة، وبعد أن ظهر اتفاق واسع على أنه لا توجد طريقة واحدة أو إجراءات منهجية متفق عليها لتحليل الخطاب من جهة ثانية.

واهتمت مدارس تحليل الخطاب بتحليل الخطاب الإعلامي وفي مقدمتها اللغويات واللغويات النقدية، والسميولوجيا، ومدرسة التحليل الثقافي، ومدرسة التحليل النقدي للخطاب، لكن الأعمال التحليلية للخطاب الإعلامي التي قدمتها هذه المدارس ما تزال محدودة من حيث الكم والنوع، ومع ذلك أصبحت منهجية تحليل الخطاب الإعلامي تقليدًا علميًا معترفًا به، ويكتسب كل يوم أرضًا جديدة حيث يتيح إمكانية التحليل النقدي العميق والمتعدد المستويات (الكلي والجزئي- العام والخاص- الدولي والمحلي- المجتمعي والإعلامي- ظروف إنتاج الخطاب الإعلامي وآليات استقباله واستهلاكه).

ولاشك أن اهتمامات التحليل النقدي للخطاب الإعلامي ومجالات عمله تمكنه من تجاوز جوانب القصور في التحليل الكمي التقليدي لمضمون النصوص الإعلامية الذي نشأ في إطار التقاليد البحثية الوضعية والسلوكية- تبنته وروجت له لسنوات طويلة المدرسة الأمريكية الإعلامية- وأدى إلى تفتيت النص وعزله عن سياقه التاريخي والمجتمعي وإهمال المعاني غير المباشرة أو الضمنية التي يحملها النص.

وبالنسبة للدراسات الإعلامية العربية كما تعكسها حالة مصر- التي تعتبر من أوائل الدول العربية التي أنشأت معهدًا للصحافة ثم كلية مستقلة للإعلام عام ١٩٧٤- فإنها لم تعرف أو تمارس منهجية تحليل الخطاب إلا في نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات، حيث سادت منهجية تحليل المضمون الكمي التقليدي وأصبح جزءًا من تقاليد المؤسسة العلمية في مصر، مما أخر ظهور واستخدام منهجية تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية، وخاصة أنها اعتبرت خروجًا عن التقاليد العلمية السائدة ومحاولة لتجريب منهجية غامضة غير محددة نظريًا ومنهجيًا، ولا يوجد حولها اتفاق، لكن بفضل تشجيع عدد من أساتذة الإعلام وجهود عدد محدود من الباحثين الشبان ظهر عدد من أطروحات الماجستير والدكتوراه تبنت منهجية، تحليل الخطاب، ورغم قلة عدد دراسات تحليل الخطاب الإعلامي في مصر إلا أنها نجحت في كسب مشروعية الوجود، وباتت تقليدًا معترفًا به، حيث أصبح من المقبول في ضوء التقاليد العلمية المعمول بها في الجامعات المصرية والمجلات العلمية الدورية، إجراء ونشر دراسات تحليل الخطاب الإعلامي، كما أن هناك أعداداً متزايدة من أطروحات الماجستير والدكتوراه قيد الإعداد تتبنى منهجية تحليل الخطاب الإعلامي المطبوع والمسموع والمرئي.

وتعتمد الدراسة الحالية على عينة من هذه الأطروحات التي نوقشت في كلية الإعلام لإلقاء الضوء على وضعية الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، حيث خلصت الدراسة إلى اقتصارها على تحليل الخطاب الصحفي فقط، حيث لم تظهر دراسات في تحليل الخطاب المسموع والمرئي فضلًا عن خطاب الإعلان (الإشهار)، على أن دراسات تحليل الخطاب الصحفي اختارت موضوعات مهمة، اتسمت بالتعدد والتنوع والانشغال بقضايا معاصرة ومطروحة على جدول أعمال المدارس الأوروبية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي.

لكن يمكن القول بأن دراسات تحليل الخطاب الصحفي التي ظهرت في مصر قد

نقلت بعض المفاهيم والأطر النظرية عن بعض مدارس تحليل الخطاب الأوربية، بينما لم تتعرف على مدارس أخرى مهمة مثل المدرسة الألمانية ومساهمات باحثي الدول الاسكندنافية، كما لم تستفد من الأعمال التأسيسية لميشيل فوكو ربما لأنه لم يكتب بشكل مباشر عن مجال الإعلام والخطاب الإعلامي، الأمر الذي أدى إلى ضعف ومحدودية الأطر النظرية والمنهجية التي اعتمدت عليها الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، وافتقارها إلى العمق النظري والمعرفي، وقد أدى هذا الضعف إلى الوقوع في مشكلات مفاهيمية ومنهجية وإجرائية مثل غموض مفهوم الخطاب، واعتماد بعض الدراسات على منهجية الدراسات اللغوية فقط، ووقوع دراسات أخرى في نوع من الخلط الغريب بين تحليل الخطاب وتحليل المضمون الكمي التقليدي، واستخدام النوعين معًا وبطريقة تعسفية وغير مبررة في بعض الدراسات، بالإضافة إلى استخدام عينات كبيرة من النصوص الصحفية تغطي سنوات طويلة، مما أثقل كاهل تلك الدراسات وأسفر أحيانًا عن أنماط من التحليل السطحي.

وربما تكمن مشكلة اختيار الدراسات العربية لعينات كبيرة من النصوص إلى التأثر بالمنهجية الوضعية السلوكية التي تفترض المساواة بين أهمية النصوص وإمكانية اختيار عينات ممثلة، وهو ما ترفضه أغلب مدارس تحليل الخطاب حيث أن النصوص لا تتساوى في الأهمية، كما أن هناك نصوص مركزية أو حاكمة يطلق عليها (بيجر) (العقد الخطابية)، فضلًا عن ضرورة فهم واستيعاب التناص والتشابك والتكرار بين النصوص والذي قد لا يضيف جديدًا لتحليل الخطاب؛ لذلك فمن المهم هو تحديد العقد والتشكيلات الخطابية والممارسات غير الخطابية والتركيز عليها في التحليل بغض النظر عن كم النصوص التي ستخضع للتحليل، ولاشك أن اختيار النصوص المركزية التي تسجل الخطاب وتحولاته هي إشكالية نظرية وإجرائية يدور حولها نقاش واسع، من الضروري أن يتابعه الباحثون العرب في مجال تحليل الخطاب، ويشاركون فيه نظريًا وعمليًا.

أيضًا ربما يكون من المهم ليس فقط الانفتاح والتواصل مع مدارس تحليل الخطاب الأوربية، بل الانفتاح والتواصل مع الدراسات العربية التي أجريت في المغرب العربي في مجال تحليل الخطاب عامة والخطاب الإعلامي خاصة، والتي يبدو أنها تناولت موضوعات بالغة الأهمية، كما تابعت بوعي وعن قرب مدارس تحليل الخطاب خاصة المدرسة الفرنسية، لكن العقبة التي تحول دون تعميم الاستفادة من هذه الدراسات على النطاق العربي تكمن في أن معظمها كتب باللغة الفرنسية، من هنا يقترح الباحث ترجمة ونشر بعض من هذه الدراسات تدعيمًا للتواصل والحوار العربي- العربي في مجال تحليل الخطاب الإعلامي.

المراجــع:-

١-Tompkins,Phillip,k..principles of rigor for assessing evidence in qualitative, communication research,western journal of communication,١٩٩٤.

٢- Roy Langer, the concept of discourse analysis of complex communication events,http://ep.lib.cbs.dk.١٩٩٨, (Accessed١٢-٩-٢٠٠٤)

٣- عواطـف عبـد الرحمـن، ناديـة سـالم، ليـلى عبـد المجيـد، تحليـل المضمـون في الدراسـات الإعلاميـة، القاهـرة، العـربي للنـشر والتوزيـع، ١٩٨٣.

٤-PartriciaA.Curtin,Textual analysis in mass communition studies:Theory and Methodology,١٩٩٦,http://list.msu.edu(Accessed٢٠٠٤-٧-١٩)

٥-Kevin Howley, Textually mapping newpaper discourse,http://list.msu.edu.١٩٩٩ (Accessed ٢٠٠٤-١٠-٢).

٦-ndrew Tolson ,mediations , text and discourse in ,١٩٩٦. media studies, Arnold,London

٧-James W.Tankard,reappraising discourse analysis and iplications for news studies,١٩٩٤,http://list.msu.edu.(Accessed٢٠٠٤-٧-١٩)

٨-Norman fairclough,Media Discourse,London, Edward Arnold ,١٩٩٥.

٩- Ellen Barton,Resources for discourse analysis in compesition studies, V٣٦,i٤,٢٠٠٢ .

١٠- صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.

١١-Kress,Gunter and Hodge, Roert,Language as ideology,London, Routledge and Kegan Paul,١٩٧٩.

١٢-Coates Jennifer ,ed,Language and Gender, A reader , Maiden,MA,Blackwell.١٩٨٨.

١٣-Alastair Pennycook , critical applied linguistics in A Davies and C.Elder,eds,Handbook of applied linguistics Oxford:Blackwell,٢٠٠٢.١٤ -Analysis, Brett Delinger,Critical Discourse www.cnncritial.tripod.com, ١٩٩

١٥- الـزواوي بغـورة، مفهـوم الخطـاب في فلسـفة ميشـيل فوكـو، القاهـرة، المجلـس الأعـلى للثقافـة، ٢٠٠٠.

١٦ - السـيد النفـادي، السـيميوطيقا علاقتهـا بالفلسـفة والعلـم عنـد كارنـاب، الكويـت، المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، عـالم الفكـر، يوليـو- سـبتمبر ٢٠٠٢.

١٧ - محمد غرافي، قراءة في السميولوجيا البصرية، المرجع السابق، ص ص ٢٢١- ٢٥٠.

١٨- عـلي بـن شـويل القـرني، الخطـاب الإعلامـي العـربي، المجلـة المصريـة لبحـوث الإعـلام، كليـة الإعـلام، جامعـة القاهـرة، ١٩٩٧.

١٩- جـوردن مارشـال, موسـوعة علـم الاجتـماع، المجلـد الأول، ترجمـة محمـد محمـود الجوهـري وآخرين، القاهـرة، المجلـس الأعلى للثقافـة، ٢٠٠٠ .

٢٠-Roger Bromley ,Cultural Studies in Britain". In A Cultural Studies Reader. History, Theory, Practice. ed. Jessica Munns and Gita Rajan. London and New York: Longman, ١٩٩٥.

٢١-Hall, Stuart: Culture, the Media and the "Ideological - Effect'. In James

Curran, Michael Gurevitch & Janet Woollacott (Eds.): Mass Communication and Society. London: Edward Arnold.١٩٩٧.

٢٢-TeunA.van Dijk,Critical Discourse A nalysis ,١٩٩٨, www, hum.uva.nl/teun/cda.htm, (Accessed ٢٠٠٥-١-١٢)

٢٣-Fairclough, Discoure,social theory and social research:the discourse of welfare, journal of sociolingustics,٤,٢٠٠٠.

٢٤-Roy langor, the concept of discourse analysis of complex communication events, ١٩٩٨ , http://ep.lib.cbs.dk.

٢٥-Ruth Wodak,critical discourse analysis at the end of the ٢٠th century.in:Research on Language and Social interaction,٣٢,١٩٩٩.

٢٦- بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علوب، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٥ .

٢٧- مارلين نصر، التصور القومي في فكر جمال عبد الناصر ١٩٥٢- ١٩٧٠: دراسة في علم المفردات والدلالة، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٨٣ .

٢٨ - محمود إبراهيم خليل، انقرائية الخبر الصحفي اللغوية: بالتطبيق على الخبر الصحفي في جرائد الأهرام والجمهورية خلال عام ١٩٧٨، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٨٩.

٢٩- محمد علي شومان، تطور فكرة القومية العربية في الصحافة المصرية (١٩٢٤- ١٩٥٢)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٠.

٣٠- محمود إبراهيم خليل، التطور الأسلوبي والدلالي للغة الصحافة اليومية في الفترة من

١٩٦٠- ١٩٨٠، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٣.

٣١- هشـام عطيـة عبـد المقصـود محمـد، تأثـير السياسـة الخارجيـة للدولـة في المعالجـة الصحفيـة للشـئون الدوليـة، دراسـة مقارنـة للصحافـة المصريـة خـلال الفـترة مـن ١٩٩٠-١٩٩٢، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، كليـة الإعـلام، جامعـة القاهـرة، ١٩٩٥.

٣٢ - هشـام عطيـة عبـد المقصـود محمـد، علاقـة النخـب السياسـية المصريـة بالصحافـة وتأثيرهـا في أنمـاط الأداء الصحفـي في التسـعينات، رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة، كليـة الإعـلام، جامعـة القاهـرة، ١٩٩٨.

٣٣- محمـد أحمـد يونـس، الخطـاب الدينـي في الصحـف المصريـة خـلال الفـترة مـا بـين عامـي ١٨٨٢-١٩١٤، رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة، كليـة الإعـلام جامعـة القاهـرة، ٢٠٠٠.

٣٤- محمـد حسـام الديـن إسـماعيل، التغطيـة الصحفيـة الغربيـة لشـئون العـالم الإسـلامي خـلال عقـد التسـعينات، رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة، كليـة الإعـلام، جامعـة القاهـرة، ٢٠٠١ .

٣٥- وائـل محمـد عـارف قنديـل، صـورة مـصر في الخطـاب الصحفـي لمراسـلي الصحـف ووكالات الأنبـاء العربيـة العاملـة في مـصر خـلال الفـترة مـن ١٩٩٠- ١٩٦٦، رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة، كليـة الإعـلام جامعـة القاهـرة، ٢٠٠٢ .

٣٦- محمـد عبـد الحفيـظ البـاز، موقـف الصحافـة المصريـة مـن الثـورة العرابيـة في الفـترة مـن ١٨٧٧-١٨٨٢، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، كليـة الإعـلام، جامعـة القاهـرة، ٢٠٠٣.

***

الفصل الثاني

جدل التطبيع في الصحافة المصرية

دراسة حالة على صحيفة الأهرام

سبتمبر ١٩٩٣- فبراير ٢٠٠١

أولًا: المقدمة والإطار المنهجي:

تتناول هذه الدراسة الجدل حول التطبيع في الصحافة المصرية منذ توقيع اتفاقية أوسلو في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ وحتى المرحلة الأخيرة من الانتخابات الإسرائيلية والتي انتهت بالإعلان عن فوز إرييل شارون في فبراير ٢٠٠١، أي أن فترة الدراسة تصل إلى ست سنوات ونصف تقريبًا، تمثل أهم مراحل التسوية السلمية والمفاوضات مع إسرائيل، حيث شهدت ظهور أول كيان سياسي فلسطيني مستقل على الأراضي الفلسطينية المحررة في غزة وأريحا، كما جرى التوقيع على معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في أكتوبر ١٩٩٤، كذلك ظهرت أفكار ومشروعات عديدة للتعاون الإقليمي، ونجحت إسرائيل في إقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع عدة دول عربية في المشرق والمغرب، وشهدت فترة الدراسة أيضًا الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان، ثم انفجار انتفاضة الأقصى.

ولعل مجمل هذه التطورات قد جعل من التطبيع مع إسرائيل قضية عربية أكثر منها قضية مصرية- إسرائيلية، فالثابت تاريخيًا أن مفهوم التطبيع والعمليات المرتبطة به قد ارتبطت بمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وفي هذا السياق التاريخي طرح ملف التطبيع كأحد ملامح العلاقات السلمية بين مصر وإسرائيل، ولم يتعداه إلى النطاق العربي إلا بعد مؤتمر مدريد ١٩٩١، حيث أصبح الملف مطروحًا على كل الأطراف العربية، بل وشرطًا من شروط التسوية والأمن لإسرائيل.

وتهدف الدراسة إلى الوقوف على:

١- مدى اهتمام الصحافة المصرية بمناقشة قضية التطبيع والموضوعات المرتبطة كالتعاون الإقليمي والشرق أوسطية.

٢- نوعية الجدل الدائر في الصحافة المصرية بين المؤيدين والمعارضين والحجج والبراهين التي استخدمها كل فريق.

٣- العلاقة بين مدى الاهتمام بقضايا التطبيع والسياسة الرسمية المصرية.

١- إشكالية المقصود بالتطبيع:

رغم الاستخدام الواسع لكلمة التطبيع، إلا أنه لا يوجد اتفاق حول معناها وحدودها، ولعل ما تحمله أو ما حملت به الكلمة من معاني ورموز أيديولوجية، قد ضاعف من مشكلات الاتفاق حول معنى ودلالة التطبيع، كذلك فإن ظهور مستجدات وأوضاع سياسية في العلاقات بين العرب وإسرائيل، خاصة بعد قيام سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، قد جعل هناك ضرورة لمراجعة ما بدا أنه كان متفقًا عليه بشأن التطبيع، فالاتصال اليومي وأحيانًا التعاون بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، بل بين الإسرائيليين والفلسطينيين دفع بحكومات ومواطنين عرب في دول الطوق وخارجها إلى السؤال عن معنى وجدوى رفض التطبيع، أو التمسك بحالة المقاطعة أو الحصار الشامل لإسرائيل.

لقد كان من المتفق عليه تقريبًا بين الدول والشعوب العربية حتى قبل توقف إطلاق النار في حرب أكتوبر ١٩٧٣، أن مقاطعة الحكومة الإسرائيلية وكل القوى والفاعليات السياسية بداخل إسرائيل، هو أمر ضروري لاستكمال المواجهة العربية لإسرائيل، وبغض النظر عن المحاولات المتعثرة للاتصال ببعض القوى في إسرائيل، وعبر قنوات سرية، فإن المقاطعة كانت هي الموقف المعلن والمتفق عليه تقريبًا بين الحكومات والشعوب العربية، لكن مع مفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل طرحت إسرائيل ولأول مرة كلمة التطبيع على أساس أن تكون مقابل للمقاطعة، وعلى أن تشمل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة، والدخول في علاقات تعاون اقتصادي ومشروعات مشتركة، بما يعني القبول والتسليم بوجود إسرائيل بإطارها الأيديولوجي وبمفاهيمها للأمن والسلام القائم على التفوق.

في هذا الإطار يمكن القول إن الطابع السياسي والأيديولوجي لكلمة التطبيع والعمليات المرتبطة به، يرجع إلى أن نشأته واستخدامه ارتبطت بالفكر الصهيوني، وبمشروعات إسرائيل في المنطقة، من هنا ارتبطت الكلمة بدلالات سلبية، وكانت محل رفض من كل الأطراف العربية، حتى أننا من النادر أن نجد كاتبًا أو سياسيًا يؤيد أو يعلن

صراحــة موافقتــه أو رغبتــه في التطبيــع، بمــا في ذلــك بعــض المثقفــين العــرب ورجــال الأعــمال والسياسـيين، الذيـن وقعـوا عـلى بيـان كوبنهاجـن أو أسسـوا جمعيـة القاهـرة للسـلام، وقامـوا خـلال ذلـك باتصـالات واسـعة ومكثفـة مـع إسرائيليـين، سـواء كانـوا مسـئولين في الحكـم أو غـير مسـئولين، لقـد ربـط هـؤلاء أنفسـهم وأنشـطتهم بكلمـة السـلام، واتهمـوا خصومهـم بأنهـم أعـداء للسـلام، بينـما رفـض خصومهـم هـذا الاتهـام ونظـروا إليهـم عـلى أسـاس أنهـم مـن أنصـار التطبيـع والـشرق أوسـطية.

مثـل هـذا الخلـط والتشـويش، بالإضافـة إلى التوظيـف السـياسي والدعـائي لكلمـة التطبيـع، دفعـت الباحـث إلى اقـتراح صياغـة تعريـف إجـرائي للتطبيـع، حتـى يمكـن الاعتـماد عليـه في إجـراء عمليـة رصـد وتحليـل الجـدل والنقـاش حـول التطبيـع في الصحافـة المصريـة.

لكـن قبـل تقديـم هـذا التعريـف الإجـرائي، لعلـه مـن المفيـد الإشـارة إلى أن لفـظ التطبيـع ذاتـه Normalization ينسـبه بعـض الباحثـين الإسرائيليـين إلى (ابـا ايبـان) الـذي اسـتخدمه لأول مـرة في خطـاب لـه في الأمـم المتحـدة عـام ١٩٨٦ (١)، ويوضـح معجـم أكسـفورد أن اللفـظ مشـتق مـن صفـة هــي Normal بمعنـى العـادي أو المعتـاد أو المتعـارف عليـه (٢)، بينـما لا يظهـر لفـظ التطبيـع في المعاجـم العربيـة، ففـي مختـار الصحـاح «الطبـع» هـو السـجية التـي جَبُـلَ عليهـا الإنسـان، وفي المعجـم الوسـيط تطبـع كـذا أي تخلـق بـه، و(طبعـه كـذا)، أي عـوده إيـاه، وكل هـذه المعـاني تختلـف عـن دلالات الاستخدام الحـالي للفـظ «التطبيـع» الـذي لم يظهـر وينتـشر اسـتخدامه في اللغـة العربيـة إلا أثنـاء المفاوضـات المصريـة الإسرائيليـة التـي أدت إلى توقيـع كامـب ديفيـد.

ومــن الواضــح أن دلالــة لفــظ التطبيــع قــد انتقلــت مــن اللغــة الإنجليزيــة إلى العربيــة، واســتخدم اللفــظ للدلالــة عــلى جعــل الــشيء عاديًــا أو معتــادًا في العلاقــة بــين شــخصين أو

١- محسـن عـوض، الاسـتراتيجية الإسرائيليـة لتطبيـع العلاقـات مـع البـلاد العربيـة، بـيروت، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة ١٩٨٨، ص ١٢.

٢- إسماعيل صبري عبد الله، التطبيع، صحيفة الأهالي القاهرية في ١٩٩٤/١٠/٢٦.

بلديـن، وبمـا أن الـدول العربيـة كانـت في حالـة حـرب، ولم يكـن بينهـا وبـين إسرائيـل علاقـات مـن أي نـوع، فـإن التطبيـع في سـياق عمليـة التسـوية يهـدف إلى إنشـاء علاقـات لم تكـن قائمـة أصـلًا، وهـو مـا يختلـف في المعنـى والدلالـة عـن التطبيـع، الـذي يقصـد بـه إعـادة الـشيء إلى أصلـه وجعلـه عاديًـا أو معتـادًا، مـن هنـا تتضـح عـدم دقـة اللفـظ، وكيـف جـرى اسـتخدامه بطريقـة مغرضـة ومضللـة، تسـتهدف الإيحـاء بمعنـى اسـتعادة علاقـات لم تكـن موجـودة أصـلًا.(٣)

في ضـوء مـا سـبق يمكـن القـول بـأن التطبيـع يشـمل كل اتصـال رسـمي أو غـير رسـمي أو تبـادل تجـاري أو ثقـافي أو تعـاون اقتصـادي مـع إسرائيليـين رسـميين أو غـير رسـميين، ويسـتثنى مـن ذلـك العـرب الذيـن يحملـون الجنسـية الإسرائيليـة، ومـا تقـوم بـه السـلطة الفلسـطينية والفلسـطينيون في الضفـة والقطـاع مـن اتصـالات أو أي أنشـطة أخـرى، نظـرًا للظـروف الصعبـة المفروضـة عليهـم.

إن هـذا التعريـف الإجـرائي لا يعنـي الانتصـار لوجهـة نظـر أو موقـف معـارضي أو رافـضي التطبيـع، أو التعاطـف معهـم، لأننـي قـد راعيـت اعتباريـن أساسـيين:

الأول: التطـور التاريخـي لمسـألة مقاطعـة العـرب لإسرائيـل، وبـروز أصـوات ترفـض هـذه المقاطعـة تحـت دعـوى السـلام، بينـما مـن الصعـب قبـول ذلـك، ووصـف المعارضـين لإنهـاء المقاطعـة بأنهـم أعـداء سـلام، خاصـة وأنهـم يؤكـدون التزامهـم بالسـلام العـادل القائـم عـلى اسـتعادة الحقـوق الفلسـطينية والعربيـة، والـذي يسـتند إلى كل قـرارات الشرعيـة الدوليـة.

الثـاني: أن جوهـر الموقـف الجديـد لمـن يعتـبرون أنفسـهم أنصـار سـلام هـو رفـض المقاطعـة العربيـة أو اسـتخدام نـوع مـن المقاطعـة الانتقائيـة والدخـول في شـبكة مـن الاتصـالات والعمـل المشـترك مـع قـوى داخـل إسرائيـل ترغـب- كـما يعتقـدون في السـلام. (٤) وبالتـالى

٣- محمد شومان، مقاومة التطبيع الثقافي المخاطر والمهام، مجلة مستقبل العالم الإسلامي، العدد ١٤، ١٩٩٥، ص ١٢٩.
٤- محمد سيد أحمد، حول مقاطعة إسرائيل، هل هي غاية.. أم وسيلة، ١٩٩٨/٩/٢٦.

فـإن وصـف هـؤلاء بأنهـم مـن مؤيـدي التطبيـع، أخـف وطـأة مـن وصـف خصومهـم بأنهـم أعـداء سـلام، وذلـك عـلى الرغـم مـن بعـض الـدلالات السـلبية التـي ارتبطـت بكلمـة التطبيـع والعمليـات المرتبطـة بهـا، لا سـيما وأن مؤيـدي التطبيـع لا يرفضـون فكـرة الاتصـال بإسرائيـل ورفـض المقاطعـة الشـاملة والمسـتمرة لإسرائيـل، وبالتـالي فـإن القـول بـأن هنـاك مؤيـدون للتطبيـع هـو وصـف أقـرب إلى الواقـع الفعـلي.

٢-عينة الدراسة:

ولتحقيـق أهـداف الدراسـة كان مـن الـضروري تحديـد عينـة ملائمـة مـن الصحـف والمـادة الصحفية، عـلاوة عـلى الفـترة الزمنيـة. في هـذا الإطـار كان مـن الصعـب رصـد وتحليـل كل مـا نـشر في الصحافـة المصريـة حـول قضايـا التطبيـع، حيـث إن الفـترة التـي وقـع عليهـا الاختيـار تصـل إلى سـت سـنوات ونصـف تقريبًـا، في الوقـت نفسـه فـإن خريطـة الصحافـة المصريـة، مـن الاتسـاع والتنـوع خـلال هـذه الفـترة، بحيـث أنهـا تشـمل عـشرات مـن الصحـف والمجـلات القوميـة (الحكوميـة) والحزبيـة والمسـتقلة، وبالتـالي تحتـاج إلى جهـود فـرق بحثيـة لرصـد وتحليـل مـا كتـب حـول التطبيـع، مـن هنـا وقـع الاختيـار عـلى صحيفـة الأهـرام كنمـوذج للصحافـة المصريـة، لمـا تتمتـع بـه صحيفـة الأهـرام مـن ثقـل وتأثـير في الـرأي العـام المـصري والعـربي، ونظـرًا لهامـش الحريـة التـي تتمتـع بـه كتابـات الـرأي فيهـا حـول قضايـا التطبيـع، عـلاوة عـلى اقترابهـا مـن دوائـر صنـع وتنفيـذ السياسـة الرسـمية.

وأعتقـد أن وضعيـة ومكانـة صحيفـة الأهـرام في الصحافـة المصريـة والعربيـة، والتقاليـد المهنيـة والفكريـة السـائدة فيهـا قـد سـاعدت عـلى تقديـم خطـاب مفتـوح بشـأن قضايـا التطبيـع، أي خطـاب يسـمح -إلى حـد كبـير- بالـرأي والـرأي الأخـر، وبالتعدديـة مقارنـة بالخطابـات المغلقـة التـي سـادت الصحـف الحزبيـة ومعظـم الصحـف المسـتقلة، والتـي تعتمـد أساسًـا عـلى رفـض وإدانـة كل أشـكال ورمـوز التطبيـع، وكل الممارسـات المرتبطـة بـه، وبالتـالي فـإن هـذه الخطابـات لا تسـمح عـادة بظهـور أي آراء مؤيـدة أو متعاطفـة مـع التطبيـع.

هكـذا وقـع الاختيـار عـلى صحيفـة الأهـرام وكـما وقـع الاختيـار أيضًـا عـلى مـواد الـرأي بأنواعهـا في صحيفـة الأهـرام والتـي تشـمل المقـال بأنواعـه والأعمـدة الصحفيـة اليوميـة والأسـبوعية ومشـاركات القـراء، وذلـك نظـرًا لمـا تتمتـع بـه مقـالات الـرأي بأنواعهـا مـن قـدرة كبـيرة عـلى:

١- تمثيـل وتجسـيد نوعيـة الجـدل الفكـري والسـياسي حـول التطبيـع، ومـا يرتبـط بـه مـن قضايـا وإشـكاليات كالتعـاون الإقليمـي أو الـشرق أوسـطية.

٢- توضيـح البراهـين والحجـج التـي يسـوقها كل صاحـب رأي في معـرض إثبـات صحـة أطروحاتـه ومواقفـه، ومثـل هـذه المميـزات لا تتوفـر غالبًـا في الأخبـار والتقاريـر الإخباريـة، بـل قـد لا تتوافـر أيضًـا في الأحاديـث والتحقيقـات الصحفيـة رغـم مـا يطـرح فيهـا مـن آراء وأفـكار، لكـن الإشـكالية هـي أن الآراء والأفـكار التـي تطـرح ضمـن الأحاديـث والتحقيقـات تكـون موجهـة مـن المحـرر أو مؤطـرة بحـدود الأسـئلة المطروحـة مـن الجريـدة أو المحـرر.

وبالنسـبة للعينـة الزمنيـة فقـد وقـع الاختيـار عـلى عينـة عمديـة مـن الأحـداث المرتبطـة بأبـرز وأهـم محطـات مسـار المفاوضـات العربيـة الإسرائيليـة مـن ناحيـة، ومسـار العلاقـات المصريـة الإسرائيليـة مـن ناحيـة ثانيـة، وقـد بلـغ مجمـوع هـذه الأحـداث (١٣) حدثًـا تغطـي الفـترة مـن توقيـع اتفـاق أوسـلو وحتـى نهايـة الانتخابـات الإسرائيليـة في فبرايـر ٢٠٠١، وتتمثـل هـذه الأحـداث في:

١- توقيع اتفاق أوسلو في ١٩٩٣/٩/١٣.

٢- مذبحة الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل في ١٩٩٤/٢/٢٥.

٣- اتفـاق القاهـرة في ٤ مايـو ١٩٩٤، والخـاص بتنفيـذ اتفـاق أوسـلو، ويضـم اتفـاق ٤ مايـو نصـوص الاتفـاق و(٣) ملاحـق و(٥) خرائط.

٤- اتفاق السلام الأردني – الإسرائيلي- في ١٩٩٤/١٠/١٧.

٥- المؤتمر الاقتصادي في الدار البيضاء ١٩٩٤/١٠/٣٠.

٦- اتفاق طابا في نوفمبر ١٩٩٥.

٧- اغتيال رابين في ١٩٩٥/١١/٤.

٨- وصول نتنياهو إلى الحكم في يونيو ١٩٩٦.

٩- توقيع اتفاق الخليل في القاهرة في يناير ١٩٩٧.

١٠- توقيع اتفاق واي بلانتيشن أو أوسلو، في أكتوبر ١٩٩٨.

١١- وصول إيهود باراك إلى الحكم.

١٢- انتفاضة الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠.

١٣- فوز شارون برئاسة وزراء إسرائيل في فبراير ٢٠٠١.

وفي ضوء هذه الأحداث وما صاحبها من تطورات ونقاشات حول قضايا التطبيع، أجرى الباحث تحليلًا شاملًا لكل مقالات الرأي المنشورة في صحيفة الأهرام خلال شهر (٣٠ يوم) بعد كل حدث من الأحداث والتطورات السابقة، أي أن الدراسة اعتمدت على تحليل (٣٦٠) عددًا من أعداد صحيفة الأهرام تزامنت مع (١٣) حدثًا وتطورًا سياسي رسمياً أو شعبياً وقعت خلال فترة الدراسة، والتي تصل إلى ست سنوات ونصف. (٥)

٣- أداة التحليل:

تعتبر دقة وموضوعية أداة التحليل من أهم القضايا التي تشغل الباحثين في العلوم الاجتماعية عند محاولة تحليل أي نص من النصوص الفكرية أو السياسية، إذ أن تحيز

٥- حدث تداخل بطريقة غير مقصودة بين عينة الصحف التي تغطي كل من اتفاق السلام الأردني الإسرائيلي والمؤتمر الاقتصادي في الدار البيضاء، حيث كان الحدثان في أكتوبر ١٩٩٤.

أداة التحليل وعدم دقتها قد يقود إلى نتائج مغلوطة أو إلى إنتاج نوع من التحليل الغرضي الذي يحقق أهداف وأغراض الباحث، لكنه يبتعد تمامًا عن الأفكار والقيم التي يحملها النص نفسه. ولا شك أن مقالات الرأي في أي صحيفة تندرج في إطار النصوص التي تتطلب استخدام أداة بحثية موضوعية في التعرف على أهداف كل مقال وأفكاره الأساسية والبراهين والأدلة التي يستخدمها الكاتب لإقناع القارئ بما يطرحه، في الوقت نفسه فإن دقة وموضوعية هذه الأداة يجب ألا يحول دون حق القارئ أو الباحث في قراءة وتفسير ما قد يخفيه الكاتب أو يشير إليه بأسلوب غير مباشر.

في ضوء ذلك استبعد الباحث استخدام تحليل المضمون الكمي، ووقع الاختيار على أداة مسار البرهنة، التي تعتبر أحد أهم أدوات تحليل الخطاب، واستخدمت الدراسة مفهومًا للخطاب يعتمد على اجتهاد كل من (Ricceur, Benevenist) ،حيث يتجلى الخطاب كرسالة من مرسل إلى متلقٍ بغرض التأثير في الأخير، أي أنه خطاب غرضي يتم إنتاجه، وكذلك قراءته، في ظروف مادية ومعنوية محددة، مما يشير إلى أهمية دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المحيطة بالخطاب بوصفه حدثًا تاريخيًا.

ويميز (Benevenist) بين مستويين لإنتاج المنطوق التاريخي - الخطابي، فالأول سرد لأحداث الماضي دون تدخل من المتكلم، وكأن أحدًا لا يتكلم أو أن الأحداث تقص نفسها، أما الخطاب فهو يشمل كل ذلك إذ يوجد شخص يوجه الكلام إلى آخر أو يعلن عن نفسه كمتكلم، وينظم ما يقوله داخل إطار أو مقولة.(٦)

كذلك يميز (Ricceur) بين هدف الكاتب وهدف النص، إذ إنهما غير متطابقين في الخطاب، وهذا الانفصال بين المعنى اللغوي للنص وبين الهدف العقلي، هو مصدر الثراء الحقيقي لتسجيل الخطاب، لكن هذا لا يعني أنه يمكن إدراك نص دون كاتب، فالصلة بين المتحدث والخطاب لا تنهدم ولكنها تصبح معقدة وممتدة، ولكن مجال النص ينفصل عن

٦ -D. Maingueneau. Initiation aux Methodes de l`Analyse du Discours Paris: Hachette, ١٩٧٦) p. ١٠٤.

أفق الكاتب، وما يقوله النص هو أهم بكثير مما أراد الكاتب أن يقوله، وكل تفسير يجد أساليبه وطرقه من داخل محيط المعنى الذي انفصل عن نفسية الكاتب(٧)، ويعرض محمد عابد الجابري للعلاقة بين الخطاب وكل من الكاتب والقارئ، انطلاقًا من أن الحديث عن الفكر العربي أو أي فكر معين هو مجموعة من النصوص، والنص رسالة من الكاتب إلى القارئ، وهو خطاب، فالاتصال بين الكاتب والقارئ يتم عبر النص، تمامًا مثلما أن الاتصال بين المتكلم والسامع يتم عبر الكلام.. فالكاتب يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة في موضوع معين وهذا خطاب، والقارئ يتلقى هذه الفكرة أو وجهة النظر كما يستخلصها هو من النص وبالطريقة التي يختارها، وهذا تأويل للخطاب أو قراءة له، هناك إذن جانبان يكونان الخطاب، ما يقوله الكاتب وما يقرؤه القارئ.(٨)

أما مسار البرهنة فهي فعل معقد غائي، تتوافق غايته مع انضمام المستمع إلى أطروحة يعرضها المتكلم (أو القارئ) وتتيح تسلسلًا مبنيًا من البراهين المختلفة، والتي تربطها استراتيجية شاملة، وعادة ما توجد البراهين في صورة تراتبية، أي أن برهانًا معينًا يساهم في إرساء برهان أخر على مستوى أعلى، وفضلًا عن ذلك فإن العلاقات بين الجمل المختلفة تخضع لعدد متناهٍ من الميكانيزمات، سواء تعلق الأمر بالنظم الشكلية (أي المسلمات وقواعد الاستنتاج) أو بالروابط الأقل صرامة، كما هو الحال في غالبية عمليات البرهنة.

ولا يجب الوقوع في فخ رد اللغة إلى جوهر لغوي- منطقي بسيط - إذ إن اللغة لها وظيفة برهانية ووظيفة منطقية، وينبغي مراعاة الوظيفتين معًا، لأن المتكلم في سبيل بناء عملية البرهنة ينطلق من أسس وأرضية اتفاق، يفترض أنها مشتركة مع المستمعين، مثل الوقائع والحقائق والافتراضات الحدسية والقيم وتراتيب القيم والأماكن أو المواقع. (٩)

V -Raul Riccur, Du Texte a l`action , Essais D `hermeneutique ١٢, -(Paris: Editions du Seuil, ١٩٨٣) p. ١٨٧.

٨- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، بيروت، التاريخ ص ص ٨ - ١٠.

٩- D. Maingueneau. Op. cit. PP. ١٦٣ -١٦٨.

إن مسـار البرهنـة يحافـظ عـلى بنيـة النـص ويسـمح بتحليـل الأيديولوجيـة، مـن خـلال التسلسـل الخطـابي وتسلسـل البرهنـة ونوعيـة المنطـق والحجـج التـي يعطيهـا المتكلـم لإثبـات هـذا العنـصر أو ذاك.(١٠) وقـد وقـع الاختيـار عـلى مسـار البرهنـة مـع محاولـة تطويـره مـن خـلال الممارسـة وإكسـابه مـؤشرات كميـة في التحليـل، ولا سـيما أن المناهـج والمقارنـات أو الأدوات المنهجيـة التـي تنتمـي إلى العلـوم «اللسـانية»، أكثر قابليـة للتطويـر والاسـتجابة لمتطلبـات وأهـداف البحـث، شرط تحديـد المفاهيـم وإجـراءات العمـل والالتـزام بهـا، وفيـما يـلي عـرض لأهـم المفاهيـم والإجـراءات التـي اسـتخدمت في عمليـة التحليـل اعتـماداً عـلى مسـار البرهنـة:-

(أ) الأطروحة:(١١)

يعتمـد أي نـص عـلى مجموعـة مـن الأطروحـات والبراهـين التـي تترابـط وتسـعى إلى تحقيـق هـدف أو أهـداف معلنـة أو مضمـرة، وعـادة مـا تـدور الأطروحـة، أو تجسـد فكـرة مـا، ترتبـط بسـياق وأهـداف النـص أو تخـرج عنـه، أي أنـه يُشـتَرَط لاعتبارهـا أطروحـة أن يكـون لهـا دور في بنـاء المنطـق الداخـلي للنـص، وأن تكـون متناميـة باتجـاه تحقيـق أهدافـه، بغـض النظـر عـن أن تـرد في جملـة أو فقـرة، أو تصاحبهـا برهـان أو براهـين، إذ قـد تنهـض أطروحـة بذاتهـا بـدون براهـين.(١٢)

١٠- مارلـين نـصر، التصـور القومـي العـربي في فكـر جـمال عبـد النـاصر ٥٢ – ١٩٧٠، دراسـة في علـم المفـردات والدلالـة، القاهـرة، دار المسـتقبل العـربي، ١٩٨٣ ص ٣٨.

١١- طـرح، يطـرح، طرحًـا: ألقـاه، رمـاه، طـرح القضيـة للبحـث وللمناقشـة، والأطروحـة جمـع أطروحـات، وهـي رسـالة علميـة يكتبهـا الطالـب للحصـول عـلى الماجسـتير أو الدكتـوراه، لمزيـد مـن التفاصيـل انظـر: المعجـم العـربي الأسـاسي، المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلـوم، ١٩٨٩، ص ٧٨٩.

١٢- اعتمـدت مارلـين نـصر في دراسـتها عـن التصـور القومـي العـربي في فكـر جـمال عبـد النـاصر عـلى أن لـكل أطروحـة مجموعـة مـن الحجـج، والبراهـين التـي تدلـل عليـه وتثبتهـا أو تنفيهـا، إلا أنهـا لم تسـتخدم الأطروحـات والحجـج مـما قلـل مـن نتائـج دراسـتها، حيـث أن الحجـة تُفصّـل وتوضـح الأطروحـة فقـط، كذلـك فقـد كانـت تسـتخلص طبيعـة كل حجـة ولا تهتـم بمضمـون أو سـياق الأطروحـات.

(ب) البرهان:(١٣)

يتركـز دور ومـكان البرهـان أو البراهـين في التدليـل أو مُنْطَقَـة الأطروحـة- إذا جـاز التعبـير- وإثبـات صلاحيتهـا، ولايُشـترط دائمًـا أن تصاحـب كل أطروحـة براهـين أو برهـان مـا.

(جـ) طريقة التحليل:

- قـراءة النـص الـذي يدخـل في عينـة التحليـل ثـم اسـتخراج الأطروحـات الـواردة ثـم تحديـد البرهـان أو البراهـين التـي تصاحـب كل أطروحـة.
- يراعـى في عمليـة اسـتخراج الأطروحـات والبراهـين مراعـاة أقـل قـدر مـن التدخـل سـواء بالاختصـار أو الحـذف، أي أن الأطروحـة تسـتخرج تقريبًـا مـن النـص بصياغـة منتجهـا الأصـلي، ورغـم صعوبـة هـذه العمليـة إلا أنهـا تضمـن - إلى حـد كبـير - موضوعيـة تحليـل مسـار البرهنـة.

ثانيًا: نتائج الدراسة:

بلغـت عينـة الدراسـة ٣٦٠ عـددًا مـن أعـداد صحيفـة الأهـرام بنسـبة ١٥,٤٪ مـن فـترة الدراسـة والتـي تصـل إلى سـت سـنوات ونصـف، حيـث تبـدأ مـن ١٣ سـبتمبر ١٩٩٣ إلى ٧ مـارس٢٠٠١ (١٤)، وقـد تـم رصـد ٥١١ مـادة صحفيـة مـن مقـالات الـرأي المنشـورة في صحيفـة الأهـرام، تناولـت القضايـا المختلفـة للتطبيـع.

ومـن خـلال رصـد، وتحليـل هـذه المـواد الصحفيـة اعتـمادًا عـلى مسـار البرهنـة، يمكـن عـرض أهـم النتائـج التاليـة:

١٣- برهــن، يبرهــن، برهنــة،: الــشيء وعليــه أقــام الدليــل، وبرهــان جمــع براهــين، وهــو الحجــة البينــة الفاصلــة، وفي الفلسـفة القيـاس المؤلـف في مقدمـات يقينيـة، وفي الرياضيـات مـا يثبـت قضيـة مـن مقدمـات مسـلم بهـا، لمزيـد مـن التفاصيـل، انظـر، المعجـم الأسـاسي، مرجـع سـابق، ص ١٥١.

١٤- ٣٠ يومًا بعد فوز شارون برئاسة وزراء إسرائيل.

١- اتجهت معظم المقالات التي خضعت للتحليل لرفض أو معارضة التطبيع، حيث ذهبت ٨١,٥٪ من هذه المقالات إلى رفض أو معارضة التطبيع مقابل ٧,٢٪ أبدت قدرًا من القبول والتأييد للتطبيع، بينما لم تظهر في ١١,٣٪ من المقالات مواقف واضحة مع أو ضد التطبيع، حيث ركزت أطروحات أصحاب هذه المقالات على تحليل تاريخي مجرد للصراع العربي الصهيوني أو استعراض لمواقف الأطراف المختلفة، ولمفاهيم التطبيع والشرق أوسطية دون تحديد مواقف معينة.

٢- تعكس النسب السابقة حالة من الاستقطاب الشديد بين المعارضين والمؤيدين للتطبيع، مع ملاحظة أن الغلبة والسيطرة كانت للمعارضين والرافضين للتطبيع، على أن هذا الاستقطاب لا يقتصر فقط على المؤشرات الكمية ممثلة في عدد المقالات المؤيدة والمعارضة، بل يتجاوز ذلك إلى نوعية الأطروحات والبراهين والحجج التي استخدمها كل فريق، والتي تحمل تناقضًا وتضادًا على مستوى الفرضيات والمنطلقات الأساسية.

٣- يوضح تحليل عينة الدراسة أن الاستقطاب بين المؤيدين للتطبيع وخصومهم قد تركز حول مفهوم التطبيع، والشرق أوسطية، والتعاون الإقليمي، والعمليات والجهود المرتبطة بكل من هذه المفاهيم، ورغم كثرة وتنوع الأطروحات والبراهين المستخدمة إلا أنها لم تبلور اتفاقًا حول المقصود بكل مفهوم، فقد سعى المعارضون والرافضون للتطبيع إلى الربط والدمج بين التطبيع والشرق أوسطية ومشروعات التعاون الإقليمي، واعتبروها مسميات مختلفة لمشروع واحد، يسعى إلى إدماج إسرائيل في المنطقة، والضغط على العرب لقبولها سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، والتسليم بهيمنتها على المنطقة، وعلى ذلك فقد اعتبر المعارضون والرافضون للتطبيع المشاركة في هذه العمليات هو نوع من التفريط في الحقوق العربية، والاستسلام للمخططات الأمريكية، وفي هذا السياق وصفوا التطبيع بأنه بمثابة

تطويـع لإرادة الأمـة العربيـة للمـشروع الصهيـوني وأهدافـه، وركـزوا عـلى المخاطـر الثقافيـة المرتبطـة بالتطبيـع، حيـث أشـاروا إلى محاولـة تأسـيس ثقافـة إسرائيليـة عـلى حسـاب الثقافـة العربيـة الإسـلامية، فضـلًا عـن تشـويه وتزييـف التاريـخ العـربي للقبـول بالأخـر الإسرائيـلي المعتـدي الـذي احتـل أرض فلسـطين.(١٥)

٤- عـلى الجانـب الآخـر حـرص مؤيـدو التطبيـع عـلى عـدم اسـتخدام كلمـة التطبيـع أو الدعـوة إليهـا صراحـة، وأكـدوا تمسـكهم بالسـلام، وبـضرورة إنهـاء الـصراع، ببرهـان أنـه لا يوجـد صراع أبـدي، وأن كل صراع يعقبـه تاريخيًـا تسـوية مـا، ولعـل تجنـب اسـتخدام كلمـة التطبيـع هـو بمثابـة اعـتراف بالـدلالات والمعـاني السـلبية مـن قبـل مؤيـدي التطبيـع، الذيـن تحدثـوا دون حـرج عـن أهميـة التعـاون الـشرق أوسـطي وإمكانيـة تعايـش النظامـين الإقليمـي العـربي، والـشرق أوسـطي.

لقـد أشـار مؤيـدو التطبيـع إلى أن المقاطعـة العربيـة لإسرائيـل تعنـي رفـض الآخـر والخـوف منـه، والدعـوة إلى الانعـزال والانغـلاق في عـصر لم يعـد هنـاك مجـال أو مـكان للعزلـة أو الانغلاق، وشـدد مؤيدو التطبيـع عـلى أن الخـوف مـن الغـزو الثقـافي الإسرائيـلي أو الغـربي هـو بمثابـة عقـدة نقـص، فالـشرق الأوسـط يضـم خليطًـا مـن الثقافـات والحضـارات واللغـات والأقـوام مـما دفـع إلى التعايـش والتفاعـل بينهـا، وذاكـرة شـعوب المنطقـة ليسـت قـصرًا عـلى الـصراع والعـداء ببرهـان أن تاريخهـا يشـهد فـترات تعايـش وتعـارف، وبالتـالي ضرورة إحيـاء تقاليـد التعايـش وثقافـة السـلام بـين شـعوب المنطقة، بمـا في ذلك بطبيعـة الحـال- وعـلى مسـتوى الخطـاب المضمـر- إسرائيل، واسـتخدام أنصـار التطبيـع مقولـة أن الثقافة العربيـة الإسـلامية هـي مـن الأصالـة والشـموخ، بحيـث أنـه مـن غـير المنطقـي التسـليم بـأن ثقافة السـلام

١٥- انظر:

- صلاح الدين حافظ، الشرق أوسطية من التطبيع إلي الاندماج، ١٩٩٤/١٠/٢٦.
- سيد يسين، الشرق الأوسط القديم، ١٩٩٦/٥/٢.
- صلاح الدين حافظ، يعيد تثقيف العرب، ١٩٩٧/٣/١٢.
- عبد العليم محمد، ليكود والعمل، مصدر سابق.

أو الثقافة الإسرائيلية ستهدد الثقافة العربية أو تقوم بعملية غزو لدعائمها القوية، وقد استخدم أنصار التطبيع هذه المقولة كثيرًا وقدموها كبرهان ودليل على ضعف أطروحات معارضي ورافضي التطبيع. (١٦)

١- إن أسس ومنطلقات أطروحات وبراهين المؤيدين للتطبيع تسلم بداية بانكسار المشروعين الصهيوني والعربي، وإمكانية تعايش الطرفين، وأن هناك قوى مؤثرة داخل إسرائيل ترغب حقيقة في السلام، كما أن حالة السلام وثقافة السلام هي الأصل في العلاقات بين الشعوب بل وأصل الوجود البشري، فضلًا عن أن حالة الحرب لا تتفق ومصالح شعوب المنطقة وما تفرضه الأوضاع الدولية الجديدة، وبالتالي ضرورة أن يبادر المثقفون وقوى المجتمع المدني على الجانبين الإسرائيلي والعربي بدعم فرص السلام والعمل معًا من أجل تفعيل أطر التعاون الاقتصادي بين الطرفين، على أساس أن المشروعات المشتركة وتبادل المصالح يعظم من فرص التنمية في المنطقة من جهة، وتكون بمثابة قاطرة لعملية السلام من جهة ثانية، وتشكل قيدًا على لجوء أحد الأطراف إلى استخدام القوة أو اللجوء إلى الحرب من جهة ثالثة. (١٧)

١٦- انظر:

- عبد الرؤوف الريدي، عائد من القدس، ١٩٩٦/١٠/١.
- صلاح العقاد، ١٩٩٣/١١/٢٩.
- جمال عبد الجواد، الصراع في ظل السلام، ١٩٩٦/١٢/٩.

١٧- انظر:

- مقالات لطفي الخولي في الأهرام والتي ضمها في كتاب، عرب؟ نعم وشرق أوسطيون أيضًا، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٤.
- محمد سيد أحمد، التناقضات حدة لدى العرب أم لدى إسرائيل، الأهرام في ١٩٩٥/١١/١٦.
- عبد المنعم سعيد، أولوية التطبيع العربي مع فلسطين، ١٩٩٦/١٠/٢.

٢- في المقابل انطلق معارضو ورافضو التطبيع من فرضيات ومنطلقات أساسية تدور حول الحق التاريخي للعرب والمسلمين في فلسطين، وبالتالي فإن قواعد العدل والمنطق لا تسمح بمكافأة المعتدي الصهيوني، والإقرار بجريمته في احتلال فلسطين وطرد سكانها الأصليين، وممارسة أبشع أنواع العنصرية والاضطهاد لعرب فلسطين الذين عاشوا داخل إسرائيل.

وتشدد أطروحات معارضي ورافضي التطبيع على أن التسوية الحالية لا تضمن حقوق الشعب الفلسطيني وبقية الشعوب العربية، كما لا تضمن إنهاء أو السيطرة على الطبيعة العدوانية والرغبة في السيطرة والتوسع التي تحدد السلوك الإسرائيلي منذ تأسيس المشروع الصهيوني، خاصة في ظل التفوق العسكري والنووي والتكنولوجي والاقتصادي لإسرائيل، علاوة على الدعم الأمريكي والغربي غير المحدود. (١٨)

٣- يكشف تحليل مسار البرهنة لأطروحات معارضي ورافضي التطبيع عن وجود قدر من الخلافات في بعض منطلقاتهم وأفكارهم، وذلك رغم اتفاق وتداخل مواقفهما المعلنة، من هنا حرص الباحث على استخدام تعبيرين هما معارضو ورافضو التطبيع، وذلك للتمييز بينهما، مع الإقرار بأن نسبة مساهمة الرافضين في الجدل والنقاش حول التطبيع تفوق بكثير المعارضين، كما أن مواقفهم الإجمالية أكثر استقرارًا ووضوحًا من المعارضين.

أولًا: الرافضون للتطبيع:

إن الفرضيات والأسس التي ينطلق منها الرافضون تدور بشكل غير معلن حول

١٨- انظر:

- فهمي هويدي، تحذير من القدس لمن يهمه الأمر، ٢٠٠٠/١٠/٣.
- فهمي هويدي، قاطعوهم ما استطعتم، ٢٠٠٠/٩/٨.
- أسامة الغزالي حرب، قبل تطبيع العلاقات، مطلوب تطبيع الدولة الإسرائيلية، ١٩٩٥/٣/٨.
- عبد العليم محمد، ليكود والعمل، تنويعات في الرؤية الإسرائيلية للشرق الأوسط، ١٩٩٦/٨/٩.

استحالة القبول أو التعايش مع إسرائيل في ظل الأوضاع القائمة، لا سيما حالة الضعف والتشتت العربي وعدم توازن ميزان القوى بين العرب وإسرائيل، وبالتالي فإن الحل يكمن في إزالة الطابع اليهودي والعنصري لإسرائيل، وإقامة دولة فلسطينية، ويبدو هذا الحل على مستوى الخطاب المضمر وكأنه تجسيد للطابع الأيديولوجي لمنطلقات وأسس الرافضين للتطبيع، من هنا يمكن أن نميز بسهولة بين المنطلقات والحلول التي تظهر في أطروحات كتاب ينتمون إلى التيار القومي، وتيار الإسلام السياسي، ولعل أبرز هؤلاء سعد الدين وهبه، وفهمي هويدي وصلاح الدين حافظ وعبد العليم محمد وضياء رشوان. (١٩)

والشاهد أن مثل هذه المنطلقات والحلول تكشف عن الطابع المغلق لخطاب الرافضين للتطبيع، والتزامه النصي بالمنطلقات الأيديولوجية، من هنا يبين التحليل أن معظم أصحاب هذا الموقف لم يهتموا بتوضيح الصيغة النهائية للصراع مع إسرائيل، ربما باستثناء أطروحات عبد العليم محمد وضياء رشوان التي دعت إلى قيام دولة علمانية في فلسطين على غرار جنوب أفريقيا، لقد ركز معظم الرافضين للتطبيع على الهجوم على مؤيدي التطبيع وأنصارهم، وتوجيه اتهامات عديدة لهم تبدأ بالتبعية للسلطة، والالتزام بنتائج مفاوضات تعكس أوضاع جائرة من الناحية التاريخية والحقوقية، وتنتهي بالخروج عن إجماع الأمة، والعمالة للغرب، بما قد يصل إلى الاتهام بالخيانة الوطنية على مستوى الخطاب المضمر.(٢٠)

خلاصة القول إن منطلقات وأطروحات الرافضين هي نوع من أنواع إعادة إنتاج

١٩- انظر:

- مصطفى محمود، المشكلة اليهودية، ١٩٩٧/٥/٢.
- سعد الدين وهبه، أعداء السلام في إسرائيل، ١٩٩٦/٨/١٧.
- سعد الدين وهبه، أهلًا وسهلًا يا سي بيبي، ١٩٩٦/٦/٨.

٢٠- انظر:

- عبد العليم محمد، لزوم ما لا يلزم، دور المثقفين، ليس مجرد تبرير السياسات، ١٩٩٧/١/١.
- محمود عبد الفضيل، حساب المثلثات الجديد في المنطقة العربية، ١٩٩٥/١/١٨.
- فهمي هويدي، المثقفون والغوغاء، ٢٠٠٠/١٠/٢٤.

الأيديولوجيـة القوميـة والإسـلامية في تجلياتهـا إزاء عمليـة السـلام وفي مواجهـة التطبيـع، ومـن ثـم فهـي أطروحـات وبراهـين مغلقـة، تقـدم وكأنهـا بديهيـات متفـق عليهـا، أو بالتعبـير الشـهير مـن ثوابـت الأمـة، ورغـم مـا قـد ينطـوي عـلى ذلـك مـن تعميـم وغمـوض أحيانًـا إلا أنهـا تبـدو أقـرب إلى حـس الشـارع العـربي ومشـاعر وتوجهـات الـرأي العـام العـربي، أي أن قوتهـا تبـدو في وضوحهـا وثباتهـا وقربهـا مـن الوجـدان العـام للشـارع العـربي ومـن أسـس الثقافـة العربيـة الإسـلامية، لذلـك توسـع الرافضـون للتطبيـع في اسـتخدام أسـس وبراهـين دينيـة وتاريخيـة وثقافيـة، فضـلًا عـن المـيراث السـلبي للعلاقـة مـع إسرائيـل، والتـي تغـذي الأخـيرة دائمًـا بالتوسـع والاسـتمرار في عدوانهـا الغاشـم عـلى الشـعب الفلسـطيني والشـعوب العربيـة.

ثانيًا: المعارضون للتطبيع:

لا يرفـض المعارضـون للتطبيـع مـن حيـث المبـدأ القبـول بإسرائيـل والتعايـش معهـا ضمـن شروط أهمهـا الاعـتراف بالدولـة الفلسـطينية، والانسـحاب مـن الأراضي العربيـة المحتلـة في الجـولان وجنـوب لبنـان، والتوقيـع عـلى معاهـدة منـع انتشـار الأسـلحة النوويـة، والتخـلي عـن محـاولات السـيطرة أو الهيمنـة العسـكرية أو الاقتصاديـة عـلى دول المنطقـة.

انطلاقًـا مـن هـذه الأسـس والمبـادئ انتظمـت أطروحـات وبراهـين المعارضـين للتطبيـع، وارتبطـت بصـورة مبـاشرة بتطـور عمليـة السـلام، ومسـار السـلام البـارد بـين مـصر وإسرائيـل، بمعنـى أنـه كلـما حـدث تطـور إيجـابي في العلاقـات الرسـمية المصريـة مـع إسرائيـل كلـما انخفضـت معارضتهـم المعلنـة للتطبيـع، والعكـس صحيـح، ومثـل هـذه العلاقـة تعكـس في الحقيقـة الطابـع البرجـماتي الـذي يظهـر في كتابـات الكثـير مـن معـارضي التطبيـع، فضـلًا عـن ارتبـاط بعضهـم الوثيـق بدوائـر صنـع القـرار في السياسـة المصريـة، ولعـل مـن أبـرز هـؤلاء المعارضـين للتطبيـع وفـق المنطلقـات السـابقة إبراهيـم نافـع وسـلامة أحمـد سـلامة، وأحمـد نافـع، ومـرسي عطـا اللـه، وأسـامة الغـزالي حـرب، وعـماد جـاد. (٢١)

٢١- انظر:

- إبراهيم نافع، المنعطف الأخير وسياسة نتنياهو الاستيطانية، ١٩٩٦/١١/٢٩.
- قدري حنفي، حسابات العنف الإسرائيلي ضد انتفاضة الاعتدال الفلسطيني، ٢٠٠١/١/١٧.

ويوضح التحليل التفصيلي لأطروحات وبراهين المعارضين للتطبيع أن ثمة تراوح يصل أحيانًا إلى حد التعارض في مواقف كل كاتب، وقد يرجع ذلك إلى نوع من الشك وعدم الثقة فيما يجري من أحداث وتطورات، وفي الوقت نفسه الأمل في إحراز سلام عادل.

لكن هذا التراوح في أطروحات وبراهين المعارضين للتطبيع لا يصل أبدًا إلى حد القبول الكامل بالتطبيع أو بصيغ التعاون الإقليمي المطروحة، إذ إن أغلب أطروحات معارضي التطبيع تعكس مخاوفًا واضحة من هيمنة إسرائيل الاقتصادية على المنطقة العربية، ومحاولتها تهميش دور مصر. في هذا السياق يمكن القول بأن معارضي التطبيع لديهم تصور للمستقبل يقوم على أساس يمثل تجربة مصر وإسرائيل في إقامة سلام بارد بين الدول العربية وإسرائيل، أي أن السلام المطروح يأخذ من الصيغة المصرية الإسرائيلية نموذجًا ومثلًا أعلى، فيستعيد العرب والفلسطينيون الأراضي المحتلة، وفق قرارات مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨، ويقبلون بإقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل دون أن يرتبط بذلك طموح أو توسع في عمليات التطبيع أو التعاون الإقليمي، وهنا نلمح عند المعارضين للتطبيع تأكيدًا على فكرة الصراع مع إسرائيل في مرحلة السلام، كما نلمح رغبة قوية في الإبقاء على النظام الإقليمي العربي، وعدم التخلي عنه لصالح قيام نظام شرق أوسطي.(٢٢)

إن مجمل منطلقات وأطروحات المعارضين للتطبيع تميل نحو نوع من الواقعية السياسية، إذا جاز القول، والبحث عن توازن في المصالح في ظل الظروف العربية والدولية الراهنة، مع عدم التسرع أو التوسع في عمليات التطبيع والتعاون الإقليمي، وكذلك عدم التفريط في حق الأجيال القادمة في إدارة الصراع مع إسرائيل على كافة المستويات.

والملاحظ أن المعارضين للتطبيع قد استخدموا براهين وحجج منطقية وسياسية

٢٢- انظر:

- أسامة الغزالي حرب، متى تستأنف عملية السلام، ١٩٩٧/٧/٢٨.
- عاطف الغمري، والسلام مع إسرائيل هو أيضًا صراع، ٢٠٠٠/١١/١.
- سلامة أحمد سلامة، ٢٠٠٠/١١/١٦.

واقتصادية تتفق تمامًا مع الأطروحات التي قدموها، وقد أجادوا في الرد على أطروحات المؤيدين للتطبيع ولكن بدون الدخول في معارك كلامية أو صدامات عنيفة مع مؤيدي التطبيع، بل ظهر لديهم ميل أكبر للحوار الهادئ مع مؤيدي التطبيع، والرد على بعض أطروحاتهم، بما في ذلك مفهوم التطبيع نفسه.

أما أطروحات وبراهين مؤيدي التطبيع فقد بدت جديدة، وتدعي العقلانية والاستجابة الواعية مع المتغيرات الدولية، والقيم الإنسانية في نبذ التعصب والعنف وتغليب العيش المشترك والتعاون بين الشعوب.

ورغم التماسك الشكلي الذي اتسمت به كتابات مؤيدي التطبيع، وقدرتهم العالية على البرهنة والتدليل، إلا أن بعض ما قدموه من أطروحات وبراهين وقع في دائرة المراوغة والتلاعب بالمشاعر، وتعمد الخلط، فضلًا عن الاستعلاء، وأحيانًا الاستهزاء بالخصوم، في هذا الإطار تبرز في أطروحات مؤيدي التطبيع رغبة ملحة في تصوير أنفسهم وكأنهم رواد لفكر جديد، يطرحون أفكارًا غير تقليدية، وبالتالي قد يتعرضون للرفض أو الاضطهاد كما حدث عبر التاريخ لكل مجتهد أو رائد من رواد الفكر الإنساني، لكنهم يؤكدون ثبات مواقفهم وتجردهم لصالح السلام، وللعمل من أجل مصالح الأجيال القادمة.

من هنا يمكن أن نرصد روح الاستعلاء التي سيطرت على الكثير من أطروحاتهم، والشعور بالتفوق والقدرة على مخالفة روح القطيع- تعبير استخدم في وصف موقف أغلبية أعضاء نقابة الصحفيين المناهض للتطبيع- وبغض النظر عن صدق مشاعر التفوق والقوة في أطروحات مؤيدي التطبيع، خاصة أطروحات لطفي الخولي وعبد المنعم سعيد وصلاح بسيوني وجمال عبد الجواد ومراد وهبه، فإنهم قد ركزوا على الطابع الشعبي غير الرسمي لكتاباتهم وتحركاتهم، سواء عند توقيع إعلان كوبنهاجن مع مجموعة مثقفين ورجال أعمال وسياسيين غير رسميين من مصر وفلسطين والأردن وإسرائيل في يناير ١٩٩٧، أو عند تأسيس جمعية القاهرة للسلام كجمعية أهلية مصرية.

واعتمدت حجج وبراهين مؤيدي التطبيع على أحداث وعظات تاريخية ودروس مستفادة من صراعات سياسية، وقواعد وأسس التعاون الدولي، ومواقف وكلمات بعض أنصار السلام في إسرائيل، إضافة إلى إبراز التكاليف المادية والبشرية الباهظة التي قد تترتب على قيام حرب بين العرب وإسرائيل، وبالمقابل إبراز المكاسب التي قد تحل على العرب والإسرائيليين من جراء حالة السلام والتعاون الإقليمي بين الطرفين، والتي توفر وعودًا بالرخاء والرفاهية لشعوب المنطقة.

ولا شك أن وعود الرخاء، وأمنيات السلام والرفاهية والديمقراطية هي نوع من أنواع التلاعب بالمشاعر وبأمنيات وآمال تاريخية متوارثة لدى الشعوب العربية، حيث ربطت أطروحات مؤيدي التطبيع بين انتهاء حالة الحرب وبين انتهاء مشروعية النظم العسكرية في الدول العربية، وكذلك بين انتهاء حالة الحرب وبين تحقيق الرخاء، استنادًا إلى حجج وبراهين تدور حول أن الأنظمة العربية تقمع الجماهير تحت دعوى ضرورات مواجهة إسرائيل، وأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، كذلك فإن نفقات التسليح وما يشوبها من عمولات ورشاوي ستتوقف في ظل علاقات سلام، وتتوجه كل الإمكانيات المادية والبشرية، علاوة على المساعدات والاستثمارات، الدولية نحو التنمية وتحقيق الرخاء والرفاهية للشعوب العربية.(٢٣)

إن الربط بين انتهاء حالة الحرب أو الاستعداد للحرب، والقدرة بالتالي على إنجاز التنمية الاقتصادية وتحقيق الرخاء والديمقراطية، هو ربط زائف، بدليل أن ذلك لم يتحقق في كل من مصر والأردن، وهما الدولتان العربيتان اللتان تربطهما علاقات سلام مع إسرائيل، أكثر من ذلك فإنه لا توجد علاقة دائمة ومستقرة بين التنمية وتحقيق الرخاء

٢٣- انظر:

- لطفي الخولي، مرجع سابق.
- عبد المنعم سعيد، ثقافة سلام، ١٩٩٦/١/١٩.
- جمال عبد الجواد، البحث عن مصالح مصر القومية في العالم العربي، ١٩٩٦/٣/٢٥.
- عبد الرؤوف الريدي، مصدر سابق.

للشعوب، فقد تستأثر القلة بنتائج التنمية، كما أن كثيرًا من الدول العربية لا تنتمي لدول الطوق ومع ذلك تعاني من غياب الديمقراطية وانتهاكات حقوق الإنسان.

ويكشف تحليل أطروحات وبراهين مؤيدي التطبيع عن وجود قدر من الاختلاف والتباين في رؤية ومواقف هذا الفريق، ربما لا يصل إلى حد التناقض في المنطلقات أو الأسس، بل هو مجرد اختلاف في أولويات ترجمة الأسس والمنطلقات الفكرية إلى حركة سياسية أو جماعة ضغط، وأعتقد أنه من الممكن أن نميز هنا بين موقفين:

الأول: قام بتغليب الجوانب العملية والتحركات السياسية الداعمة للتطبيع والتعاون الشرق أوسطي على ما عداه من جوانب، بل قام بتوظيف الأطروحات الفكرية الخاصة بإمكانية قبول الآخر (الإسرائيلي) والتعايش معه لصالح تشكيل حركة تضم ما يعرف بقوى السلام في إسرائيل والدول العربية، أي أنه قام بالمزاوجة بين الفكر والحركة السياسية، ولعل أبرز هؤلاء الكتاب لطفي الخولي وعبد المنعم سعيد وجمال عبد الجواد وصلاح بسيوني وأخرين.(٢٤)

الثاني: رفض المشاركة في أي تحركات عملية أو سياسية داعمة للتطبيع والتعاون الشرق أوسطي، وفضل أن يقتصر دوره على دور المثقف الداعية أو المفكر المستقل، استنادًا إلى أن مثل هذه التحركات قد تستخدم بشكل مؤقت وبرجماتي في المفاوضات، أو أن تقوم الحكومة باستغلال هذه التحركات، وبالتالي حاول هؤلاء، وأبرزهم محمد سيد أحمد الإبقاء على الدور المستقل للكاتب أو المثقف البعيد عن السلطة، ومقتضيات التفاوض، واشترط فتح حوار عام يشارك فيه المثقفون حول مفهوم التطبيع وطبيعة الصراع، ومستقبله، وطبيعة قوى السلام داخل وخارج إسرائيل.(٢٥)

٢٤- انظر:

- لطفي الخولي، مرجع سابق.

٢٥- انظر:

- محمد سيد أحمد، حول مقاطعة إسرائيل، هل هي غاية.. أم وسيلة، ٢٦/ ٩/ ١٩٩٦.
- محمد سيد أحمد، أطلب من نقيب الصحفيين فتح حوار حول معنى التطبيع، ١٩٩٧/١٠/٢.

وسعى كل من المؤيدين والمعارضين والرافضين للتطبيع إلى توظيف الأحداث والتطورات السياسية لصالح دعم وتأكيد الأطروحات والبراهين التي يستخدمها، والغايات التي يسعى إلى تحقيقها، في هذا الإطار ظهرت علاقة قوية بين زيادة الاهتمام بمناقشة قضايا التطبيع وإشكالياته، وبين وجود تطورات إيجابية أو سلبية في مسار المفاوضات أو في مسار العلاقات المصرية- الإسرائيلية، ويكشف تحليل مسار البرهنة انخفاض مساهمة مؤيدي التطبيع أثناء تعثر المفاوضات أو تفجير أزمات في مسار العلاقات المصرية– الإسرائيلية، أو الفلسطينية الإسرائيلية، بينما على العكس من ذلك كانت ترتفع مساهمات معارضي ورافضي التطبيع أثناء حدوث تطورات إيجابية أو سلبية في مسار العلاقات المصرية- الإسرائيلية، أو الفلسطينية الإسرائيلية، الأمر الذي يشير في التحليل الأخير إلى تأثير المناخ السياسي وأدوار المفاوضات على مستوى ونوعية الجدل والنقاش حول قضايا التطبيع وإشكالياته. (٢٦)

إن كل فريق كان يتوسل دائمًا بأحداث الواقع وتطور المفاوضات في التدليل على صحة مواقفه، ومصداقية خطابه، في هذا الصدد استخدم معارضو ورافضو التطبيع الاعتداءات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وضد جنوب لبنان للتأكيد والبرهنة على زيف عملية السلام، وإصرار إسرائيل على ممارسة العدوان، بينما توسل مؤيدو التطبيع على أطروحة قبول وتأييد كل ما يقبل به أصحاب القضية الفلسطينية، إضافة إلى أطروحة رفض الوصاية على الشعب الفلسطيني، وقد استخدمت الأطروحة الثانية كثيرًا في مواجهة الرافضين والمعارضين للتطبيع ولبعض مواقف السلطة الفلسطينية.

واستحوذت قضية دور المثقف في الصراع العربي الصهيوني على اهتمام كثير من الأطروحات والبراهين التي قدمها المؤيدون والمعارضون والرافضون للتطبيع، وقد أخذت

٢٦- انظر:

- عبد العليم محمد، حاجة إسرائيل للسلام وخوفها منه، ١١/٢٥/ ١٩٩٦.
- صلاح الدين حافظ، العدوان الإسرائيلي تحت الحماية الدولية، ٢٠٠٠/١١/٢٩.
- صلاح الدين حافظ، وتظل الانتفاضة مع المقاطعة سلاح الضعفاء، ٢٠٠١/٢/٧.

هـذه القضيـة عـدة تجليـات، التجـلي الأول بـرز في أطروحـات عـدد مـن معـارضي ورافـضي التطبيـع وتركـز حـول اتهـام مؤيـدي التطبيـع بالتبعيـة للسـلطة، أو الذيليـة السياسـية للمفـاوض، ودواعـي ومقتضيـات الموقـف التفـاوضي، وبالتـالي أكـد هـؤلاء في عـدة أطروحـات عـلى الـدور المسـتقل والواعـي للمثقفـين باعتبارهـم ضمـير الأمـة، والمنـوط بهـم مهمـة التصـدي للهجمـة الإسرائيليـة وتوعيـة الجماهـير بـأن الضعـف والتشـتت العـربي هـي حالـة طارئـة ولا تعنـي الهزيمـة أو الاستسـلام للعـدو الإسرائيـلي أو التفريـط في التاريـخ والثقافـة العربيـة الإسـلامية، وفي هـذا السـياق فـإن نتائـج المفاوضـات ونصـوص الاتفاقيـات قـد تلـزم السـياسي المفـاوض، لكنهـا لا تلـزم المثقـف الـذي مـن واجبـه أن يدافـع عـما فـرط فيـه السـياسي.(٢٧)

أمـا التجـلي الثـاني فقـد جـاء عـلى العكـس تمامًـا حيـث ناقشـه باسـتفاضة مؤيـدو التطبيـع انطلاقًـا مـن أن دور المثقـف هـو التفكـير الحـر الطليـق مـن الجمـود الفكـري والقيـود السياسـية التـي قـد تعرقـل الإبـداع والقـدرة عـلى إيجـاد حلـول لمشـكلات مسـتعصية، تسـتنزف طاقـات الجماهـير. وبالتـالي فـإن الاستسـلام لثقافـة الحـرب، والمقـولات والأفـكار التقليديـة التـي تقـوم عـلى العـداء المطلـق، ونفـي الأخـر هـي أفـكار ومقـولات لا تسـتجيب للوضـع العالمـي الجديـد، ولعـصر نهايـة الأيديولوجيـات.(٢٨) وتعـد نوعًـا مـن أنـواع الانكفـاء عـلى الـذات، وعـدم القـدرة عـلى التعامـل مـع مسـتجدات العـصر والاسـتجابة الواعيـة لتحدياتـه.

وعـلى ذلـك يـرى مؤيـدو التطبيـع أن الـدور المطلـوب للمثقـف الحقيقـي، والواعـي بالمتغـيرات العالميـة هـو التخـلي عـن القوالـب الفكريـة الجامـدة والشـعارات الأيديولوجيـة والتجديـد،

٢٧- انظر:

- عبد العليم محمد، لزوم ما لا يلزم.. مصدر سابق.
- السيد يسين، الإرهاب الإسرائيلي والفعل العربي، ٢٠٠٠/١٠/١٩.
- شوقي جلال، مستقبل الثقافة في ظل الشرق أوسطية، ١٩٩٦/١/١٠.

٢٨- انظر:

- محمد سيد أحمد، حول مقاطعة إسرائيل، مصدر سابق.
- جمال عبد الجواد، الصراع في ظل السلام، ١٩٩٤/١٢/٩.

وإيجـاد بدائـل لحالـة الحـرب والـصراع السـائدة والتـي تسـتنزف طاقـات الشـعوب، وتبـدد فـرص التنميـة والتقـدم والتحـول الديمقراطـي واحـترام حقـوق الإنسـان.

والملاحـظ أن أطروحـات وبراهـين معـارضي ورافـضي ومؤيـدي التطبيـع تركـز- دون أن تعلـن ذلـك صراحـة- عـلى أن الفعـل المطلـوب هـو بالأسـاس فعـل مثقفـين، وأن هنـاك أدور طليعيـة أو تبشـيرية منوطـة بهـم، بغـض النظـر عـن اختـلاف آرائهـم ومواقفهـم، إنهـم ضمـير الأمـة عنـد معـارضي ورافـضي التطبيـع، أو الطليعـة القـادرة عـلى التجديـد والثـورة عـلى الأوضـاع القائمـة والأفـكار المتوارثـة، والاسـتجابة لمتغـيرات العـصر وإيجـاد حلـول لمشـكلات الأمـة.

أعتقـد أن المبالغـة في أدوار المثقفـين عنـد مؤيـدي ومعـارضي التطبيـع ترتبـط أصـلًا بشـعور كل منهـم بأهميـة ومركزيـة الـدور الـذي يقـوم بـه، ومـن ثـم سـعى كل منهـم- دون أن يعـترف صراحـة بذلـك- لتضخيـم ذاتـه، وتأكيـد دوره، وقـد سـبقت الإشـارة إلى أن مؤيـدي التطبيـع تشـبهوا بالـرواد المنقذيـن لشـعوبهم، رغـم مـا قـد يلاقونـه مـن عنـت واضطهـاد، بينـما تشـبه معارضـو ورافضـو التطبيـع بضمـير الأمـة، والمدافعـين عـن الأمـة، والرافضـين لأي تنـازل أو تفريـط قـد يتـورط فيـه السـياسي- المفـاوض في هـذه المرحلـة التاريخيـة مـن مراحـل الـصراع مـع إسرائيـل.

***

الفصل الثالث

المشاركة السياسية للمرأة في خطاب الكاريكاتور في الصحافة المصرية

انتخابات مجلس الشعب عام ٢٠٠٠ نموذجًا

المقدمة:

كشفت بحوث ودراسات الإعلام أهمية دور وسائل الإعلام في خلق الصور والمعاني، وبالتالي تأثيرها في إدراك الحقائق الاجتماعية إما بشكل حقيقي أي كما هي، أو بشكل مشوه أو حتى مزيف.

في هذا الإطار تعتبر صورة المرأة في وسائل الإعلام أحد أهم الموضوعات التي حظيت باهتمام الباحثين والباحثات الإعلاميين، حيث أجريت الكثير من البحوث بهدف التعرف على ملامح الصورة التي قدمت بها وسائل الإعلام المرأة كابنة وزوجة وأم، ومدى اقتراب أو ابتعاد صورة المرأة من الواقع الفعلي، أو بصياغة أخرى هل نقل الإعلام بشكل حقيقي صورة المرأة كربة منزل، وعاملة، وموظفة، ومواطنة لها حقوق وواجبات سياسية وقانونية مساوية للرجل، أم أنه قد رسم صورًا غير حقيقية للمرأة، ولأدوارها المختلفة خارج أو داخل البيت، تختلف عن أدوارها الحقيقية في المجتمع، وإذا كان الواقع يحفل ببعض الصور والأدوار الاجتماعية السلبية المفروضة على المرأة تاريخيًا- لأسباب ثقافية أو اجتماعية- فهل ينبغي على وسائل الإعلام التسليم بها، ونشرها والترويج لها، أم أن عليه أن يبادر بالمطالبة بتغييرها.

لقد ركزت دراسات صورة المرأة في وسائل الإعلام على تحليل المضامين والأشكال الإعلامية والترفيهية التي تقدم في الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما، وبالنسبة للصحافة تحديدًا فقد أجريت دراسات وبحوث عديدة حول ملامح صورة المرأة في الإعلانات أو في فنون وقوالب التحرير الصحفي المختلفة، وفي مقدمتها الكاريكاتور والكارتون، وقد ظهر اتجاه حديث في دراسة صورة المرأة يربط بين صورة المرأة والسياق الاجتماعي والتاريخي الذي تعمل فيه وسائل الإعلام، إضافة إلى التوقيت، والذي يميز التغطية الإعلامية الفعالة، ومن ثم يؤثر في تناول صورة المرأة ودورها ومكانتها في سياق الأحداث.

مـن هنـا تسـعى الدراسـة الحاليـة لمناقشـة الصـورة التـي تقدمهـا الصحافـة المصريـة للمـرأة مـن خـلال رسـوم الكاريكاتـور أثنـاء الحملـة الانتخابيـة لمجلـس الشـعب عـام ٢٠٠٠, خاصـة وأن المشـاركة السياسـية للمـرأة المصريـة تتسـم بالضعـف الشـديد مـن جهـة, ومحاولـة الأحـزاب والقـوى السياسـية اسـتغلال وتوظيـف أصـوات المـرأة دون محاولـة جـادة لتفعيـل مشـاركتها مـن جهـة ثانيـة (١)، وظهـور بعـض الدعـوات الجـادة لزيـادة مشـاركة المـرأة المصريـة في السياسـة مـن جهـة ثالثـة.

وتشـير الإحصـاءات المتوفـرة إلى أن الحـزب الوطنـي رشـح فى انتخابـات عـام ١٩٨٧ حـوالى ١١ سـيدة بنسـبة ٢,٤٪ مـن مجمـوع مرشـحيه، أمـا حـزب التجمـع فقـد رشـح ٧ سـيدات، والوفـد ٣ سـيدات مـن إجـمالي مرشـحيه البالـغ ٣٩٤ مرشـحًا بنسـبة ٠,٨ ٪ بينـما لم يرشـح حـزب العمـل المتحالـف مـع الإخـوان المسـلمين وحـزب الأحـرار سـوى سـيدة واحـدة، وفي انتخابـات عـام ١٩٩٠ كان عـدد مرشـحات الحـزب الوطنـي ٤ سـيدات بنسـبة ٠,٩٪ فقـط مـن إجـمالي عـدد مرشـحيه البالـغ ٤٤٤ مرشـحًا، أمـا بالنسـبة لانتخابـات ١٩٩٥ فقـد ترشـحت ٧١سـيدة، لم تفـز منهـن سـوى ٥ سـيدات فقـط، وكانـت معظـم المرشـحات مـن المسـتقلين، ولم يرشـح الحـزب الوطنـي سـوى ٦ سـيدات فقـط مـن إجـمالي عـدد مرشـحيه البالـغ ٤٣٩ مرشـحًا، في المقابـل رشـح الوفـد ٦ سـيدات، والأحـرار ٣ سـيدات، ولم يرشـح حـزب العمـل سـوى سـيدتين فقـط، أمـا حـزبي التجمـع والأحـرار فقـد اكتفـى كل منهـما بترشـيح سـيدة واحـدة (٢).

ورغـــم الإشراف القضـــائي الكامـــل عـــلى انتخابـــات عـــام ٢٠٠٠ وادعـــاء الأحـــزاب تشـــجيع المشـــاركة السياســـية للمـــرأة، فإنـــه لم يطـــرأ تغيـــير عـــلى هـــذه المشـــاركة حيـــث رشـــح الحـــزب الوطنـــي ١١ ســـيدة بنســـبة ٢,٥٪ مـــن إجـــمالي المرشـــحين, بينـــما رشـــح الوفـــد ٧ مرشـــحات والتجمـــع ٣ ســـيدات بينـــما لم يرشـــح الحـــزب النـــاصري أى ســـيدة، ومـــع ذلـــك حـــدث تحســـن نســـبي في أعـــداد المترشـــحات حيـــت بلـــغ العـــدد الإجـــمالي لهـــن ١٢١ ســـيدة مقابـــل ٧١ في انتخابـــات عـــام ١٩٩٥، خاضـــت الانتخابـــات منهـــن ١١٤ فقـــط، وترجـــع زيـــادة عـــدد المترشـــحات رغـــم قلـــة عـــدد

الحزبيات منهن إلى أن أغلب المترشحات تقدمن إلى الانتخابات كمستقلات، مما حرمهن من الدعم الحزبي, وقد أسفرت تلك الانتخابات عن نجاح ٧ سيدات فقط، خمس منهن ينتمين للحزب الوطني، واثنتين من المستقلين (٣).

أما بالنسبة لمستوى وحجم مشاركة المرأة المصرية في عملية التصويت فإن الإحصاءات لا تميز بين الرجال والنساء من بين من أدلوا بأصواتهم في انتخابات مجلس الشعب، ولكن بشكل عام هناك انخفاض ملحوظ في نسبة الذين أدلوا بأصواتهم، حيث كانت النسبة ٤٥,٩٪ في انتخابات عام١٩٩٠، وارتفعت عام ١٩٩٥ إلى ٥٠٪، ولكنها بلغت حوالي ٢٥٪ فقط في انتخابات عام ٢٠٠٠، ربما نتيجة الإشراف القضائي الذي حد من عمليات التلاعب بأصوات الناخبين (٤)، من جانب آخر هناك زيادة في حجم المشاركة السياسية للمرأة في الريف والبادية في عملية الإدلاء بالأصوات مقارنة بحجم المشاركة في المدينة، وربما يرجع ذلك إلى المناخ القبلي والعشائري في تلك المناطق والذي يدفع الناخبين إلى المشاركة بغرض دعم مرشح أو آخر ينتمي لنفس القبيلة أو العصبية أو العشيرة أو البطن، كما أن التصويت في المدينة يرتبط بوجود اسم الناخب في جداول الناخبين، بينما على العكس في الريف والبادية، حيث جرى العرف على التغاضي عن تلك السجلات خاصة بالنسبة للسيدات الناخبات والاستعاضة عنها ببطاقة الهوية (٥).

على أنه يجب النظر إلى ضعف المشاركة السياسية للمرأة المصرية في ضوء ضعف وهشاشة المشاركة السياسية عمومًا في المجتمع المصري، وذلك لأسباب سياسية واجتماعية وقانونية واقتصادية، علاوة على ضعف الأحزاب السياسية- بما فيها الحزب الوطني الحاكم- وعدم قدرتها على جذب واستقطاب المواطنين للمشاركة (٦)، لكن يبقى في التحليل الأخير الضعف الشديد في المشاركة السياسية والتمثيل السياسي للمرأة مقارنة بضعف مشاركة الرجل في السياسة، وبالأدوار المهمة التي تقوم بها في المنزل وفي مجالات العمل والإنتاج. من زاوية أخرى فإن ضعف مشاركة المرأة لا ينفي حقيقة وجود رغبة

واستعداد لدى أعداد متزايدة من السيدات للمشاركة في العمل السياسي، وقد ظهرت تلك الرغبة في زيادة أعداد المترشحات من المستقلين في انتخابات عام ٢٠٠٠، من هنا تبرز أهمية التعرف على مواقف الصحافة الحزبية والقومية في مناقشة تلك القضية، من خلال الصور التي قدمها خطاب الكاريكاتور للمرأة كمرشحة وناخبة أثناء انتخابات عام ٢٠٠٠.

وقد وقع الاختيار على صورة المرأة في رسوم الكاريكاتور لأسباب عديدة لعل أهمها تعاظم دور الصورة في إدراك الواقع، وقدرة الكاريكاتور على التأثير في الآراء والاتجاهات، بالإضافة إلى جاذبيته وإقبال القراء عليه، فضلًا عن تفوقه على مواد التحرير الأخرى في التعبير الحر عن الآراء، بعيدًا عن الضغوط أو الاعتبارات التحريرية والسياسية (٧)، في هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن الخطاب الرسمي للصحافة القومية والحزبية وبرامج الأحزاب التي خاضت انتخابات عام ٢٠٠٠ ادعت العمل على دعم وتشجيع المشاركة السياسية للمرأة، بينما لم تعكس قوائم مرشحي الأحزاب هذا الخطاب الذي بدا شكليًا وغير صادق، من هنا ربما كانت صور الكاريكاتور- رغم طبيعته الفنية الساخرة- أكثر تعبيرًا عن مواقف وتوجهات الصحف أو على الأقل أكثر قدرة على التعبير عن الخطاب الحقيقي وربما غير المعلن عن موقف تلك الصحف من مشاركة المرأة في السياسة.

ويمكن القول بوجود تقاليد صحفية راسخة بالنسبة لدور ومكانة الكاريكاتور في الصحافة المصرية، وقد جاءت هذه المكانة المرموقة عبر تاريخ طويل للكاريكاتور ولرسامي الكاريكاتور المصريين في معالجة القضايا الوطنية والاجتماعية، أثبتوا خلاله قدرتهم على مقاومة الاحتلال واختراق أشكال الرقابة والمنع، والتعبير عن الرأي العام الشعبي, والدفاع عن حقوق أغلبية المواطنين, والتصدي للفساد (٨).

والواقع أن الكاريكاتور فن له تاريخ في مصر.. إذ إن هناك من الدلائل ما يشير إلى ارتباط هذا الفن بقدماء المصريين- وإن كانت بعض الموسوعات العلمية العالمية قد أغفلت

ذكـر ذلـك أو ذكرتـه بعبـارات عابـرة.. إلا أن الموسـوعة الكـبرى الفرنسـية حـددت بدايـة هـذا الفـن، وأشـارت إلى نشـأته في مـصر وسـوريا.. وقدمـت نمـاذج لمـا وجـد مـن رسـوم هزليـة في البلديـن (٩).

ويؤكـد لنـا المـؤرخ الأثـري «سـليم حسـن» في تفسـيره لكثـير مـن الصـور الهزليـة المنقوشـة عـلى الآثـار المصريـة، بـأن الأجيـال توارثـت تلـك الصـور الهزليـة منـذ آلاف السـنين مـما كان عنـد قدمـاء المصريـين، في هجومهـم عـلى فرعـون مـصر عندمـا تشـتد بهـم الحالـة وتعضهـم الحـروب، وبالتـالي يسـأمها المـصري فيظهـر مـا تخفيـه نفسـه بالصـور الهزليـة المعـبرة، فكانـت أصـدق تعبـيرًا مـن الألفـاظ.

وفي العـصر الحديـث ظهـرت ثمـار هـذا الفـن واضحـة مـع تطـور وازدهـار الطباعـة في مـصر.. فتهافـت عليـه المصريـون، وهـذا مـا سـاعده عـلى أن يغـزو الصحافـة المصريـة، منـذ بدايـة ظهـور الصحافـة الشـعبية في السـنوات الأخـيرة مـن حكـم الخديـوي إسـماعيل، إذ يـبرز في تلـك الحقبـة اسـم الصحفـي المـصري اللامـع «يعقـوب بـن صنـوع» الـذي يعتـبر أول مـن أدخـل الرسـوم الكاريكاتوريـة في الصحافـة المصريـة بصحيفتـه «أبـو نظـارة» التـي أصدرهـا عـام ١٨٧٧(١٠).

أولاً:- الدراسات السابقة:

نظـرًا للطبيعـة المزدوجـة للكاريكاتـور باعتبـاره فنًـا ورسـالة إعلاميـة فقـد توزعـت بحـوث ودراسـات الكاريكاتـور عـلى عـدد كبـير مـن الموضوعـات، لعـل أهمهـا القواعـد الفنيـة لرسـوم الكاريكاتـور, والنشـأة والتطـور التاريخـي للكاريكاتـور, وعلاقتـه بالجوانـب التحريريـة والإخراجيـة, وتأثـيرات الكاريكاتـور الإقناعيـة والمعرفيـة والوجدانيـة, والضغـوط المهنيـة والرقابيـة عـلى فنـاني الكاريكاتـور والعلاقـة بـين مـا يقدمـه رسـامو الكاريكاتـور والسياسـة التحريريـة.

وإزاء هـذا التعـدد الكبـير في مجـالات وموضوعـات بحـوث الكاريكاتـور يسـتعرض الباحـث عينـة محـدودة مـن الدراسـات السـابقة العربيـة والأجنبيـة- راعـى في اختيارهـا كونهـا تغطـي أهـم مجـالات وموضوعـات الكاريكاتـور, وترتبـط بموضـوع الدراسـة الحاليـة, كـما تعـبر عـن توجهـات نظريـة ومنهجيـة مختلفـة، بحيـث تعكـس أهـم المـدارس الفكريـة السـائدة في مجـال دراسـات وبحـوث تحليـل الكاريكاتور.

١- دراسـة مرعـي مدكـور عـن اتجاهـات الكاريكاتـير في الصحافـة المصريـة، دراسـة لعينـة مـن الصحـف والمجـلات ٢٠٠٢- ٢٠٠٣ (١١):

تهـدف هـذه الدراسـة إلى التعـرف عـلى مـدى الاهتـمام بالكاريكاتـور في الصحافـة المصريـة، والقضايا التـي تعكسـها رسـوم الكاريكاتـور، مـع المقارنـة بـين تلـك الرسـوم في الصحافـة القوميـة والحزبيـة، وقـد شـملت عينـة الدراسـة ٤٨٦ رسـمًا في صحـف الأهـرام والأخبـار والجمهوريـة والأحـرار وروزاليوسـف والوفـد والأهـالي والأسـبوع، خـلال نوفمـبر وديسـمبر وينايـر ٢٠٠٢- ٢٠٠٣.

واعتمـد البحـث عـلى تحليـل المضمـون، حيـث صممـت اسـتمارة مكونـة مـن ثمانيـة محـاور رئيسـية هـي موقـع النـشر، وكيفيـة النـشر، والمجـال الـذي يتناولـه، ومـكان المعالجـة، واتجاهاتهـا، ومصـدر الكاريكاتـور المنشـور، والجهـات أو الشـخصيات التـي يتناولهـا، والمفاهيـم التـي يدعـو إليهـا.

وانتهـى البحـث إلى تقلـص مسـاحة الكاريكاتـور في الصحافـة المصرية، وبالتـالي تقلص الفـرص المتاحة للنشر أمام رسـامي الكاريكاتور خاصة من الأجيال الجديدة، وجاءت الأهالي في مقدمة صحف عينة الدراسـة مـن حيـث كـم الكاريكاتـور الـذي تنـشره، تليهـا روز اليوسـف ثم الأهـرام، بينـما تفوقت الأسـبوع في مجال الكاريكاتور السـياسي، تليها الأحرار فالوفد، وركزت رسـوم الكاريكاتور في الصحف المعارضة والمسـتقلة على الانتقاد السلبي، بينما قدمت الأهرام عددًا كبيرًا نسبيًا من الرسوم ذات التوجه الإيجابي، وتركزت معالجات

الكاريكاتـور عـلى القضايـا الداخليـة، كـما جـاء المواطـن المصري العـادي في مقدمـة اهتمامـات الكاريكاتور، يليـه رؤسـاء مجالس الـوزراء.

٢- دراسة جوش جرينبرج (١٢): -

تناقـش الدراسـة الكارتـون السـياسي باعتبـاره شـكلًا متغـيرًا ومتجـددًا مـن الخطـاب الإخبـاري المـرئي والـذي يناقـش مشـكلات اجتماعيـة, وتنطلـق الدراسـة مـن أن الكارتـون يلعـب دورًا مهـمًا في التعريـف بالمشـكلات الاجتماعيـة وطرحهـا للنقـاش العـام في سـياق الحيـاة اليوميـة، ونظـرًا لأن المشـكلات الاجتماعيـة والأخبـار المرتبطـة بهـا متغـيرة, فـإن الكارتـون أيضًـا غـير ثابـت ومتحـول ومتغـير، سـواء في لغتـه المكتوبـة والمرئيـة أو دلالاتـه الرمزيـة، ومـع ذلـك فإنـه قـادر عـلى القيـام بوظائـف الإخبـار أوالإعـلام والإقنـاع, وتوزيـع معايـير الحكـم تجـاه الموضوعـات الاجتماعيـة.

وتعتمـد الدراسـة عـلى منهجيـة الهرمنيوطيقـا كإطـار لتحليـل الكارتـون السـياسي كخطـاب إخبـاري مـرئي, يركـز عـلى التركيـب البنـائي والإسـقاطات الإبداعيـة للمعنـى المبـاشر أو المعنـى الممكـن والمحتمـل للكارتـون.

في هـذا الإطـار أخضعـت الدراسـة رسـمين للكارتـون للتحليـل السـميولوجي يعالجـان مشـكلة اجتماعيـة خاصـة بالهجـرة غـير الشرعيـة في كنـدا, حيـث خلصـت الدراسـة إلى أن الكارتـون نجـح في طـرح الموضـوع كمشـكلة اجتماعيـة مـن خـلال إبـراز الجوانـب الأخلاقيـة والإنسـانية لمشـكلة الهجـرة, وتأثيراتهـا الاقتصاديـة والاجتماعيـة عـلى المجتمـع في كنـدا.

٣- دراسة مباهج محمود أحمد (١٣):-

تهـدف الدراسـة إلى التعـرف عـلى دور الكاريكاتـور في التعبـير عـن مشـكلات المجتمـع المـصري والعـربي, والربـط بـين مـدارس الكاريكاتـور العربيـة والمصريـة, واسـتخدمت الدراسـة المنهجـين المسـحي والتاريخـي, وتحليـل المضمـون لاسـتخلاص المعطيـات الممكنـة التـي يعـبر عنهـا عـدد مـن رسـامي الكاريكاتـور (القائمـين بالاتصـال) في عينـة مـن الصحـف المصريـة

والعربيـة تشـمل الأهـرام والأخبـار والجمهوريـة المصريـة, والقبـس الكويتيـة, والبيـان الإماراتيـة, والريـاض السـعودية, والأنـوار اللبنانيـة, حيـث تـم تحليـل مضمـون الكاريكاتـور في تلـك الصحـف بواقـع ثلاثـة أيـام مـن كل شـهر خـلال عـام ٢٠٠٠, وخلصـت الدراسـة إلى أن الكاريكاتـور المـصري والعـربي يعتـبر مـؤشرًا دقيقًـا وحيويًـا لمشـكلات المجتمـع المعـاصرة, حيـث ناقـش الكثـير مـن القضايـا الاجتماعيـة والاقتصاديـة, وقـام بوظيفـة التحذيـر والتنبيـه المبكـر تجـاه بعـض المشـكلات, كـما أظهـرت الدراسـة فروقًـا بـين رسـوم الكاريكاتـور في صحـف العينـة تتعلـق بمسـتوى الانفعاليـة واسـتخدام الأسـاليب الإقناعيـة ومـدى تواصـل الحمـلات الكاريكاتوريـة, فضـلًا عـن مـدى الاقـتراب أو الابتعـاد عـن السياسـة الرسـمية، وأشـارت النتائـج إلى أن الكاريكاتـور يعتـبر مصـدرًا تاريخيًـا للأحـداث والوقائـع, خاصـة الأحـداث المسـكوت عنهـا، والتـي لا تظهـر في الصحـف لكـن الكاريكاتـور يعـبر عنهـا.

٤ – دراسـة ميشـيل رامـسي عـن اكتشـاف المواطنـة أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى, منـاداة الكارتـون بالمـرأة كمواطنـة (١٤):-

سـعت الدراسـة إلى تحليـل الاسـتراتيجيات الداعيـة لنيـل المـرأة الأمريكيـة حـق التصويـت كاسـتجابة للتغـيرات الاجتماعيـة والثقافيـة التـي أكـدت دور ومكانـة المـرأة في المجتمـع أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى, وتركـز الدراسـة عـلى تحليـل الكارتـون السـياسي المنشـور في مجلـة (المـرأة المواطنـة) التـي كانـت لسـان حـال التيـار الرئيـسي في الحركـة النسـائية الأمريكيـة التـي نـادت بحصـول المـرأة عـلى حقوقهـا الانتخابيـة.

وتـأتي هـذه الدراسـة في إطـار موجـة الاهتـمام بدراسـة الحركـة النسـائية الأمريكيـة والتـي ظهـرت خـلال العقديـن الأخيريـن, وكانـت صحافـة المـرأة مـن بـين مجـالات اهتمامهـا.

وتعتمـد الدراسـة عـلى تحليـل الكارتـون الداعـي لحـق المـرأة في التصويـت كـما ظهـر في مجلـة المـرأة المواطنـة, بالإضافـة إلى تحليـل السـياق الاجتماعـي والثقـافي أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى، وتخلـص الدراسـة إلى أن رسـوم الكارتـون عالجـت موضوعـات كثـيرة ومتنوعـة

تتعلـق بصحـة المـرأة وحقوقهـا السياسـية, ومكانتهـا ودورهـا كأم وزوجـة للمقاتلـين في جبهـات القتـال, عـلاوة عـلى دورهـا المتعاظـم في قـوة العمـل, وقـد ابتكـرت رسـوم الكارتـون أشـكالًا وصـورًا مختلفـة تؤيـد الدعـوة لنيـل المـرأة حقوقهـا, وتسـتدعي خـبرات تاريخيـة وثقافيـة تؤكـد أهميـة دور المـرأة في نيـل اسـتقلال الولايـات المتحـدة وإعـلان الجمهوريـة, وكذلـك مكانـة المـرأة كأم تضحـي بأولادهـا في سـبيل الوطـن، لقـد لعـب الكارتـون دورًا مهـمًا في إعـادة التعريـف بهويـة المـرأة وحقوقهـا وواجباتهـا كمواطنـة مخلصـة للوطـن.

٥- دراسـة روى بوتـر عـن دهـاء الجسـد, الأمـراض والخطابـات, تاريـخ الأطبـاء مـن خـلال الكارتـون (١٥):-

تهـدف الدراسـة إلى تقديـم عـرض وتحليـل تاريخـي معمـق لصـورة الأطبـاء في رسـوم الكارتـون في الصحافـة البريطانيـة, ولعلاقـة الأطبـاء بالجسـد سـواء كان بالمعنـى الحقيقـي أو الرمـزي, وتغطـي الدراسـة فـترة تاريخيـة طويلـة منـذ مطلـع القـرن التاسـع عـشر وحتـى نهايـة القـرن العشريـن, واعتمدت الدراسـة عـلى المنهـج التكامـلي.

وخلصـت الدراسـة إلى أن صـورة الأطبـاء في الكارتـون كانـت مزيجًـا مـن النقـد والتهكـم والسـخرية, وأحيانًـا الدفـاع عـن المريـض أو الطبيـب بحسـب الظـروف والأوضـاع الاجتماعيـة والسياسـية, وقـد اسـتخدمت بعـض رسـوم الكارتـون صـورة الطبيـب والجسـد المريـض لمعالجـة قضايـا سياسـية, كـما ظهـرت شـخصية الطبيـب السـياسي.

وترصـد الدراسـة مراحـل تطـور الكارتـون بدايـة مـن القـرن التاسـع عـشر حيـث كان يعتمـد عـلى رسـوم وخطـوط بسـيطة وكلـمات محـدودة مبـاشرة لا توحـي بمعـاني سياسـية, ثـم تطـور الكارتـون واكتملـت ملامحـه, وظهـرت شـخصية السـياسي المريـض, والدولـة المريضـة, والوضـع الاقتصـادي المريـض, وظهـرت لغـة مركبـة تجمـع بـين الصـورة والكلمـة والرمـز, وتشـتبك مـع الأوضـاع التاريخيـة والاجتماعيـة، الأمـر الـذي يؤكـد أهميـة المنهـج التكامـلي الـذي يتجـاوز الحـدود الفاصلـة بـين السياسـة والثقافـة والطـب والفـن والتاريـخ والرمـوز والمعـاني.

٦ - دراسة جينفر بروفيت (١٦):-

تعتبر هذه الدراسة أول دراسة أمريكية تحاول الكشف عن وظائف الكارتون السياسي مقارنة بخبرات رسامي الكارتون، مع قيود وضغوط النشر التي تدخل في نطاق ما يعرف بحراسة البوابة, وتبحث الدراسة العلاقة بين رسوم الكارتون الذي يعبر عن رأي الصحيفة وبين أدبيات حراسة البوابة, كما تسعى إلى مناقشة العلاقة بين مضامين الأخبار المنشورة والسياسة التحريرية وبين توجهات ومواقف رسوم الكارتون, بالتطبيق على رسوم الكارتون التي نشرت في صحيفة دينفر بوست الأمريكية the Denver Post خلال الحملة الانتخابية الرئاسية عام ٢٠٠٠ بين الرئيس جورج بوش الابن وآل جورس.

ولتحقيق أهداف الدراسة قام الباحث بمقارنة ٦٩ رسمًا كارتونيًا مع ١٥٥ مادة تحريرية تتعلق بالحملة الانتخابية, وخلصت نتائج الدراسة إلى أن رسوم الكارتون تعكس اتجاهات المواد الإخبارية والموضوعات والأطر والمضامين المنشورة في الصحيفة.

كما جمعت ٥٠٪ من رسوم الكارتون بين المرشحين الرئيسيين بوش وآل جور, بينما أظهرت ٢٦٪ من الرسوم صورة آل جور بمفرده, مقابل ١٥٪ صورت بوش بمفرده, ولم تهاجم معظم رسوم الكارتون بشكل مباشر أو حاد أحد المرشحين أو سياساتهما بل عكست مواقف معتدلة وقدمت النقد بشكل مرح وغير عدائي, وهو ما يعني اختلاف هذه النتائج مع نتائج دراسات سابقة أكدت على قدرة رسوم الكارتون على النقد الحاد والهجوم المباشر على الشخصيات السياسية.

٧- دراسة ريتشارد مارشال, قرن من الكارتون السياسي (١٧):-

تسعى هذه الدراسة إلى رصد أهم مراحل تطور الكارتون السياسي خلال القرن العشرين، ومناقشة بعض القضايا الخاصة بدوره في تشكيل الرأي العام, وكذلك مستقبل الكارتون السياسي في ظل ثورة تكنولوجيا الاتصال في نهاية القرن العشرين، وتعتمد

الدراسة على المنهجين التاريخي والمقارن في تحليل أعمال بعض فناني الكارتون في الولايات المتحدة الأمريكية, وتقديمها كنماذج وأدلة على بعض ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

وترصد الدراسة مظاهر استفادة الكارتون من التطورات التكنولوجية في عالم الطباعة, ثم في مجال إرسال رسوم الكارتون بواسطة الفاكس ثم عبر شبكة الإنترنت التي يستخدمها بعض فناني الكارتون في إرسال وتوزيع أعمالهم، وتشير الدراسة إلى التغيرات في التكوين الثقافي والاجتماعي والنوعي لرسامي الكارتون, فقد ارتفع عدد النساء والسود بين رسامي الكارتون.

وتخلص الدراسة إلى أن الكارتون السياسي لعب أدوارًا مهمة في تشكيل الرأي العام, كما لعب دور المدافع والناقد, ومع ذلك هناك جدل محدود حول مدى مسئولية الكارتون في تفجير الثورات والتلاعب بالرأي العام، كذلك هناك نقاش حول مستقبل الكارتون في مطلع القرن الواحد والعشرين في ظل هذا السيل من الآراء والصور عبر تليفزيون الكابل والإذاعة والإنترنت.

٨- دراسة روبن جود مان (١٨):-

موضوع هذه الدراسة هو حركة المطالبة بحق المرأة الأمريكية في التصويت في عيون مجلات الكارتون في مطلع القرن العشرين, وتهدف الدراسة إلى معرفة كيف عكس الكارتون ومجلات الفكاهة الأيديولوجية المؤيدة والحركة المعارضة لنيل المرأة الأمريكية حق الاقتراع، والاستخدامات المختلفة للكارتون في تقديم أيديولوجية كل من الحركتين.

وتعتمد الدراسة على الدراسات الثقافية كإطار نظري والأيديولوجية النقدية كمنهج للدراسة, من هنا قدمت عرضًا تاريخيًا تحليليًا لمكانة ودور المرأة في المجتمع الأمريكي منذ مطلع القرن التاسع عشر، وحتى ظهور الجدل والصراع حول حق المرأة في التصويت في مطلع القرن العشرين، واستعرضت الدراسة الحجج والبراهين الدينية والأخلاقية

والاجتماعيـة والبيولوجيـة والسياسـية التـي اسـتخدمها أنصـار وخصـوم حصـول المـرأة عـلى حـق التصويـت, في هـذا السـياق تـبرز أهميـة الكارتـون والمجـلات الفكاهيـة العامـة في مناقشـة الموضـوع.

شـملت عينـة الدراسـة ٢١٤ رسـمًا تغطـي الفـترة مـن ١٨٩٠- ١٩٢٠، وتعكـس مواقـف مؤيـدة ومعارضـة لمنـح المـرأة حـق التصويـت, وخلصـت الدراسـة إلى أن ٨٣٪ مـن رسـوم الكارتـون أيـدت حركـة معارضـة حصـول المـرأة عـلى حـق التصويـت، مـما يشـير إلى أن الكارتـون في المجـلات الفكاهيـة الأمريكيـة عكـس الأيديولوجيـة المهيمنـة في فـترة الدراسـة، والتـي كانـت ترفـض منـح المـرأة حـق التصويـت لأسـباب سياسـية واقتصاديـة واجتماعيـة.

وتشـير نتائـج الدراسـة أيضًـا إلى أن تأييـد الكارتـون ورسـامي الكارتـون للحركـة المعارضـة لمنـح المـرأة حـق التصويـت، ربمـا كان لـه تأثـير سـلبي عـلى الـرأي العـام تجـاه مسـألة منـح المـرأة حـق التصويـت.

٩- دراسة عمرو عبد السميع عن الكاريكاتور السياسي المصري في السبعينيـات (١٩):-

سـعت الدراسـة إلى الكشـف عـن مـدى قيـام الرسـام المـصري بـأداء دوره السـياسي بالمشـاركة في تشـكيل القـرار السـياسي والتعـرف عـلى الضغـوط التـي تؤثـر عليـه في القيـام بهـذا الـدور, بالإضافة إلى دراسـة الأسـاليب الفنيـة المسـتخدمة في نواحـي الشـخصيات والرمـوز الثابتـة ووسـائل الإقنـاع والأسـاليب المسـتخدمة.

اسـتخدمت الدراسـة المنهجـين التاريخـي والمقـارن إلى جانـب دراسـة الحالـة لموقـف كل رسـام مـن الظـروف السـائدة، وطبقـت الدراسـة عـلى مجموعـة مـن الصحـف والمجـلات, مثـل (الأهـرام, الأخبـار, الجمهوريـة) كصحـف قوميـة يوميـة, ومجـلات (روز اليوسـف, صبـاح الخـير, المصـور) كمجـلات قوميـة أسـبوعية, إلى جانـب جريـدة (السـياسي) كصحيفـة قوميـة

أسبوعية، وذلك في الفترة من(١٩٧٠- ١٩٧٣) وهي مرحلة تشكيل القرار السياسي, تليها المرحلة الثانية من (١٩٧٣- ١٩٧٧) والتنبيه لمخاطر القرار السياسي بعد حرب أكتوبر, ثم المرحلة الأخيرة من (١٩٧٧- ١٩٧٩) وهي مرحلة تبرير القرار السياسي.

انتهت الدراسة لعدة نتائج تؤكد تأثر الكاريكاتور بالظروف السياسية السائدة في تلك الفترة، من خلال مجموعة ضغوط، منها ما يتعلق بسياسة الصحيفة ذاتها، وتأثر رسامي الكاريكاتور بتوجهات الصحيفة والقيادات الصحفية بها والمتمثلة في رئيس التحرير, ومنها ما يتعلق بالنظام السياسي السائد وطبيعة العلاقة بين هذا النظام والصحافة عمومًا في تلك الفترة.

وتخلص الدراسة إلى عدم جدوى الكاريكاتور في تشكيل القرار السياسي والتأثير في توجهات النظام السياسي، وهو ما ظهر في مواقف رسامي الكاريكاتور من حيث تخبطهم وتفاوت مواقفهم وانقسامهم في التعبير عن الظروف السائدة, فكان منهم الإصلاحيون, الثوريون, والفوضويون، إلى جانب الآخرين، دون المواجهة المباشرة مع سياسة الصحيفة أو النظام السياسي.

رصدت الدراسة تيارين أساسين في فترة السبعينات يمثلان حركة الكاريكاتور في تلك الفترة، وهما مجلة روز اليوسف, وصحيفة أخبار اليوم، إلى جانب ظهور ثلاث مجموعات من الرسامين هم (العقائديون, في المهجر, الجدد).

١٠- دراسة عمرو عبد السميع عن دور الكاريكاتور في معالجة المفاهيم السياسية في مصر: دراسة تطبيقية لمجلة روز اليوسف أعوام ١٩٥٢, ١٩٦١, ١٩٦٨ (٢٠):-

سعت الدراسة إلى التعرف على الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شكلت دور الكاريكاتور في فترة الدراسة، وانعكاس تلك الظروف على نجاحات الكاريكاتور وطبيعة مضمونه ومدى تأثره بالنظام السياسي السائد والتعبير عن مفاهيمه، سواء

بالترويج لتلك المفاهيم أو معارضتها، كما تسعى الدراسة إلى تبين الوسائل الفنية التي يستخدمها رسامو الكاريكاتور ومدى ارتباطها بإبراز خصائص الهوية القومية والقضايا المختلفة والتي تعكس توجهاتهم ومدارسهم.

اعتمدت الدراسة على المنهجين الوصفي التاريخي والمقارن لإجراء المقارنات بين سنوات الدراسة, مع استخدام تحليل مضمون لدراسة مجلة روز اليوسف في أعوام (٥٢, ٦١, ١٩٦٨), واستخدمت الدراسة المقابلات الشخصية مع رسامي الكاريكاتور لجمع المادة.

وانتهت الدراسة إلى نتائج خاصة بالمضمون والشكل أهمها أن الكاريكاتور تأثر خلال فترة الدراسة بالظروف السياسية السائدة، حيث تأثر بإيجابيات وسلبيات النظام السياسي دون معارضة, باستثناء عام ١٩٥٢ حيث عارض النظام القديم وأيد الثورة والتحول لنظام سياسي جديد, مما انعكس على النواحي الفنية لرسامي الكاريكاتور بإبراز سمات الهوية القومية بتقديم شخصيات مبتكرة من الرسام أو رموز ثابتة أو شخصيات حقيقية تتحدى الاحتلال, وكشفت النتائج عن اتجاهات رسامي الكاريكاتور من خلال مدرستين من الناحية الفنية (تقليديون- تشكيليون) و ٤ مدراس سياسية اجتماعية (إصلاحيون- ثوريون- موضوعيون- بعثيون).

١١- الكاريكاتور في آسيا (٢١):-

أجريت هذه الدراسة على نطاق واسع شمل عدة دول أسيوية, وقد عالجت موضوع الكاريكاتور في إطار الكوميديا في آسيا اعتمادًا على التراث التاريخي، بالإضافة إلى نماذج معاصرة للكوميديا ورسوم الكاريكاتور.

واستخدمت الدراسة المنهج التكاملي وأداة تحليل المضمون, كما انطلقت من فرضية هي أن الكاريكاتور يندرج ضمن دراسات فن الكوميديا في آسيا أكثر من انتمائه لدراسات الاتصال الجماهيري.

وتتنـاول الدراسـة تقاليـد فـن الكاريكاتـور في خمـس دول أسـيوية هـي اليابـان والهنـد والصـين وماليزيـا وتايـوان, وتغطـي الدراسـة فـترة زمنيـة طويلـة ترجـع إلى مـا قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة, حيـث تعالـج موضوعـات الحـرب والعـدوان اليابـاني عـلى دول أسـيا, وأنمـاط مـن الكاريكاتـور اليابـاني الدعـائي, كـما تتطـرق الدراسـة إلى تقاليـد الرسـوم الهزليـة والكاريكاتـور في القرنـين الثامـن عـشر والتاسـع عـشر في اليابـان, وكذلـك تـراث الكوميديـا في الهنـد والصـين والتـي ظهـرت في نصـوص مكتوبـة ورسـوم ظهـرت في كتـب قبـل ظهورهـا في الصحافـة المطبوعـة, في هـذا الإطـار إسـتخدمت الدراسـة أداة تحليـل المضمـون لتحليـل وإحصـاء استـخدامات الرمـوز والقصـص القديمـة في الكاريكاتـور الصينـي الحديـث.

وخلصـت الدراسـة إلى وجـود تقليديـن في آسـيا في النظـر للكارتـون, الأول يركـز عـلى الجانـب السـياسي, بينـما يناقـش الثـاني العلاقـة بـين الكارتـون وبـين الفلكلـور التقليـدي, ورغـم الاختـلاف بـين التقليديـن إلا أنهـما متداخـلان, خاصـة وأن التأثـيرات السياسـية تسـاعد في تشـكيل مضمـون وشـكل الكاريكاتـور في آسـيا.

ثانيًا: مشكلة الدراسة:

تتحـدد مشـكلة الدراسـة في أن الخطـاب الرسـمي والمعلـن الـذي قدمتـه أغلـب الصحـف القوميـة والمعارضـة في انتخابـات عـام ٢٠٠٠ يؤيـد ويشـجع مشـاركة المـرأة في السياسـة (٢٢)، بينـما لم يتخذ الحزب الوطنـي الحاكـم أو أحـزاب المعارضـة مـن المواقـف مـا يؤكـد صـدق هـذا الخطـاب عـلى المسـتوى الفعلي، مـن هنـا فـإن الصـور التـي قدمهـا خطـاب الكاريكاتـور في صحـف الحكومـة والمعارضـة ربمـا يسـتطيع أن يعـبر بحريـة عـن الخطـاب الحقيقـي للصحـف القوميـة والمعارضـة تجاه قضيـة المشـاركة السياسـية للمرأة في انتخابـات مجلـس الشـعب عـام ٢٠٠٠، كـما تـبرز أهميـه تحليـل الصـور والرمـوز التـي ناقـش مـن خلالهـا الكاريكاتـور مشـاركة المـرأة في انتخابـات ٢٠٠٠ كناخبـة ومرشـحة، لكـن مثـل هـذا التحليـل يثـير مشـكلات منهجيـة وإجرائيـة ربمـا كانـت مـن بـين أهـم أسـباب قلـة الدراسـات التـي تناولـت الكاريكاتور

بالتحليـل، فالطابـع المـزدوج للكاريكاتـور باعتبـاره فنًـا، وفي الوقـت نفسـه شـكلًا اتصاليًـا مؤثـرًا يعتمـد علـى الصـور والرمـوز والنصـوص المكتوبـة، يقلـل مـن القـدرة علـى التعميـم أو القيـاس الكمـي للمعـاني والمضامـين، الأمـر الـذي يتطلـب البحـث عـن مناهـج وأدوات جديـدة تتـماشى مـع طبيعـة الكاريكاتـور وقدرتـه التأثيريـة الكبـيرة علـى المتلقـين، والتـي قـد تعتمـد في جـزء منهـا علـى حريـة المتلقـي أحيانًـا في تفسـير أو تأويـل معـاني وصـور ودلالات الكاريكاتـور.

ثالثًا: أهداف الدراسة:

١- الكشـف عـن الرمـوز والـدلالات والصـور المبـاشرة أو غـير المبـاشرة التـي يقدمهـا الكاريكاتـور عـن مشـاركة المـرأة المصريـة في انتخابـات مجلـس الشـعب أكتوبـر- نوفمـبر٢٠٠٠.

٢- التعـرف علـى القيـم والمعـاني الرئيسـية التـي يقدمهـا الكاريكاتـور سـواء بالكلمـة أو الرسـم تجـاه قضايـا وأبعـاد مشـاركة المـرأة المصريـة في انتخابـات مجلـس الشـعب.

٣- اسـتخدام أطـر وأدوات منهجيـة جديـدة يمكـن بهـا تحليـل الكاريكاتـور والتعامـل مـع الإشـكاليات التـي يثيرهـا بوصفـه فنًـا سـاخرًا, ورسـالة إعلاميـة تعتمـد علـى الصـورة والنصـوص المكتوبـة, كـما لا يوجـد اتفـاق علـى مضامينهـا حيـث تتوافـر للقـارئ حريـة تفسـير معـاني ودلالات الكاريكاتـور.

رابعًا: تساؤلات الدراسة:

١- مـا هـي أبـرز المعـاني والرمـوز والاسـتعارات التـي قدمتهـا رسـوم الكاريكاتـور في الصحافـة القوميـة والحزبيـة؟

٢- إلى أي مـدى قدمـت رسـوم الكاريكاتـور صـورًا واقعيـة عـن الأدوار المختلفـة للمـرأة المصريـة في انتخابـات مجلـس الشـعب عـام ٢٠٠٠؟

٣- ما هي المواقف الصريحة والضمنية التي اتخذتها رسوم الكاريكاتور في الصحف القومية والحزبية تجاه مشاركة المرأة في السياسة بعامة وانتخابات عام ٢٠٠٠ تحديدًا؟

٤- هل توجد فروق من حيث الشكل والمضمون بين تناول رسوم الكاريكاتور في الصحف القومية والحزبية لقضايا المرأة ولمشاركة المرأة في انتخابات ٢٠٠٠؟

خامسًا:- الإطار النظري والمنهجي للدراسة:

تعرف الموسوعة البريطانية الكاريكاتور بأنه صورة مشوشة للتعبير عن شخصية أو حدث أو سلوك معين، كما يقدم فيه شخص المرسوم عادة في صورة ساخرة بها تشوهات متعمدة بأسلوب كوميدي وتحليل طريف، وكلمة كاريكاتور تشتق معناها من الفعل الإيطالي Caricure والذي يعني (to lead) أي يُحْمِّل الشيء أكثر من طاقته وحجمه الأساسي، وهو الذي يتم رسمه بالخطوط، والمستهدف منه أن ينشر على عموم الناس (٢٣).

ولفن الكاريكاتور خواص أربع هي: (٢٤)

أ. أن يكون ساخرًا.

ب. أن يكون ناقدًا يغالي في إبراز العيوب.

جـ. أن يكون مرسومًا.

د. أن ينشر على الجماهير.

وثمة تمييز مهم بين الكاريكاتور والكارتون والشرائح الفكاهية، فالأول هو تصوير للأشخاص وتجسيم للملامح التي تميز شخصًا عن آخر أو المبالغة في إبراز هذه الملامح مبالغة واضحة، وبذلك يتألف من الرسم الكاريكاتوري ومن الكلمات المصاحبة له نكتة تبعث على الضحك والسخرية، أما الكارتون فهو تعبير عن الحوادث وعن الأفكار وعن

المواقـف التـي يقـع فيهـا بعـض الأشـخاص أو الهيئـات وذلـك بقصـد توجيـه النقد الـلاذع لهؤلاء الأشـخاص أو الهيئـات في مواقفهـم وأفكارهـم واتجاهاتهم. (٢٥)

أمـا الشرائـح الفكاهيـة (Comic Strips) فقـد ظهـرت في السـنوات الأخـيرة مـن القـرن ١٩ وكانـت تتنـاول قصـة مسلسـلة مـن التاريـخ أو درامـا مؤلفـة، ولم تعتمـد فقـط عـلى الصحـف اليوميـة، ولكـن اعتمـدت أيضًـا عـلى الصحـف النقابيـة ولهـذه الشرائـح عـدة سـمات منهـا «التسلسـل» وتشـمل الصـور وبالونـات الجمـل التـي تتكلـم فيهـا الشـخصيات Balloons of Speech وكميـة مـن الشـخصيات (Cast) التـي يسـاعدها مظهرهـا وسـماتها عـلى جعـل القـارئ يتنبـأ بـردود أفعالهـا المسـتقبلية، وفي كثـير مـن الأحيـان كانـت هـذه الشرائـح تتضمـن شـخصيات سياسـية في قصـص سـاخرة بجـوار القصـص الدراميـة العاديـة. (٢٦)

ويمكـن القـول بتداخـل مفهومـي الكارتـون والكاريكاتـور وصعوبـة الفصـل بينهـما لأن كلا منهـما يمثـل طـورًا مـن أطـوار الكاريكاتـور مـع اختـلاف بسـيط في الشـكل، حتـى أن تسـمية كاريكاتـور هـي المسـتخدمة عـلى الإطـلاق في فرنسـا وإيطاليـا، وتسـمية كارتـون هـي المسـتخدمة عـلى الإطـلاق في الولايات المتحـدة وبريطانيـا.. حتـى أن أكـبر معـارض الكاريكاتـور (صالـون مونتريـال السـنوي) لـه اسـمان: (٢٧)

The International salon of Cartoon

Le Salon International de la Caricature

في هـذا الإطـار درجـت الأبحـاث الأمريكيـة والبريطانيـة عـلى اسـتخدام لفـظ الكارتون, ومن ثـم فإن الأدبيـات والدراسـات المتوافـرة باللغـة الإنجليزيـة تسـتخدم تسـمية الكارتـون لوصف وتحليل مـا درج على تسـميته في مـصر بالكاريكاتـور, كـما أن بعـض الأبحـاث الأمريكية تشـير إلى الخلط والاسـتخدام المزدوج بين الكارتـون والكاريكاتـور حيـث تـرى أن الأول قـد يتضمـن عناصر من الثـاني, ويـرى Medhust & Desousa أن هنـاك أربعـة تكينـكات يسـتخدمها الكارتون في تبسـيط الأفكار والأحداث هي: التركيـز على الموضوعات

السياسـية اليوميـة المألوفـة, واسـتخدام الخيـال, والكاريكاتـور بمعنـى المسـحة الشـخصية في الموضـوع والتـى تأخـذ غالبًـا صيغـة المبالغـة, أمـا التكنيـك الرابـع فهـو التوقيـت بمعنـى ارتبـاط موضـوع الكارتـون بتوقيـت موقـف أو حـدث معـين, وهـذا التكنيـك يـؤدي إلى صعوبـة تفسـير الكارتـون في سـياق زمنـي مختلـف عـن السـياق الـذي رسـم فيـه, فالكارتـون الـذي رسـم قديمًـا يصعـب تفسـيره في الأزمنـة المعاصرة (٢٨).

والثابـت أن الكارتـون- الكاريكاتـور السـياسي يعمـل عـلى التأثـير في الـرأي العـام مـن خـلال الاسـتخدام الواسـع والمكثـف لرمـوز مفهومـة وعلامـات ومراجـع وأشـكال مـن الخيـال يمكـن إدراكهـا (٢٩), كـما أن لـه تأثـيرًا كبـيرًا في عمليـات الاتصـال السـياسي والاجتماعـي ومناقشـة قضايـا المجتمـع وسياسـاته المحليـة والخارجيـة حيـث ثبـت أنـه يؤثـر في الـرأي العـام, كذلـك فـإن قادة الـرأي والسياسـيون يهتمـون بمـا يطرحـه مـن آراء ومواقـف، كـما يهتمـون أيضًـا بالصـور التـي يقدمهـم بهـا للجمهـور, ولعـل الطاقـة التأثيريـة للكارتـون- الكاريكاتـور ترتبـط بقدرتـه عـلى تبسـيط القضايـا المعقدة في أشـكال بسـيطة ومفهومـة للجمهـور, بالإضافـة إلى أن الكارتـون- الكاريكاتـور يسـتطيع أن يطـرح قضايـا يعجـز عـن طرحهـا الكتـاب والمحـررون لأنـه شـكل فنـي يسـتخدم رمـوز وينتقـد مـن خـلال السـخرية والفكاهـة, أنـه كـما قـال conners منطقـة آمنـة للتعبـير عـن الآراء (٣٠).

ومـع ذلـك هنـاك مـن يـرى أن الكارتـون- الكاريكاتـور لم يـدرس بشـكل شـامل, ولذلـك لا يمكـن القـول بأنـه يسـتطيع تغيـير الاتجاهـات أو المعتقـدات، لأن تأثـيره وفهمـه يختلـف مـن شـخص لآخـر, كـما أن أهميتـه ترتبـط بكيفيـة اسـتخدام وفهـم القـراء لـه، في ضـوء ثقافتهـم ومشـاعرهم تجـاه مـا يقـدم مـن الكاريكاتـور (٣١), مـن هنـا اقـترح بعـض الباحثـين مجموعـة مـن الأثـار والوظائـف المبـاشرة وغـير المبـاشرة للكاريكاتـور, فهـو يجعـل المواطنـين يفكـرون, ويديـر حـوارًا بـين النـاس, كـما يبسـط أي قضيـة إلى الحـد الـذي يصبـح فيـه أسـلوب الرسـالة مفهومًـا بهـدف الحصـول عـلى موافقـة أو رفـض الجمهـور (٣٢).

ورغـم نسـبية مفهـوم الكارتـون- الكاريكاتـور المبسـط إلا أن التبسـيط يظـل هـدف كل رسـامي الكاريكاتـور بغـض النظـر عـن اختـلاف معايـير الكارتـون- الكاريكاتـور البسـيط والمعقـد, ويـرى (وليمـز) أن الكارتـون السـياسي يعتـبر شـكل بـدائي للوسـيلة المرئيـة والمقـروءة, وأن النـص المكتـوب والمصاحـب للكارتـون يرشـد أو يـدل عـلى رسـالة الكارتـون ويعتـبر (وليمـز) أن الكارتـون هـو شـكل مـن أشـكال التعليـق الصحفـي الـذي صمـم مـن أجـل التأثـير في القـراء مثـل بقيـة تعليقـات الـرأي والمـادة التحريريـة في الصحيفـة، ولكـن الكارتـون يتميـز بقدرتـه عـلى نـشر مـا يريـد بدهـاء ومكـر, بينـما لا تسـتطيع بقيـة المـواد التحريريـة أن تقـوم بذلـك, وخلـص (وليمـز) إلى أن الكارتـون يعـبر عـن الآراء تجـاه الأحـداث والأخبـار اليوميـة أكـثر مـن التقاريـر والأخبـار الواقعيـة، لذلـك فإنـه قـد يحـل أحيانًـا محـل المـواد التحريريـة ومـواد الـرأي في الصحيفـة. (٣٣)

حصـاد مـا سـبق يمكـن القـول إن الكاريكاتـور- الكارتـون رسـالة إعلاميـة مرئيـة ومقـروءة, وفـن سـاخر قـادر عـلى التأثـير في الجمهـور, كـما يمكـن النظـر إليـه- رغـم طبيعتـه المزدوجـة كفـن سـاخر ورسـالة إعلاميـة- ضمـن وسـائل الإعـلام التـي تقـوم بوظائـف عديـدة في المجتمـع الحديـث حيـث تنقـل الأخبـار والمعلومـات، كـما تسـاهم بجـزء كبـير في عمليـات التنشـئة الاجتماعيـة والتثقيـف، عـلاوة عـلى دور وسـائل الإعـلام المهـم في التسـلية والترفيـه (٣٤) .

وعندمـا تقـوم وسـائل الإعـلام بهـذه الوظائـف والأدوار فإنهـا تعمـل مـن خـلال خلـق أو تغيـير أو دعـم الآراء والاتجاهـات لـدى الجمهـور، وكذلـك تشـكيل الـرأي العـام، ويتفـق الباحثـون عـلى أن الجمهور يـدرك مـا تقدمـه وسـائل الإعـلام مـن خلال رمـوز أو صـور، وتربط وسـائل الإعلام بـين هذه الرمـوز والصور وبـين معـاني معينـة تترسـخ عنـد الجمهـور، وتكتسـب قوتهـا مـع اسـتمرار تكرارها في وسـائل الإعـلام، حتى تتحـول تلـك المعـاني إلى حقائـق اجتماعية.وترجـع البدايـات الأولى للاهتـمام بـدور الإعـلام في بنـاء المعـاني وخلـق الحقائـق الاجتماعيـة إلى مـا قـرره (ولـتر ليبـمان Walter Lippman) عـام ١٩٢٢ في كتابـه «الـرأي العـام» عـن دور الصحافـة في خلـق الصـورة التـي في رؤوس النـاس عـن العـالم الخارجـي، وذلـك مـن خـلال

عملية جمع ونشر الأخبار وتفسيرها، فالأخبار التي تقدم في الصحافة ليست مجرد مرآة للظروف الاجتماعية، بل على العكس من ذلك فالصحافة تقحم نفسها في عملية تقرير أو نقل الأخبار وتفسيرها للناس، وخلص (ليبمان) إلى أن الناس لا يتصرفون على أساس الحقائق أو التي يرونها أوتحدث بالفعل، لكن على أساس ما يعتقدون أنه موقف حقيقي، ويأتي هذا الاعتقاد إليهم عبر المعنى والتفسير الذي تقدمه الصحافة (٣٥), ووسائل الإعلام الأخرى.

وفي السبعينات طور (جاربنر Gerbner) وفريقه البحثي ما طرحه ليبمان، وحاول صياغة نظرية الغرس Cultivation Theory والتي تركز أساسًا على تأثير التليفزيون على المشاهدين، والفرضية الأساسية لهذه النظرية أن تكرار التعرض للصور والأفكار التي يقدمها التليفزيون يؤثر على إدراك الناس للموضوعات ، بحيث يدركونها بنفس الطريقة، وفي نفس الاتجاه الذي تقدم به من خلال التليفزيون، بعبارة أخرى فإن كثرة مشاهدة ما يقدمه التليفزيون تجعل الفرد ينظر للحقائق الاجتماعية في ضوء مضمون ما شاهده (٣٦).

وتبدو أهمية إسهامات (والتر ليبمان) و(جاربنر) في تحليل الكاريكاتور أو الكارتون من زاوية أن كلاً منهما يعتبر شكلًا من أشكال الاتصال المرئي رغم اعتماده على الصور والرموز مع بعض النصوص القصيرة والتعليقات, ويلاحظ (وليمز) أن الكارتون- الكاريكاتور يعتبر مصدرًا رئيسيًا للصور المبالغ فيها حيث يستخدم الصور النمطية والكاريكاتور وعناصر المبالغة, ومثل هذه الاستخدامات تؤثر في إدراك الأفراد للواقع المحيط بهم, ويؤكد (وليمز) أن الكارتون- الكاريكاتور يعتبر جزءًا من نظام الاختيار الذي يساعد على بناء الحقيقة, ويضيف نقلًا عن (ادلمان Edelman) أن وسائل الإعلام تساعد في بناء الحقيقة الاجتماعية التي يستجيب لها الناس, وأن المعنى لا يأتي من خلال العمليات الاتصالية، بل يبنى من خلالها، ويضيف (وليمز) أن المعاني تنشأ من اهتمامات منتج الرسالة- رسام الكاريكاتور- والتي يحملها المضمون، ومن خلال تفسير المتلقي

(٣٧) ويقـول (Medhurst & Desousa) أن هنـاك عـدد محـدود مـن الدراسـات التـي حاولـت شرح وتفسـير الجوانـب الإقناعيـة للكارتـون- الكاريكاتـور باعتبـاره شـكلًا فنيًـا واتصاليًـا, وأشـار إلى أن كثـيرًا من الباحثـين فشـلوا في شرح الصـور التـي يقدمهـا والمسـاهمات الأساسـية للكارتـون في تشـكيل المعـاني, وأكـد (Medhurst & Desousa) أن الكارتـون السـياسي مصمـم أساسًـا لتقديـم الآراء والتعليقـات اعتـمادًا عـلى الصـور, وبشـكل مبسـط ومختصر يمكـن القـارئ مـن فهمـه بسـهولة ويـسر؛ لذلـك يسـتطيع القـارئ أن يتذكـره بسـهولة (٣٨).

ورغـم أهميـة دور الكارتـون- الكاريكاتـور في خلـق وتفسـير الصـور والمعـاني، إلا أن هـذه الوظيفـة ترتبـط بعمليـة التلقـي, أي قـدرة القـارئ عـلى الفهـم واسـتيعاب الأهـداف التـي يحـاول القائـم بالاتصال- رسـام الكاريكاتـور- تحقيقهـا, فقـد وجـد (كارل Karl) في دراسـته لفهـم القـراء للكاريكاتـير أن ١٥٪ فقـط مـن القـراء فهمـوا محتـوى الرسـالة الموجهـة إليهـم مـن خـلال الرسـم (٣٩), في هـذا السـياق يثـار جـدل ونقـاش حـول عمليـة تفسـير وفهـم معـاني الكارتـون- الكاريكاتـور إذ أنـه مهـما كان بسـيطًا وواضحًـا إلا أنـه يوفـر عـددًا مكثفًـا مـن الرمـوز التـي تقـترح معنـى أو معـانٍ للشـكل الخـاص بالموضـوع, ومـن ثـم يسـاعد الكارتـون عـلى تقديـم عـدد غـير محـدود مـن التفاصيـل والمعـاني والـدلالات التـي قـد يختلـف القـراء في فهمهـا واسـتيعابها, إن الصـور المرئيـة والتعليقـات والشـعارات أو العبـارات المترابطـة في الكاريكاتـور تـدل عـلى أنـواع مـن المخرجـات أو النتائـج التـي تعكـس شـعور الفنـان- القائـم بالاتصـال- وموقفـه مـن الموضـوع الـذي يعالجـه، مـن هنـا فـإن مـا يقدمـه الكاريكاتـور يعتـبر خطابًـا متحـولًا لأنـه يعالـج أحـداث وقضايـا غـير ثابتـة، بـل يطـرأ عليهـا كل يـوم جديـد, إن الجوانـب المتحولـة في خطـاب الكاريكاتـور- الكارتـون السـياسي تزودنـا بعدسـة ننظـر مـن خلالهـا للصـور والمعـاني الصريحـة والضمنيـة, ويسـاعد المجتمـع عـلى أن يـرى نفسـه ويـدرك هويتـه في ضـوء المشـكلات التـي يواجههـا (٤٠).

إن التسـليم بالطبيعـة المتحولـة لخطـاب الكاريكاتـور- الكارتـون السـياسي, كـما أن التسـليم بطبيعتـه المزدوجـة باعتبـاره فنًـا مرئيًـا مقـروءًا ورسـالة إعلاميـة، تشـجع عـلى رفـض الفكـرة السـائدة بـأن للكاريكاتـور معـاني صريحـة وضمنيـة يمكـن للقـراء الاتفـاق عليهـا, بعبـارة أخـرى مـن الصعـب تحقيـق إجـماع أو اتفـاق بـين القـراء عـلى معـاني ودلالات الكاريكاتـور- الكارتـون, كذلـك يصعـب افـتراض أن أهـداف وأغـراض القائـم بالاتصـال- فنـان الكاريكاتـور تنطبـق أو تتفـق مـع أهـداف الجمهـور المتلقـي، مـن هنـا ظهـرت انتقـادات عديـدة للدراسـات التـي اسـتخدمت تحليـل المضمـون الكمـي في تحليـل الكاريكاتـور- الكارتـون حيـث يصعب الاتفـاق عـلى معانيـه ودلالاتـه كـما يصعـب إخضـاع معـاني ودلالات ورمـوز الكاريكاتـور- الكارتـون، للعـد الإحصـائي, وقـد ظهـرت في المقابـل منهجيـة الهرمنيوطيقيـا (٤١) كإطـار لتحليـل الكاريكاتـور- الكارتـون السـياسي, وهـذا التحليـل يعنـي الممارسـات المنطقيـة التـي تظهـر مـن خـلال الموضوعـات التـي تشـكل الخطـاب المصور الكاريكاتـور- الكارتـون, ولا يهتـم بكيـف سـيفسر القـراء بشـكل فعـلي الكارتـون- الكاريكاتور في سـياق الحيـاة اليوميـة، ولكـن إلى حـد مـا فـإن التحليـل الهرمنيوطيقيـا للكارتـون السـياسي يسـمح بوصـف مـادة الخطـاب عنـد النقطـة التـي يتصـل بهـا القـارئ، وتـزوده بآليـة لتحديـد نطـاق القـراءة الممكنـة التـي يشـكلها القـراء, وذلـك يعنـي أن القـارئ قـد يكـون قـادرًا بشـكل كامـل أو جـزئي عـلى كشـف معنـى الكاريكاتـور- الكارتـون (٤٢).

عـلى أن التحليـل السـيمولوجي للكارتـون- الكاريكاتـور السـياسي ومنهجيـة الهرمنيوطيقيـا تظـل مرتبطـة بالأطـر الثقافيـة السـائدة، والتـي يمكـن مـن خلالهـا فقـط فهـم وتفسـير معـاني ودلالات الرمـوز والاسـتعارات التـي يسـتخدمها الكارتـون- الكاريكاتـور السـياسي.

مدخل التحليل الثقافي:-

تنتمـي هـذه الدراسـة إلى الدراسـات الوصفيـة, وتتبنـى مدخـل التحليـل الثقـافي Cultural analysis approach الـذي اسـتخدم في الكثـير مـن البحـوث الاجتماعيـة، خاصـة بحـوث اللغـة، وعلـم النفـس، والاجتـماع، والأنثروبولوجيـا، والإعـلام، عـلاوة عـلى الدراسـات الأدبيـة، وقـد سـاعد

انتشـار اسـتخدامات مدخـل التحليـل الثقـافي عـلى تطويـره وبلورتـه حيـث ظهـرت الدراسـات الثقافيـة Cultural studies كحقـل معـرفي جديـد، يهـدف إلى التحليـل النقـدي لمفاهيـم ونظريات العلـوم الاجتماعية ومحاولـة التأليـف بينهـا والاسـتفادة مـن إسـهاماتها (٤٣).

ورغـم عـدم تبلـور الدراسـات الثقافيـة وافتقارهـا لإطـار نظـري موحـد، فقـد انتـشرت عـلى نطـاق واسـع في التسـعينات باعتبارهـا تركـز عـلى نقـد الخطـاب، والاهتـمام بالثقافـة الشـعبية وآليـات الهيمنـة، ونقـد الطابـع الأيديولوجـي للتأثـير الإعلامـي، فضـلًا عـن نقـد عمليـات إنتـاج الجمهـور المتلقـي المطـوع مسـتهلك السـلع والخدمـات. (٤٤)

ويـرى (كلـنر Kellner) أن الدراسـات الثقافيـة في حاجـة إلى إعـمال مقـولات الحداثـة ومـا بعـد الحداثـة في آن واحـد، مـن هنـا اسـتفاد مـن تحـولات البنيويـة، ومقـولات مدرسـة بيرمنجهـام ومدرسـة فرانكفـورت، وطـرح مفهومـه لنقـد ثقافـة الوسـائل Media Culture الـذي يقـوم عـلى أسـاس أخـذ الثقافـة كمجـال للدراسـة، بحيـث لا يجـري التفريـق بـين نـص راق وآخـر هابـط، وعـدم الانحيـاز لأي منهـما، ولا بـين الشـعبي والنخبـوي، ثـم إن المصطلـح- يقصـد ثقافـة الوسـائل- يكـسر الفواصـل التقليديـة فيـما بـين الثقافـة وفعـل الاتصـال، ويفتـح المجـال للنظـر في الثقافـة بوصفهـا إنتاجًـا، وللنظـر في وسـائل توزيعهـا وطـرق اسـتهلاكها، ذلـك لأن الثقافـة ذات طبيعـة اتصاليـة، والتفريـق بينهـا وبـين فعـل الاتصـال مـا هـو إلا تفريـق عشـوائي وتعسـفي، فالثقافـة تحـدث بالاتصـال، والاتصـال يحـدث بهـا (٤٥).

وكان (مارشـال ماكلوهـن) قـد قـرر أن أدوات الاتصـال تعتـبر امتـدادًا لحـواس الإنسـان، ولهـا دورهـا في تغيـير الإنسـان والتأثـير عـلى أسـلوب حياتـه، أي ثقافتـه. (٤٦) ومـن الثابـت أن وسـائل الإعـلام تلعـب دورًا ضمـن عوامـل أخـرى في تشـكيل القوالـب النمطيـة Stereotypes والتصـورات ونوعيـة الخطابـات، عـلاوة عـلى تأثيرهـا في اللغـة والقيـم والمعايـير، وهـي متغـيرات تؤثـر بدورهـا في تكويـن الـرأي العـام. (٤٧)

إن الثقافة كما أشار (ادوار هول E.Hall) هي اتصال، من ناحية أخرى توصلت بعض الدراسات إلى أن الاتصال بين أشخاص متشابهين في خلفيتهم الثقافية يكون أيسر وأسرع وموثوق فيه بدرجة أكبر، مقارنة بالاتصال بين أشخاص من ثقافات مختلفة، كما أن التعرض لوسائل الإعلام، بما في ذلك ما تقدمه من إعلانات، يختلف من ثقافة لأخرى. (٤٨)

ويمكن القول بأن الامتزاج والتداخل بين الثقافة ووسائل الاتصال يساعد في إدراك وتحليل عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وكذلك في الكشف عن عملية الهيمنة وفق المفهوم الغرامشي، حيث لا تحدث الهيمنة وفق قوة المسيطر فحسب، ولكنها أيضًا تتمكن منا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلم بوجاهتها، في هذا الإطار فإن ثقافة الإعلام تصيغ مستهلكيها وتسخرهم كذوات برغبات وقيم محددة، وهذا ما يسميه (ألتوسير) بالاستجواب interpellate، وهذا مفهوم يشير إلى ما تفعله الإعلانات الدعائية حينما تخاطبك كإنسان ذي خصوصية، بوصفك مستهلكًا تتحلى بذوق نوعي متقدم، وعبر زخ هذه الصفة فيك مرة، ومرة وأخرى لتصبح أمام نفسك وكأنك المصنف بتلك السمات. (٤٩) إن الدراسات الثقافية تحدد موقع ومكانة وسائل الإعلام كأداة لتكوين أفكار الناس عن أنفسهم وعن العالم. (٥٠)

إن إشكالية الكاريكاتور أنه ليس مجرد رسم، أو رسم تصاحبه بعض الكلمات والتعليقات، كما أنه ليس مجرد أداة أو وسيلة اتصال محايد، بل هو نص ثقافي، غني بالرموز والدلالات، كما أنه له تأثيره الثقافي ودوره في تشكيل التاريخ وتنميط الثقافة، وقد اعتبر (رولان بارت) الدعاية والإعلان ضمن المؤسسات الرسمية للغة. «فالمدرسة والرياضة والدعاية والعمل الجماهيري والأغنية والإعلام، تعبر كلها وعلى الدوام عن البنية نفسها، عن المعنى ذاته، وأحيانًا عن الكلمات ذاتها، إن تقولب التعبير هو واقع سياسي، وهي الصورة العظمى للأيديولوجيا». (٥١) أي أن الخطاب يكرر ذاته أو يتجسد في أشكال وصور مختلفة لكنه يظل هو نفسه الخطاب, أو بعبارة (ميشيل فوكو) يجب أن نتصور الخطاب كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة

(٥٢). وبناء على هذه الفرضية تفضل مدارس تحليل الخطاب, والتحليل ما بعد البنيوي، لعينات قليلة العدد، مع إخضاعها لتحليل مكثف وعميق, ومثل هذا التوجه يختلف عن مدارس التحليل الكمي التي تختار عينات كبيرة لا يمكن معها تحقيق هدف التحليل العميق والمكثف.

ورغم التقلبات الفكرية لـ(رولان بارت), إلا أنه يمكن الاستفادة من أعماله، وكذلك الاستفادة من مساهمات (ميشيل فوكو) والتي سبقت (رولان بارت) فيما يتعلق بالخطابات كمصطلح يجمل فيه كل أشكال الحياة الثقافية وتصنيفاتها (٥٣)، ذلك أن الاعتقاد بموضوعية النص ينطلق من الاعتقاد بالخطاب الكوني للغة بوصفها أداة اتصال ذات أبعاد منطقية، وبنية لغوية أو بنية الجملة، ولكن في اللغة، كل لغة، مستوى آخر من الخطاب هو خطاب الثقافة التي تنتمي إليها اللغة، ومستوى ثالث من الخطاب يكون فيه المتحدث أو السامع فردًا توجه فهمه واستجابته خبراته بالواقع واللغة، وهي خبرات أكثر خصوصية تسمح بالتأويل، (٥٤) وعلى ذلك تستخدم الدراسة أداة تحليل الخطاب لتحليل عينة من الرسوم الكاريكاتورية المنشورة في الصحافة المصرية، بوصفها تشكل خطابًا يتوجه إلى القارئ، ويتوسل بالصور والرموز والكلمات والقيم ليقدم صورًا وأفكارًا ومضامين عن المشاركة السياسية للمرأة في فترة زمنية محددة، هي انتخابات مجلس الشعب خلال الفترة من أكتوبر إلى نوفمبر ٢٠٠٠.

عينة التحليل:

لتحقيق أهداف هذه الدراسة قام الباحث بإجراء مسح أولي لاختيار عينة تمثل الكاريكاتور الذي تناول المشاركة السياسية للمرأة بصورة مباشرة أو غير مباشرة, وشمل هذا المسح الكاريكاتور المنشور في عدة صحف قومية وحزبية هي (الأهرام، الأخبار، الجمهورية، الوفد، الأهالي، العربي، ومجلة روز اليوسف) خلال الفترة من بداية أكتوبر وحتى نهاية نوفمبر ٢٠٠٠، وقد شهدت هذه الفترة المراحل الثلاث للانتخابات المصرية في كل الدوائر الانتخابية، والتي جرت لأول مرة تحت الإشراف الكامل والمباشر للقضاء، وتبين

مـن المسـح الأولي قلـة- وأحيانًـا نـدرة- رسـوم الكاريكاتـور التـي تناولـت المشـاركة السياسـية للمـرأة فيهـا في انتخابـات مجلـس الشـعب، وفي ضـوء ذلـك اسـتبعد الباحـث صحـف (الأهـرام والعـربي والأهـالي) نظـرًا لنـدرة رسـوم الكاريكاتـور التـي تناولـت المشـاركة السياسـية للمـرأة، واقتـصرت عينـة التحليـل عـلى الكاريكاتـور في صحـف (الأخبـار والوفـد وروز اليوسـف)بمجموع ١٧ رسـمًا كاريكاتوريًـا خـلال شـهري أكتوبـر ونوفمـبر، بواقـع ٩ رسـوم في الوفـد، ٤ في روز اليوسـف، ٤ في الأخبـار، ومثـل هـذه الأرقـام تعكـس قلـة اهتـمام الكاريكاتـور بقضايـا وأبعـاد المشـاركة السياسـية للمـرأة، وأن الموضـوع لم يكـن مدرجًـا ضمـن أو لويـات اهتـمام الصحـف سـواء القوميـة أو الحزبيـة، مـع ملاحظـة أن صحيفـة الوفـد كانـت أكـثر اهتمامًـا مـن الأخبـار باسـتخدام الكاريكاتـور في مناقشـة المشـاركة السياسـية للمـرأة المصريـة في الانتخابـات.

سادسًا: نتائج تحليل خطاب الكاريكاتور في صحيفة الوفد:

عالجـت صحيفـة الوفـد قضايـا وأبعـاد المشـاركة السياسـية للمـرأة مـن خـلال ٩ رسـوم كاريكاتوريـة بريشـة عمـرو عكاشـة، وقـد ركـزت الرسـوم الكاريكاتوريـة التسـعة عـلى نقد ومهاجمـة الحكومـة والحزب الوطنـي، ومثـل هـذا التوجـه قـد يتفـق مـع مواقـف ورؤيـة صحيفـة الوفـد كلسـان حـال لأحـد أحـزاب المعارضـة، لكـن مـن غـير المفهـوم أو المـبرر اسـتخدام رمـوز وصـور سـلبية عديـدة للمـرأة في عمليـة نقـد الحكومـة وممارسـاتها ضـد أحـزاب المعارضـة.

ويصـور الكاريكاتـور الأول في صحيفـة الوفـد أم تحمـل طفلهـا عـلى يدهـا وقـد سـال لعابـه بغـزارة ويحدثهـا الدكتـور عاطـف عبيـد رئيـس الحكومـة المصريـة السـابق, وقـد تـم تصويـره في صـورة مشـعوذ يلبـس طرطـورًا, ويقـرأ الـودع, ويكتـب، الأحجبـة، وقـد أطلـق عليـه الرسـام اسـم الدكتـور مزيـد «مزيـد مـن دعـم الأسـعار، مزيـد مـن تطويـر الخدمـات...».

ويقـول الدكتـور مزيـد للمـرأة: «ابنـك ريقـه بينــزل عـلى طـول.. خـذي رمز الحـزب الوطنـي واعملي حجـاب وهـو هاينشـف ريقـه»، وفي ذلـك دلالـة رمزيـة مبـاشرة عـلى أن تصريحـات د. عاطـف عبيـد بشـأن الخدمـات الحكوميـة في كافـة الميادين تـؤدي إلى معانـاة المواطنين, فـلا تخفـى المعـاني والـدلالات المرتبطـة «بتنشـيف الريـق» في خطـاب الحيـاة اليوميـة المصريـة.

وتعكـس هـذه المعـاني موقـف صحيفـة معارضـة يسـتعد الحـزب الـذي تنطـق باسـمه لخـوض الانتخابـات البرلمانيـة، لكنهـا تـسيء للمـرأة, حيـث جعلتهـا تؤمـن بالشـعوذة والخرافـة والأحجبـة, وهـو مسـتوى متـدن وبـدائي مـن التفكـير والسـلوك لا يليـق بوضـع المـرأة المصريـة في مطلـع القـرن الحـادي والعشريـن.

ومـن عجـب أن رسـام الكاريكاتـور يسـتطيع أن يوصـل نفـس هـذه الأفـكار للقـارئ بصـورة أخـرى لا تـسيء إلى المـرأة ولا تجعلهـا محصـورة في صـور نمطيـة تحـاول أن تكرسـها وسـائل الإعـلام, وهـي صـورة المـرأة التـي تؤمـن بالدجـل والشـعوذة ولا تؤمـن بالطـب الحديـث.

مـن جهـة ثانيـة فقـد صـور كاريكاتـور الوفـد رئيـس الـوزراء كمشـعوذ يدعـي ممارسـة الطـب، لأن مـا يصـوره الكاريكاتـور هـي طقـوس مـن الدجـل والشـعوذة والكـذب, خاصـة وأن شـخصية رئيـس الـوزراء في الكاريكاتـور المرسـوم تعلوهـا لافتـة تطلـق عليـه لقـب الدكتـور «مزيـد» وكتـب تحتهـا مزيـد مـن دعـم الأسـعار, مزيـد مـن تطويـر الخدمـات, في إشـارة واضحـة- وبمنطـق المخالفـة- إلى أن رئيـس الـوزراء يطلـق تصريحـات لا يعمـل بهـا ولا يطبقهـا.

ويرسـم الكاريكاتـور الثـاني (٥٦) صـورة كئيبـة لمسـتقبل الديمقراطيـة في مـصر، حيـث يصـور امـرأة بدينـة تحمـل جنينـين في بطنهـا, وهنـاك لوحـة إعلانيـة كتـب عليهـا «انتخبـوا عبـده الأقـرع رمـز الهـلال» ويخاطـب أحـد الجنينـين الآخـر ويقـول لـه «يـا عـم خلينـا قاعديـن.. يعنـي هنخـرج لمـين.. للتزويـر والـلا للحـزب الوطنـي» أي أن الكاريكاتـور يشـير بوضـوح إلى أن هنـاك تزويـر سـيتم في الانتخابـات القادمـة لصالـح الحـزب الوطنـي.

وبغـض النظـر عـن الـدلالات والمعـاني السياسـية، فـإن هـذا الكاريكاتـور قـد أسـاء إلى المـرأة, حيـث صورهـا في صـورة زوجـة بدينـة, كـما أنـه يحمـل دلالـة ضمنيـة وهـي أن المـرأة لم تخلـق سـوى للـزواج والإنجـاب ولا يهمهـا مـا يـدور مـن حولهـا، وهـي صـورة نمطيـة تـسيء إلى وضـع المـرأة المصريـة وتقلـل مـن شـأنها، عـلى مسـتوى ثـان لا يخفـى الجانـب التهكمـي السـاخر مـن مرشـحي الحـزب الوطنـي, عـلاوة عـلى النزعـة التشـاؤمية في النظـر للواقـع السـياسي في مـصر ولمسـتقبل الديمقراطيـة.

ويتهكـم الكاريكاتـور الثالـث في خطـاب الوفـد (٥٧) مـن سـذاجة الحـزب الوطنـي، ويقدمـه في صـورة رجـل جاهـل مؤمـن بالسـحر والشـعوذة، يجلـس متلهفًـا وقلقًـا أمـام امـرأة ترمـي الـودع وتدعـي معرفـة المسـتقبل, وتخاطبـه قائلـة: «شـايفة حـزب معـارض زيـن، مـش عارفـة طلـع لـك منـين، هياخـذ ١٠٠ مقعـد في الانتخابـات, ويدوخـك السـبع دوخـات، قـول إن شـاالله»، والدلالـة القريبـة لهـذا الكاريكاتـور هـو أن حـزب الوفـد كان يأمـل في الحصـول عـلى ١٠٠ مقعـد في انتخابـات مجلـس الشـعب لـكي يسـتطيع معارضـة الحـزب الوطنـي في البرلمـان بقـوة وفاعليـة, وقـد حـاول رسـام الكاريكاتـور عمـرو عكاشـة أن يحقـق فكرتـه مـن خـلال الدجـل والشـعوذة الـذي تمارسـه بعـض النسـاء، مـما قـد يـسيء إلى صـورة المـرأة عمومًـا، فالمـرأة هنـا مجـرد وسـيلة يسـتخدمها الرسـام لتحقيـق مـا يصبـو إليـه مـن أفـكار، وهـو لا يهمـه أن يكـرس صـورة نمطيـة سيئة عنهـا, فالمـرأة في ذهنـه ليسـت إلا وسـيلة لتحقيـق غايتـه، كـما أن دور المـرأة هنـا لا يتعـدى مجـرد ضرب الرمـل وقـراءة الـودع للتنبـؤ بالمسـتقبل السـياسي للحـزب الوطنـي وأحـزاب المعارضـة في انتخابـات مجلـس الشـعب.

ومـن صـورة المـرأة التقليديـة التـي تؤمـن بالدجـل والشـعوذة يقـدم الكاريكاتـور الرابـع في خطـاب الوفـد (٥٨) صـورة للمـرأة الأرملـة المخلصـة لذكـرى زوجهـا الميـت, لكنهـا مـع ذلـك مهمشـة وعاجـزة عـن الفعـل السـياسي، فيصـور كاريكاتـور الوفـد سـيدتين تسـأل إحداهـما الأخـرى عـن موعـد الانتخابـات نظـرًا لأن المرحـوم٠٠ «وحشـها قـوي، وهـو يـأتي ليزورهـا بعـد أن يـدلي بصوتـه للحكومـة في الانتخابـات» والدلالـة القريبـة والمبـاشرة في هـذا الكاريكاتـور هـي اتهـام الحكومـة بتزويـر الانتخابـات مـن خـلال الاسـتعانة بأسـماء المـوتى، وعـدم تنقيـة كشـوف الانتخابـات مـن أسـماء المتوفـين، أمـا الدلالـة غـير المبـاشرة والتـي تنعكـس بصـورة سـلبية عـلى المـرأة هـي أن دورهـا في الحيـاة بعـد وفـاة زوجهـا يقتـصر عـلى الحـزن عـلى فراقـه، دون أن تكـون لهـا أدنى علاقـة مـن قريـب أو بعيـد بالعمليـة الانتخابيـة، وهـو مـا يكـرس حالـة اللامبـالاة السياسـية عنـد المـرأة, وعـدم اهتمامهـا بمـا يـدور حولهـا في المجتمـع، حتـى وإن تـم اسـتخدام اسـم زوجهـا المتـوفي في التصويـت لصالـح الحكومـة.

ويـأتي الكاريكاتـور الخامـس (٥٩) بصـورة مناقضـة لصـورة المـرأة الأرملـة أو المـرأة التقليديـة السـاذجة المؤمنـة بالدجـل والشـعوذة، حيـث يقـدم الكاريكاتـير صـورة للمـرأة كراقصـة شرقيـة ترقـص عـلى ضربـات إيقـاع أحـد مرشـحي الحـزب الوطنـي, الـذي ظهـر في الرسـم ممسـكًا بطبلـة ومكتـوب فـوق رأسـه «المرشـح النزيـه يقـف بجانـب كل مـن يحتـاج إليـه», وقـد اسـتخدم رسـام الكاريكاتـور منطـق المخالفـة للكشـف عـن دلالـة ومعنـى هـذا الكاريكاتـور، فالمرشـح النزيـه يرتـدي الـزي التقليـدي الـذي يظهـر بـه اللصـوص في الكارتـون والكاريكاتـور- قميـص مخطـط بالعـرض باللونـين الأبيـض والأسـود- وهـذا المرشـح يبـدو في صـورة الرجـل المسـتهتر غـير الجـاد المحـب للمتعـة والرقـص الشرقـي, ولعـل الكاريكاتـور هنـا يذكـر القـراء بعضـو مجلـس الشـعب عـن الحـزب الوطنـي الـذي عـرف بعضـو النقـوط وقصتـه مـع إحـدى الراقصـات، أمـا صـورة المـرأة هنـا فهـي لا تزيـد عـن كونهـا مجـرد راقصـة تـسري عـن عضـو مجلـس الشـعب الـذي تقـع عـلى عاتقـه مهـام ومسـئوليات جسـيمة، والرسـم بـلا شـك يقـدم صـورة سـلبية تـسيء إلى وضـع المـرأة، إذ يقدمهـا كموضـوع للـذة أو المتعـة عـبر الرقـص، مـن جانـب آخـر فـإن المـرأة هنـا تشـارك المرشـح النزيـه الـذي يرتـدي ملابـس اللصـوص في المجـون والخلاعـة.

عـلى مسـتوى ثـان فـإن الراقصـة عـلى مسـتوى دلالي أعمـق تبـدو كرمـز للسـلطة أو للحكومـة, فهـي ليسـت صالحـة, ومـع ذلـك هـي مصـدر للقـوة والسـلطة والمتعـة، لذلـك فالمرشـحون الفاسـدون يلاحقـون الراقصـة- الحكومـة، ويتجمعـون حولهـا عـلى أمـل الفـوز برضاهـا، والمشـهد الإجـمالى للكاريكاتور يكشـف أننـا أمـام لعبـة ماجنـة أو مسرحيـة فيهـا كثـير مـن العبـث والفسـاد في السـلطة والانهيـار الأخلاقـي, لكـن تظـل المـرأة هنـا كمـرادف لمعـاني ودلالات سـلبية وغـير صالحـة, فهـي تشـارك في الملهـاة المأسـاة, وترمـز لنوعيـة مـن الفسـاد, لاسـيما وأنهـا تقـدم دائمًـا في خطـاب كاريكاتـور الوفـد عـلى أنهـا رمـز للحكومـة, الحكومـة الفاسـدة سـواء كانـت تقهـر وتمـارس العنـف ضـد الأخريـن أو تفسـد وتغـري الأخريـن بالفسـاد أو تشـارك فيـه.

أمـا الكاريكاتـور السـادس في خطـاب الوفـد (٦٠) فيسـخر مـن انضـمام معظـم النـواب الذيـن خاضـوا الانتخابـات كمسـتقلين إلى الحـزب الوطنـي الحاكـم, فيصورهـم كمجموعـة مـن الدجـاج الـذي تدفعـه امـرأة قويـة للعـودة إلى حظيرتـه, والمعـروف أن أغلـب هـؤلاء النـواب كانـوا بالأصـل أعضـاء في الحـزب الوطنـي إلا أنـه لم يرشـحهم, ومـن ثـم اسـتقالوا وخاضـوا الانتخابـات كمسـتقلين وفـازوا بعضويـة المجلـس الجديـد، لكـن الحـزب سـمح لهـم بالعـودة إلى صفوفـه, مـما يطـرح إشـكالية مـدى الالتـزام الحـزبي مـن جهـة والبرجماتيـة السياسـية مـن جهـة ثانيـة, كـما يطـرح وربمـا هـذا هـو الأهـم إشـكالية مـدى احـترام إرادة الناخبـين الذيـن منحـوا تأييدهـم لمرشـح بصفتـه مسـتقل, وإذا بـه يغـير هـذه الصفة.

وإزاء هـذه الإشـكاليات يتوسـل كاريكاتـور الوفـد برمزيـة المـرأة القويـة كمقابـل رمـزي لحكومـة الحـزب الوطنـي, المـرأة هنـا هـي ربـة بيـت تقليديـة, ضخمـة البنيـان كثيفـة الحواجـب, تبـدو شرسـة وحازمـة في تعاملهـا مـع الدجـاج الـذي تقـوم بتربيتـه, كـما أن ملامحهـا تقـترب عـلى مسـتوى رمـزي مـراوغ مـن ملامـح أحـد كبـار مسـئولي الحكومـة.

لكـن الدلالـة الأهـم هـي علاقـة ربـة البيـت التقليديـة بالدجـاج الـذي تربيـه, حيـث تتحكـم فيـه وتهيمـن عـلى حركتـه, فهـي تقـوده في الرسـم إلى الدخـول إلى حظـيرة تتحكـم هـي في بابهـا، ولا شـك أن التصويـر الرمـزي للنـواب المسـتقلين العائديـن للحـزب الوطنـي ينطـوي عـلى دلالات سـلبية مبـاشرة, فالدجـاج هنـا في إطـار الثقافـة المصريـة السـائدة كائـن ضعيـف مسـالم خاضـع لمـن يقـوم بتربيتـه والـذي يفعـل بـه مـا يشـاء, بمـا في ذلـك الذبـح, مـن جانـب آخـر ثمـة دلالات سـلبية غـير مبـاشرة تنعكـس عـلى صـورة المـرأة عـلى مسـتوى الخطـاب المضمـر, فـإذا كانـت الحكومـة غـير صالحـة- مـن وجهـة نظـر خطـاب صحيفـة الوفـد المعارضـة- وتمـارس الهيمنـة والتسـلط, فـإن تصويـر الحكومـة في شـكل المـرأة يـسيء مـن طـرف خفـي إلى المـرأة, ويقدمهـا في أطـر مـن المعـاني السـلبية، لاسـيما وأن هنـاك ربـط متـداول في الثقافـة المصريـة الشـفاهية بـين المـرأة والحكومـة, الحكومـة تهيمـن عـلى المواطنـين وتحتكـر العنـف ومصـادر

القوة, والمرأة تهيمن على الزوج والأولاد!!، مثل هذا الربط يصور المرأة المصرية- وعلى غير حقيقة وضعيتها العامة في المجتمع- في صورة العنصر القوي والذي يمارس العنف والقهر في الأسرة.

وإذا انتقلنا إلى الكاريكاتور السابع في خطاب الوفد (٦١) نجد أنه يتناول المرحلة الثالثة في الانتخابات، من خلال تصوير أحد مرشحي الحزب الوطني يدعو النساء للتصويت لصالحه في يوم الانتخابات, وقد تمثل رد فعل النساء في إساءة فهم معنى كلمة التصويت، فبدلًا من الذهاب إلى الانتخابات والإدلاء بأصواتهن، يقمن بالعويل والصراخ «الصويت»، ظنًا منهن أن الرجل سوف يموت، وقد عكس هذا الكاريكاتور قيمًا سلبية نحو المرأة فهي لا تعي المعنى الحقيقي لمفهوم عملية التصويت, وبالتالي لا تفهم معنى الانتخابات ولا تفهم معنى حقها في الاختيار، وهو حق دستوري كفله لها القانون.

ويمكن القول إن خطاب الوفد عبر هذا الكاريكاتور حاول أن يصفي حسابه مع الحزب الوطني من خلال الصراخ والعويل عليه, أي أنه قد مات أو أنه على وشك الموت، في دلالة لرغبة الوفد في التخلص من هيمنة الحزب الوطني، لكن الكاريكاتور ألحق أضرارًا هائلة بصورة المرأة وبدورها في العملية السياسية, فهي غير جديرة بنيل حق الانتخابات أو ممارسته طالما أنها لا تعي الفرق بين حق التصويت وبين الصراخ والعويل, الأمر الذي يجعل الكاريكاتور يساهم بشكل أو بآخر في تكريس الصورة السلبية عن المرأة.

واستمرارًا لمنهج رسامي الوفد في توظيف المرأة في الهجوم والسخرية من الحكومة يصور الكاريكاتور الثامن (٦٢) الحكومة في صورة امرأة ترتدي ملابس الحداد- ثوب أسود- وتصرخ باكية أمام رسم لجمل ميت، والدلالات واضحة ومباشرة في هذا الكاريكاتور، إذ إن الرسام يكتب على الجمل «الحزب الوطني»، وعلى المرأة «الحكومة»، كما يكتب أن الجمل رمز الحزب الوطني في الانتخابات.. كل هذه الدلالات المباشرة والتي تتسم بالسذاجة تسيء إلى صورة المرأة على أكثر من مستوى، فهو يشير إلى استخدام المرأة

لكلمة «يا جملي» في النحيب على زوجها عند وفاته, كناية على أنه سندها القوي الذي تعتمد عليه في الحياة, ومن ثم فإن وفاته تعني ضياع سندها ومصدر قوتها الأساسي, من جانب أخر فإن إصرار رسام الوفد على تصوير المرأة في موقف النحيب والبكاء على زوجها يؤكد دورها التقليدي في الحياة كتابع عاجز للرجل, ينهار عند وفاة الزوج, كما يقصر دورها في الحياة على الصريخ والعويل على زوجها الميت.

وعلى المستوي الثاني فإن المماثلة بين المرأة والحكومة تبدو هنا في صورة واضحة تمامًا، الأمر الذي يؤكد إصرار الكاريكاتور في الوفد على رسم صورة سلبية عن المرأة تتمثل في عدة صور، الأولى عدم مشاركتها الإيجابية والفعالة في العملية الانتخابية، وأن دورها يتوقف عند حد البكاء والنحيب، والصورة الثانية أن الحكومة امرأة فاسدة- نموذج الراقصة الشرقية- والصورة الثالثة هي المرأة العاجزة التي يختزل وجودها في مجموعة من الأدوار التقليدية، ثم أخيرًا الصورة الرابعة للمرأة القوية الظالمة لزوجها ولأفراد أسرتها، والصور الأربع على ما بينها من خلافات تغلب عليها القيم والاتجاهات السلبية, كما ترسخ الأدوار التقليدية للمرأة في المجتمع, ولا تشجعها على ممارسة حقوقها الانتخابية.

وتتأكد المماثلة غير المبررة موضوعيًا بين المرأة والحكومة والتي تسيء لصورة المرأة في الكاريكاتور التاسع في خطاب الوفد(٦٣) والذي يصور امرأة تقف- وبجوارها زوجها- عند بائع ياميش رمضان، لتشتري كمية من اللوز والجوز, وتطلب من البائع ألا يعطيها عين الجمل نظرًا لأن زوجها قد رسب في الانتخابات وكان رمزه الانتخابي الجمل, مما يشير إلى أنه كان مرشحًا عن الحزب الوطني.

هكذا للمرة الثالثة يصفي خطاب الوفد حسابه مع الحزب الوطني على حساب صورة المرأة, فقد تم تقديمها في صورة امرأة سمينة بدينة قوية ومسيطرة, لكنها لا تفكر سوى في الطعام والشراب، ويتوقف دورها في العملية الانتخابية عند حد التعاطف مع زوجها أو

السخرية منه لأنه لم ينجح في الانتخابات، وبالتالي يؤكد هذا الكاريكاتور ويدعم الصورة السلبية عن المرأة غير المهتمة بما يدور حولها على الساحة السياسية، والتي لا تفكر سوى في شراء مستلزمات المنزل من الطعام والشراب، من جانب أخر فإن الكاريكاتور يؤكد على التماثل بين المرأة والحكومة، فالزوج الذي لم ينجح في الانتخابات هو على المستوى الرمزي الحزب الوطني، بينما المرأة هي الحكومة أو الدولة التي تمسك به في الكاريكاتور وتحركه كما تشاء، في دلالة واضحة على اندماج الحزب الوطني في مؤسسات الدولة وسيطرة وهيمنة الدولة عليه.

سابعًا: نتائج تحليل خطاب الكاريكاتور في صحيفة الأخبار:

قدمت صحيفة الأخبار ٤ رسوم كاريكاتورية خلال فترة الدراسة، ثلاثة منها بريشة عمرو فهمي، أما الرابع فهو من أفكار أحمد رجب وبريشة مصطفى حسين، والسمة الغالبة على رسوم الكاريكاتور في الأخبار هي محدودية الأفكار والمعاني السياسية, والتركيز على الإضحاك أو السخرية.

يدور الكاريكاتور الأول (٦٤) في خطاب الأخبار حول امرأة تمسك «يد الهون» وقد تجهم وجهها ويقف زوجها بين يديها صاغرًا شاكيًا، وقد ضربته في رأسه, وآثار الضرب واضحة عليه, ويقول لها: «أمال أنا كان نفسي أدخل مجلس الشعب ليه ما هو علشان آخذ الحصانة منك».

يحاول هذا الكاريكاتور أن ينقل لنا معنى تكالب بعض المرشحين في انتخابات مجلس الشعب للحصول على الحصانة، حتى يسهل لهم التستر على تجاوزاتهم أو سلوكياتهم المشبوهة, وقد حاول القائم بالاتصال هنا أن ينقل هذه المعاني من خلال صورة المرأة التي تتشاجر مع زوجها، وقد صورها في صورة امرأة بدينة، ذات شعر مجعد، وملامح قاسية للغاية لا تفكر في شيء سوى في ضرب زوجها ضعيف البنية, المستسلم تمامًا لتفوق زوجته البدينة وقوتها الطاغية، ولاشك أن هذه الحالة لا يمكن تعميمها على علاقة الرجل بالمرأة، لاسيما وأن أغلب حالات الضرب والاعتداء الجسدي تقع بواسطة الأزواج على الزوجات.

لكـن تظـل هنـاك دلالـة رمزيـة تقـوم عـلى التـوازي والمماثلـة بـين الدولـة أو الحكومـة القويـة الصارمـة التـي تقمـع النـواب أو المواطنـين رغـم حصولهـم عـلى الحصانـة البرلمانيـة، والمـرأة المتسـلطة، القويـة الجسـد، الدميمـة الشـكل التـي تـضرب زوجهـا لسـبب أو لآخـر, ومثـل هـذا الربـط الرمـزي يـسيء للمـرأة بشـكل عـام، إذ أن الحكومـة أو سـلطة الدولـة هـي اخـتراع ذكـوري إذا جـاز القـول، حيـث لا تحظـى النسـاء بالأغلبيـة في أي حكومـة في العـالم، ومـع ذلـك يرمـز للمـرأة دائمًـا في خطـاب الحيـاة اليوميـة المصريـة بالحكومـة.

أمـا الكاريكاتـور الثـاني في خطـاب الأخبـار (٦٥) فيقـدم طائفـة مـن المعـاني والرمـوز السـلبية ضـد المـرأة يتفـوق بهـا عـن كل مـا ورد في خطـاب كاريكاتـير الوفـد, حيـث تظهـر فيـه شـتائم مبـاشرة تحقـر مـن المـرأة, وقدرتهـا عـلى الفهـم والاسـتيعاب, والكاريكاتـير عبـارة عـن صـورة لعزيـز بـك الأليـط- وهـو شـخصية يسـتخدمها أحمـد رجـب ومصطفـى حسـين للمواطـن المـصري الفقـير المدعـي والمتعـالي عـلى واقعـه- يجلـس في منزلـه البائـس, وتجلـس خلفـه الزوجـة في ملابـس ومظهـر فقـير للغايـة تحمـل ابنهـا الصغـير الـذي يسـتمع للحـوار بـين الأب والأم حـول الانتخابـات, حيـث يـرد الرجـل عـلى زوجتـه التـي تحدثـه عـن الحـزب الوطنـي والمسـتقلين ويقـول لهـا: «حـزب وطنـي إيـه ومسـتقلين إيـه يـا بهيمـة، احنـا في انتخابـات أمريـكا النهـارده وادعـي معايـا جـورج بـوش يكسـب علشـان هيخفـض الضرائـب عـلى رجـال الأعـمال يـا حـمارة».

وهكـذا تبـدو في وضـوح ومبـاشرة مجموعـة مـن المعـاني والـدلالات السـلبية عـن المـرأة مـن وجهـة نظـر الرجـل, فالزوجـة في الكاريكاتـور تبـدو مهتمـة ومتابعـة للعمليـة الانتخابيـة, ومـع ذلـك فـإن الـزوج المدعـي يكيـل لهـا الاتهامـات بأنهـا جاهلـة، لا تملـك مـن أمـر نفسـها شـيئًا ولا تفقـه مـا يـدور حولهـا مـن أمـور سياسـية وأحـداث عامـة، وقـد اسـتخدم الكاريكاتـور هنـا أوصافًـا وشـتائم قاسـية لرسـم صـورة سـلبية للمـرأة تـسيء إليهـا إسـاءة بالغـة, فالزوجـة- المـرأة بهيمـة لا تفهـم مـا يـدور مـن حولهـا.

وبغض النظر عن هدف السخرية من بعض الأزواج- الرجال الذين يعيشون حياة غير واقعية ويتعالون على أزواجهن، فإن مثل هذه السخرية يجب ألا توظف المرأة أو تسيء لصورتها, إن الكاريكاتور موضوع التحليل قد ينجح في إضحاك القارئ, وربما القارئة عند مستوى التلقي المباشر, لكنه وعلى المستوى غير المباشر يرسخ صورة سلبية للمرأة, ويؤكد مكانتها ودورها في المجتمع كتابعة للرجل تأتي دائمًا خلفه, ولا يمكن أن تتساوى معه في الحقوق والواجبات, وفي مقدمتها حق المشاركة السياسية.

إن الكاريكاتور في التحليل الأخير يبرز هيمنة الرجل على المرأة فهو الذي يفهم كل شيء، وهي لا تفقه أي شيء على الإطلاق، إذ إنها مجرد كائن ضعيف لاحراك له, سلبي لا يملك أبسط درجات المشاركة الاجتماعية من خلال الحوار الودي مع الزوج، ولعلنا نلاحظ جلوسها على الأرض خلف زوجها بينما يجلس هو فوق مقعد وحيد في الحجرة مما يؤكد صدارة الرجل وتعاليه على المرأة، وعدم اعترافه بحقها في المشاركة السياسية، حتى ولو كان ذلك من خلال الحوار.

ويصور الكاريكاتور الثالث (٦٦) طفلاً صغيراً يحدث والدته ويطلب منها ألا تضربه مرة ثانية، لأنه عضو بالبرلمان الصغير ولديه حصانة، مما يوحي بأن بعض النواب يسعون إلى الحصول على الحصانة لكي يستطيعوا بواسطتها إدارة مصالحهم بالطرق المشروعة وغير المشروعة دون أدنى مسائلة من الدولة، من جانب آخر فالأم هنا هي رمز للدولة التي تعجز عن معاقبة أعضاء مجلس الشعب الذين يتمتعون بالحصانة البرلمانية، وبالمثل فإن المرأة- الأم تبدو في هذا الكاريكاتور عاجزة عن تأديب أو تربية الابن، وفي الوقت نفسه فإن الكاريكاتور يقدم صورة تقليدية للمرأة التي تستخدم العقاب البدني في تربية الأبناء، ويمكن القول إن الدلالة العامة لهذا الكاريكاتور سلبية من زاوية مطالبة الابن غير المباشرة للأم بالمعنى الحقيقي، والأم الدولة بالمعنى الرمزي بالتوقف عن استخدام الضرب والعنف في مواجهة الأبناء أو المواطنين الذين يحملون الحصانة، في إشارة ضمنية إلى أن كل من لا يحمل الحصانة يمكن الاعتداء عليه والانتقاص من حقوقه.

أما الكاريكاتور الرابع (٦٧) والأخير في خطاب الأخبار فيصور امرأة تفتش ملابس زوجها بغرفة النوم أثناء نومه وأولادها يتحدثون من خلفها ويقولون: «ده الفرز اليدوي اللي بتعمله ماما كل يوم في جيوب بابا!!»

ومثل هذا الكاريكاتور يسيء بلا شك إلى المرأة، ويحدد أحد أدورها في ممارسة الرقابة على زوجها وانتهاك خصوصيته في المنزل أمام الأبناء, مما يشيع في المنزل قيمًا وسلوكيات مرفوضة تجيز التدخل في شئون الآخرين والتجسس عليهم, وانتهاك خصوصياتهم, فالمرأة الأم هنا تظهر في صورة من يتحايل على الزوج وينتهك خصوصيته أثناء نومه, ويحدث هذا السلوك السلبي أمام أولاده، هكذا يهدم الكاريكاتور مصداقية الأم, ولا يهدف من وراء ذلك سوى توظيف مفهوم الفرز اليدوي الذي يستخدم في الانتخابات في فرز البطاقات الانتخابية, ولكن مع ذلك ربما يظل لاستخدام مفهوم الفرز اليدوي دلالة خفية أو معنى مستتر يكمن في المقابلة بين المرأة والدولة، فالدولة هي التي تقوم بالفرز اليدوي وقد تتلاعب في نتائج الانتخابات، بينما المواطنون لا يدركون ذلك، تمامًا كما تقوم المرأة بتفتيش جيوب الزوج بدون علمه أثناء نومه, ويلاحظ أيضًا على مستوى ثاني المقابلة بين نوم الزوج أو ادعائه النوم وبين عدم معرفة المواطنين أو ادعائهم عدم معرفة ما يجري في فرز نتائج الانتخابات.

إن هذه الصورة تسيء إلى المرأة وتعكس دلالات ضمنية، أهمها أنه في ظل انتخابات مجلس الشعب فإن أهم ما يشغل المرأة هو تصرفات زوجها المشبوهة والرقابة عليه ومحاولة تصفية حسابها معه، دون أن يكون لها دور سياسي، خاصة بالنسبة لاختيار المرشحين أو أن تفكر في أن يكون لها دور أكبر من ذلك وهو ترشيح نفسها للانتخابات.

ثامنًا: نتائج تحليل خطاب الكاريكاتور في مجلة روز اليوسف:

خضعت ٤ رسوم كاريكاتور في روزاليوسف للتحليل، ثلاثة منها بريشة محسن جابر، والرسم الرابع بريشة عمرو سليم، ويلاحظ أن الكاريكاتور المتعلق بالمشاركة السياسية

للمـرأة في روز اليوسـف يركـز عـلى التهكـم مـن المرشـحين الذيـن لم ينجحـوا في الانتخابـات، مـع ميـل واضـح للسـخرية مـن مرشـحي التيـار الإسـلامي، وهـي سـمة انفـردت بهـا رسـوم الكاريكاتـور في روزاليوسـف، لكـن كاريكاتـور روز اليوسـف لم يخـرج أيضًـا عـن دائـرة التهكـم مـن المـرأة والإسـاءة إلى دورهـا وصورتهـا في المجتمـع.

يصـور الكاريكاتـور الأول (٦٨) في خطـاب روز اليوسـف رجـلاً ملتحيًـا يمثـل التيـار الإسـلامي يخاطـب رجـلًا أخـر ويقفـان أسـفل لائحـة كتـب عليهـا «انتخبـوا المـرأة التـي قالـت لا» وهـو يقـول «أتجعلـون المـرأة تختـلي بالجماهـير هـذا كفـر يـا إخـوان»، ولعـل هـذا الكاريكاتـير هـو الوحيـد ضمـن عينة الدراسـة الـذي يقـدم صـورة إيجابيـة للمـرأة المرشـحة في الانتخابـات، فالمـرأة فيـه قـادرة عـلى المعارضـة، وقـادرة عـلى أن تقـول لا.. و»لا» هنـا لـكل أشـكال الفسـاد والانحـراف والتطـرف، أي أن «لا» متعـددة الـدلالات الضمنيـة, وتعطـي مـع كل دلالـة صـورة إيجابيـة عـن حقيقـة الـدور الـذي يمكـن أن تقـوم بـه كل امـرأة داخـل المجتمـع، سـواء عـلى مسـتوى الأسرة أو الجمعيـات والمؤسسـات العامـة والأحـزاب، فهـي امـرأة تقـول لا لـكل مـا هـو سـلبي، مـما يؤكـد الـدور الإيجـابي للمـرأة في المشـاركة السياسـية بشـكل عـام.

لكـن الكاريكاتـور يكشـف أن الـدور الإيجـابي لمشـاركة المـرأة في العمـل السـياسي يصطـدم بقـوى وتيـارات داخـل المجتمـع، فبعـض ممثـلي التيـار الإسـلامي يرفضـون هـذا الـدور مـن خـلال إسـاءة تفسـير موقـف الإسـلام مـن المـرأة، وعـبر التلاعـب ببعـض المقـولات والأحـكام الفقهيـة، وهـو الموقـف الـذي يسـخر منـه الكاريكاتـير مـن خـلال الادعـاء بـأن مشـاركة المـرأة في العمـل السـياسي تعـادل خلـوة المـرأة بأجنبـي، وهـي الخلـوة التـي نهـى عنهـا الإسـلام , بينـما الإسـلام في حقيقـة الأمـر لم ينـه عـن المشـاركة السياسـية للمـرأة, لكـن رسـام الكاريكاتـور هنـا جعـل مجـرد مشـاركة المـرأة في العمـل السـياسي كفـر مـن وجهـة نظـر بعـض المتشـددين، وهـو أمـر غـير حقيقـي، في هـذا الإطـار يلاحـظ هنـا سـوء نيـة وتحيـز الرسـام, إذ وضـع عـلى رأس المسـلم الملتحـي طاقيـة صغـيرة الحجـم مثـل القلنسـوة التـي يضعهـا اليهـودي عـلى رأسـه، وذلـك للربـط مـن طـرف خفـي بـين صـورة المسـلم المتطـرف وصـورة اليهـودي.

ويكـرر الكاريكاتـور الثـاني (٦٩) الفكـرة النمطيـة المسـتهلكة الخاصـة بالدلالـة المزدوجـة للفـظ التصويـت والـذي يـدل عـلى الاقـتراع أو التصويـت في الانتخابـات, والتصويـت بمعنـى صراخ ونحيـب المـرأة عـلى المـوتى، ويصـور الكاريكاتـير امـرأة مـات لهـا عزيـز وتقـول: «ووووه يـا غـالي» وتشـوح بيدهـا وتسـكب الدمـوع مـن عينيهـا، بينـما مرشـح الدائـرة ينهـر المـرأة ويقـول لهـا: «اسـكتي يـا وليـة أنـا بـس الوحيـد اللـي يصوتـوا عليـه في الدايـرة»، ونلاحـظ هنـا أن هـذا المرشـح- الـذي يقدمـه الكاريكاتـور في صـورة رجـل ضخـم, ممتلـئ البطـن, يحمـل بندقيـة عـلى كتفـه- يرمـز للسـلطة, أو ربمـا للحـزب الوطنـي، وأن مقولتـه تلـك مـؤشر عـلى وضعيـة المـرأة في برنامـج الحـزب مـن حيـث دورهـا في العمـل السـياسي ومشـاركتها فيـه.. فأصواتهـا يجـب أن تذهـب إليـه, فهـو المرشـح الوحيـد القـوي في الدائـرة، ونلاحـظ هنـا أن المرشـح يرمـز إلى مسـتوى الخطـاب المضمـر إلى السـلطة، خاصـة وأن ملابسـه وهيئتـه أقـرب إلى ملابـس وهيئـة الخفـير النظامـي في الريـف المـصري وبالتـالي إمكانيـة اسـتخدام القـوة أو التهديـد بهـا ضـد مـن يخـرج عـلى تعليماتـه، مـن زاويـة أخـرى فـإن الكاريكاتـور يربـط بـين عمـل الخفـير في الحفـاظ عـلى الأمـن وبـين أسـاليب الحكومـة أو الحـزب الوطنـي في احتـكار السـلطة وعـدم تداولهـا, فهـو الوحيـد الـذي يتـم التصويـت لصالحـه في الانتخابـات، ولا مجـال للآخريـن بمـا فيهـم المـرأة للتمـرد عـلى هـذا الوضـع, كذلـك يسـخر الكاريكاتـور مـن طـرف خفـي مـن الخلـط والتداخـل بـين وظائـف وأدوار الشرطـة- الحكومـة في الإشراف عـلى الانتخابـات وحفـظ الأمـن والمنافسـة عـلى مقاعـد البرلمـان.

عـلى أن الدلالـة الأهـم هنـا هـي التأكيـد عـلى هيمنـة الحـزب الوطنـي عـلى العمليـة الانتخابيـة، وأن المـرأة في نظـر الحـزب مجـرد إنسـانة بائسـة لا يحـق لهـا المشـاركة أو القيـام بـأي دور في العمـل السـياسي سـوى دعـم وتأييـد حـزب الحكومـة, والمفارقـة هنـا أن الكاريكاتـور يقـدم المـرأة في صـورة نمطيـة ودور تقليـدي يتمثـل في البـكاء والعويـل عـلى المـوتى، وكأن البـكاء والعويـل هـو سـلوك تنفـرد بـه المـرأة وتحتكـره لنفسـها دون الرجـال, في الوقـت نفسـه فـإن المرشـح الحكومـي القـوي- أو الحـزب الوطنـي- لا يميـز بـين تصويـت ونحيـب المـرأة عـلى

الموتى, وبين التصويت لصالحه في الانتخابات, فأي تصويت أيًا كانت دلالاته ومعانيه يجب أن يذهب للمرشح القوي الذي يمثل الحكومة, لكن خطاب كاريكاتور روز اليوسف يسخر من المرشح القوي- الحكومة- أيضًا حيث يصوره وهو يطلب التصويت عليه في الدايرة, في دلالة إلى أنه قد مات أو أنه ميت حي.

يصور الكاريكاتور الثالث في خطاب روز اليوسف (٧٠) امرأة تقدم لزوجها قائمة بمشتريات البيت، بينما هو يقرأ نتائج انتخابات المرحلة الأولي، ويظهر فيها أن زوجته لم تنجح في الانتخابات؛ لذلك يقول لها سعيدًا: «وعلشان سقطتي عايزة تنقلي لي المعركة الانتخابية في البيت», والرجل هنا يظهر مبتسمًا ساخرًا بينما المرأة متجهمة وحازمة وتبدو بائسة، ومن الواضح أن الكاريكاتور هنا يستعيد ويعيد إنتاج الصراع بين المرأة والرجل، فبدلًا من التوافق سواء في البيت أو العمل العام- حيث إن دور كل منهما مكمل للآخر- نجد الكاريكاتور هنا يؤكد على الصراع والشماتة التي تظهر من خلال صورة الزوج السعيد برسوب زوجته في الانتخابات، بينما تحاول المرأة الانتقام منه بتقديم قائمة طويلة من الطلبات التي يعجز عن تلبيتها، أي أن الكاريكاتور هنا يقدم صورة سلبية للمرأة التي تشارك في الانتخابات بالترشح, فهي لم تنجح ويبدو زوجها- أقرب الناس إليها- شامتًا سعيدًا بذلك, في الوقت نفسه فهي تحاول الانتقام منه بالتوسع في الإنفاق، وذلك كنوع من التعويض لما لحق بها من خسارة انتخابية, وهكذا تبدو المرأة التي شاركت في الانتخابات فاشلة في العمل السياسي, وفاشلة وغير عقلانية في إدارة أعمال المنزل.

لكن ربما كانت الدلالة غير المباشرة للكاريكاتور هي أن مشاركة المرأة في الانتخابات أمر طارئ ومؤقت، وأن البيت هو الأصل, فالمرشحة التي خسرت الانتخابات سرعان ما تعود للمنزل وتكرر وتعيد إنتاج الصورة التقليدية للمرأة كمستهلكة غير منتجة, وهي في المجمل صورة سلبية لا تتفق مع حقيقة دور المرأة، ولا تنمي وعي الرأي العام بدور المرأة الإيجابي وحقوقها السياسية المشروعة.

أمـا موضـوع الكاريكاتـور الرابـع والأخـير في خطـاب روز اليوسـف (٧١) فيتلخـص في السـخرية والتهكـم مـن مرشـحي التيـار الإسـلامي في انتخابـات مجلـس الشـعب وانتخابـات اتحـاد طـلاب الجامعـة، ويصـور الكاريكاتـور امـرأة في دور الأم والزوجـة تقـف في المنـزل، ومـن خلفهـا زوجهـا الملتحـي، وتفتـح البـاب لابنهـا القـادم إليهـا مـن الخـارج وهـو ملتحـي أيضًـا- في دلالـة لانتمائهـما لتيـار الإسـلام السـياسي- والمـرأة تبـدو شـامتة ومندهشـة لأن زوجهـا لم ينجـح في انتخابـات مجلـس الشـعب، وعـاد إليهـا ابنهـا ليخبرهـا أنـه لم ينجـح في انتخابـات الجامعـة وهـي تقـول لابنهـا: «فالـح طالـع لأبـوك».

هكـذا يهاجـم الكاريكاتـور المنتمـين للتيـار الإسـلامي ويَسِـمهم بالفشـل السـياسي، ولكـن عـلى حسـاب صـورة المـرأة، فهـي هنـا جامـدة المشـاعر لا تتعاطـف مـع أزمـة الابـن أو موقـف الأب, ولا تتضامـن معهـما عـلى المسـتوى الشـعوري, بـل تتخـذ موقفًـا أقـرب إلى التهكـم أو الشـماتة، كذلـك فـإن الكاريكاتـور يقدمهـا في صـورة المـرأة التقليديـة القابعـة في المنـزل, والتـي لا تشـارك في الانتخابـات بـل تنتظـر نجـاح الرجـل سـواء كان الـزوج أو الابـن.. الأمـر الـذي يعنـي في التحليـل الأخـير أن خطـاب كاريكاتـور روز اليوسـف يصفـي حسـاباته مـع مرشـحي التيـار الإسـلامي مـن خـلال اسـتخدام المـرأة، أو بالتحديـد إسـاءة اسـتخدام صـورة المـرأة وتوظيـف أدوارهـا التقليديـة وصورتهـا السـلبية لتحقيـق هـذا الهـدف.

تاسعًا: الخاتمة:

يكشــف التحليــل الثقــافي لخطــاب الكاريكاتــور الــذي تنــاول المشــاركة السياســية للمــرأة في انتخابــات مجلــس الشــعب عــن قلــة الاهتــمام بمناقشــة أبعــاد وجوانــب هــذه المشــاركة، وســبل تفعيــل المشــاركة السياســية للمــرأة، فقــد ظهــر ١٧ رســمًا كاريكاتوريًــا في كل مــن الوفــد، والأخبــار وروزاليوســف خــلال شــهري أكتوبــر ونوفمــبر ٢٠٠٠، وقــد اتفقــت الرســوم الكاريكاتوريــة في المطبوعــات الثــلاث عــلى الإســاءة إلى صــورة المــرأة، والتأكيــد عــلى أدوارهــا التقليديــة وصورتهــا الســلبية في العمــل الســياسي، وفي المجتمــع بشــكل عــام, وذلــك رغــم اختــلاف مواقفهــا

السياسية, وتباين الأهداف والغايات التي سعى إليها منتجي الكاريكاتور في المطبوعات الثلاث.

ولعل الاستثناء الوحيد عن التوجه السلبي العام في رسم صورة المرأة في الكاريكاتور في المطبوعات الثلاث، يقتصر على أحد الرسوم الكاريكاتورية في مجلة روز اليوسف، حيث كشف عن وجود مرشحة معارضة وقوية تستطيع أن تقول: «لا» ، لكن بعض المنتمين للتيار الإسلامي المتشدد يرفضون مشاركة مثل هذه المرشحة التي ظهرت في صورة إيجابية، وقد تأسس رفضهم على تفسيرات مغلوطة للإسلام.

وبغض النظر عن هذا الكاريكاتور الاستثنائي فإن خطاب الكاريكاتور في الأخبار والوفد وروز اليوسف قد أعاد إنتاج الصور التقليدية للمرأة، ووظف هذه الصور والأدوار التقليدية إما لتسلية القارئ وإضحاكه أو للهجوم على الحكومة.

كاريكاتور الأخبار كان أكثر اهتمامًا بالتسلية والإضحاك على حساب المضامين والأفكار والدلالات والرموز المباشرة وغير المباشرة, بينما كان خطاب كاريكاتور الوفد أكثر اهتمامًا بتوظيف الصورة السلبية للمرأة في الهجوم على الحزب الوطني ومرشحيه في المراحل المختلفة للانتخابات, فيما وظف خطاب كاريكاتور روز اليوسف بعض صور المرأة في الهجوم على تيار الإسلام السياسي.

والغريب أن خطاب الكاريكاتور في المطبوعات الثلاث قد أكد على التماثل بين الزوجة والحكومة، فكل منهما يمارس الرقابة والإكراه، وأحيانًا العنف، وهي للأسف صورة رمزية سائدة في الخطاب الشفهي في الشارع المصري، يلتقطها خطاب الكاريكاتور ويعيد إنتاجها، ويروج لها، في هذا الإطار اجتهد خطاب الكاريكاتور في الوفد في التهكم على الحكومة والحزب الوطني على حساب صورة المرأة، بينما استغل خطاب روز اليوسف المرأة في التهكم على كل من التيار الإسلامي والحكومة.

ويمكن القول بأن خطاب الكاريكاتور في الوفد والأخبار وروزاليوسف قد اعتمد على أفكار محدودة، تكررت في أكثر من كاريكاتور، كما تكررت أيضًا الرموز والقيم السلبية التي تنتقص من حق المرأة في المشاركة السياسية، وتصورها في موقف غير الواعي أو الجاهل.

لقد تكرر بشكل يدعو إلى الملل التلاعب في المعاني والدلالات بين التصويت بمعنى الإدلاء بالرأي في صناديق الانتخاب، و"التصويت" بمعنى الصراخ والعويل، وكذلك تكررت فكرة الزوجة- الحكومة المتسلطة القوية التي تضرب زوجها وأولادها، كما ظهرت صورة المرأة المرشحة التي لم تنجح.

إن مثل هذه الصور والرموز تعني أن الكاريكاتور في الوفد والأخبار وروزاليوسف قد أعاد إنتاج الأفكار والصور والقيم والدلالات السلبية المرتبطة بالمرأة في الخطاب الشفهي للشارع المصري, ثم ربطها بالمشاركة السياسية للمرأة، سواء في انتخابات مجلس الشعب أو بالمعنى الواسع للمشاركة السياسية.

من هنا يمكن اقتراح فتح حوار مع منتجي الكاريكاتور في الصحافة المصرية بشأن قضايا المرأة بعامة، وقضايا المشاركة السياسية للمرأة بصفة خاصة, وذلك بهدف تصحيح بعض المفاهيم والأفكار وتبادل الخبرات، ومحاولة التوصل إلى ميثاق شرف مهني يقوم على فكرة أساسية، هي تخلي رسامي الكاريكاتور عن توظيف الصور السلبية للمرأة في الإضحاك أو النقد الاجتماعي، فرغم التسليم بضرورة السخرية والنقد بأنواعه، إلا أن كثيرًا من القيم والدلالات غير المباشرة، وربما غير المقصودة تسيء إلى المرأة المصرية وحقوقها الأساسية في المجتمع.

إن المطلوب هو إشاعة مناخ من الوعي والالتزام المهني والاجتماعي بين منتجي الكاريكاتور بأهمية دور المرأة في المجتمع، وضرورة أن يقوم الكاريكاتور بإبراز هذا الدور، والانتصار لقضايا المرأة، دون أن يخل ذلك بمتطلبات الكاريكاتور كفن يقوم على النقد والسخرية, ودون أن يسيء أيضًا إلى صور المرأة ودورها في المجتمع، أو يساعد على نشر دلالات وقيم سلبية تسيء إلى المرأة المصرية.

المراجع والمصادر

١- عمـرو هاشـم ربيـع, موقـع المـرأة في انتخابـات ١٩٩٥, في الانتخابـات البرلمانيـة في مـصر، القاهـرة, ١٩٩٥, مركـز الدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية بالأهـرام ١٩٩٥, ص ص ٩٠- ١٠٢

٢- المرجع السابق ص ٩٥- ٩٦.

٣- هالـة مصطفـى، انتخابـات مجلـس الشـعب ٢٠٠٠, القاهـرة, مركـز الدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية بالأهـرام, ٢٠٠١, ص ١٨٤

٤- هالـة مصطفـى, الانتخابـات البرلمانيـة في مـصر, مرجـع سـابق, أمـا نسـبة التصويـت في انتخابـات مجلـس الشـعب لعـام ٢٠٠٠ فهـي محسـوبة ومجمعـة مـن جـداول التصويـت في المحافظـات, لمزيـد مـن التفاصيـل انظـر عمـرو هاشـم ربيـع محـرر, دليـل النخبـة البرلمانيـة المصريـة ٢٠٠٠, القاهـرة, مركـز الدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية بالأهـرام, ٢٠٠٢, ص ص ٧١- ٨٢.

٥- عمرو هاشم ربيع، مرجع سابق، ص ٩٤.

٦- عـلي الديـن هـلال وآخـرون, التطـور الديمقراطـي في مـصر, قضايـا ومناقشـات, القاهـرة, مكتبـة نهضـة الـشرق, ١٩٨٦, ص ص ١٣٢- ١٣٦

٧- John, W.Williams, Moles and clowns : how editorial cartoons portrayed Aldrich Ames, Harold nicholson and the CIA . prepard for visual communication divison association for education in journalism, ١٩٧٧ annual meeting, chicago, illinois .

٨- لمزيـد مـن التفاصيـل انظـر: عمـرو عبـد السـميع عبـد اللـه، دور الكاريكاتـور في معالجـة

المفاهيـم السياسـية في مـصر، مـع دراسـة تطبيقيـة لمجلـة روز اليوسـف أعـوام: ١٩٥٢- –١٩٦١
١٩٦٨، رسـالة ماجسـتير، غـير منشـورة، جامعـة القاهـرة، كليـة الإعـلام، ١٩٨٠.

٩- جـون جـيرة قرياقـوس، الجوانـب الفنيـة في مجلـة روز اليوسـف مـن عـام –١٩٢٥ ١٩٥٢ «رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، جامعـة القاهـرة، كليـة الآداب، ١٩٧٥، ص ٥

١٠ - جون جيرة قرياقوس، مرجع سابق، ص ١٠.

١١- مرعـي مدكـور, اتجاهـات الكاريكاتـور في الصحافـة المصريـة, دراسـة لعينـة مـن الصحـف والمجـلات ٢٠٠٢: ٢٠٠٣, بحـث مقـدم إلى المؤتمـر العلمـي الثـاني لأكاديميـة أخبـار اليـوم ٨-٩ أبريـل ٢٠٠٣.

١٢-Josh Greenlberg , framing and temporality in political cartoons : a critical analysis of visual news discourse, Anthropology May , ٢٠٠٢, V٣٩, I٢, PP. ١٩٧-١٨١

١٣- مباهـج محمـود محمـد أحمـد, فـن الكاريكاتـير في الصحافـة المصريـة والعربيـة, دراسـة في المضمـون والقائـم بالاتصـال، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، القاهـرة: جامعـة الـدول العربيـة, معهـد البحـوث والدراسـات العربيـة, ٢٠٠٢.

١٤-E.Michele Ramsey, Inventing Citizens During World war ١ : Suffrage Cartoons in the Woman Citizen, Western Journal of Communcation, Spring ٢٠٠٠ , Vol , ٦٤ , PP. ٣٤: ٥٣

١٥-Roy Poter, the Body Politic, Diseases and discources : History of doctors in cartoon, History Today , oct ٢٠٠١ , V٥١ , pp ٢٣-١٠

١٦-Jennifer M.Proffitt , Newes Gatekeeping and the editorial : A cass study

of the ٢٠٠٠ presidential campaign cartoon, conference papers , www.wst.msu.edu.cgi

. ٢٠٠٢-٣-٨

١٧-Richard , E,Marschall, the century in political Cartoon,Columbia Journalism Review, May - June ١٩٩٩, Vol ٣٨ , pp ٦٢ – ٥٤

١٨-J.Robyn goodman, the Women´s saffrage movemant through the eyes of life magazine cartoons, ١٩٩٩, http:// List . msu . edu / cgi (Accessed ٢٠٠٣/٠٩/٢٥)

١٩- عمـرو عبـد السـميع, الكاريكاتـور السـياسي المـصري في السـبعينات: دراسـة تطبيقيـة عـلى صحـف الأهـرام, الأخبـار, الجمهوريـة, ومجـلات روز اليوسـف, صبـاح الخـير, المصـور, رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة, جامعـة القاهـرة, كليـة الإعـلام, قسـم الصحافـة, ١٩٨٣.

٢٠- عمـرو عبـد السـميع عبـد اللـه، دور الكاريكاتـور في معالجـة المفاهيـم السياسـية في مـصر، رسـالة ماجسـتير، مرجـع سـابق.

٢١-John Lent, Comic art in asia : Historical Literary and Political roots , Asian Pacific Communication , ٧ : ٢-١ Special Issue, ١٩٩٦ , pp ٧٧ : ٨٦

٢٢- لمزيد من التفاصيل راجع قضايا المرأة في برامج الأحزاب في انتخابات ٢٠٠٠.

٢٣- عمـرو عبـد السـميع عبـد اللـه، دور الكاريكاتـور في معالجـة المفاهيـم السياسـية في مـصر، مرجـع سـابق ص١.

٢٤- المرجع السابق، ص١.

٢٥- عبد اللطيف حمزة، قصة الصحافة العربية في مصر, القاهرة, مطبعة دار الفكر العربي، ١٩٦٧.

٢٦- عمـرو عبـد السـميع، دور الكاريكاتـور في معالجـة المفاهيـم السياسـية في مصر, مرجع سـابق، ص ١٨.

٢٧- المرجع السابق، ص ١٨.

٢٨-M.J Medhusrt & M.A. Desouse cartoon as rhetosical from : Ataxonomy of grephic discouse, communication Monographs, ١٩٨٠,٤٨,pp ٢٣٦-١٩٧

٢٩-Aroger fisches, them Damned pictures : exploration in american political cartoon art , ARCHON Book , North Haven, connecticut ١٩٩٦, pp. ١٨-١٦

٣٠- Hyougkoo Khang , Framing the Presidential cahdidates in editorial cartoons, http:// list . msu . edu . cgi (Accessed ٢٠٠٤/٠٣/١٧)

٣١-John, W.Williams, op. cit.

٣٢- محمـود علـم الديـن, الصحافـة في عـصر المعلومـات, الأساسـيات والمسـتحدثات, القاهـرة, بـدون نـاشر, ٢٠٠٠, صــ ١٨٣.

٣٣-John, W. Williams, op. cit.

٣٤- Charles Wright, Mass Commumiaction, A Sociological Perspective (New York, Radom House, ١٩٥٩) pp –١٧-٩.

٣٥-Melivin, L.Defleur and Ball Rokeach, Theories of mass Communication, London, Long man, ١٩٨٩, pp, ٢٥٩ – ٢٦٠

٣٦-George Gerber, & I, Gross, M, Morgan & N. Sgnorielle, Leving with T.V, The Dynamics of the Cultivation Process, Hillsdale, N,J, lawrnce erlbdum, ١٩٨٦, pp, ١٧ – ٤٠.

٣٧-John, W.Williams, op. cit

٣٨-M.J Medhusrt & M.A. Desouse cartoon as rhetosical from : Ataxonomy of grephic discouse, communication Monographs, ١٩٨٠, pp. ٢١-٩

٣٩- أسامة عبد الرحيم علي, العلاقة بين فنون الكتابة الصحفية والعمليات الإداركية لدى جمهور قراء الصحف, رسالة دكتوراه غير منشورة, القاهرة: جامعة الأزهر, كلية اللغة العربية, قسم الصحافة والإعلام, ٢٠٠٠, صـ ١٤٧

٤٠-Josh Greenberg, op. cit

٤١- يقصد بالهرمنيوطيقيا تأويل النص, ويذكر C.geffre أن الهرمنيوطيقيا بدأت كعلم لتأويل النصوص الفلسفية والدينية, وتنطلق من مسألة أنه ليس هناك قراءة بريئة وخالية من انخراط القارئ في التأويل المباشر للنص.

لمزيد من التفاصيل انظر:-

كلود جيفري C.geffre, حالة الأديان في العالم, ترجمة عز الدين عناية, مجلة كتابات معاصرة, العدد ٣٦, شباط آذار- ١٩٩٩, ص ص ٦٠- ٦٤ .

٤٢-op. cit - Josh Greenberg,

٤٣-Bernard Sharratt towards the cultural study of time, David Runtered(ed) Introduction contemporory cultural studies, london, longman, ١٩٨٦, pp ٣٥٨ – ٣٥٩.

٤٤- لمزيد من التفاصيل انظر: محمد شومان، النموذج النقدي، التغيير الإنساني وقضايا التأثير الإعلامي في بحوث الصحافة المصرية، كتاب جماعي مهدى إلى أ. د. عواطف عبد الرحمن، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠, ص ص -٢٧٣ ٢٨٨.

٤٥- عبد الله الغذامي, النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافة العربية، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠, ص ص ٢٥- ٢٦.

٤٦- وليام ريفرر وأخرون, وسائل الإعلام في المجتمع الحديث، ترجمة إبراهيم إمام، القاهرة، دار الفكر العربي، ص ٤٩.

٤٧، ٤٨- محمد شومان، دور الإعلام في تكوين الرأي العام، حرب الخليج نموذجًا، القاهرة، المنتدى العربي للدراسات والنشر، ١٩٩٨, ص ١٨.

٤٩- عبد الله الغذامي، مرجع سابق، ص ص -١٨ ١٩.

٥٠-J.Robyn goodman ,op. cit.

٥١- رولان بارت، لذة النص، ترجمة محمد خير البقاعي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٨، ص ٤٦.

٥٢- الزاوي بغورة, مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو, القاهرة, المجلس الأعلى للثقافة, ٢٠٠٠, ص ٢٣٤.

٥٣- هيدن وايت, ميشيل فوكو، في البنيوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا، تحرير جون ستروك، ترجمة محمد عصفور، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٦ ص ١١٤.

٥٤- محمد جواد حسن الموسوي (تقديم) في نقد استجابة القارئ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تحرير جين ب. تومبكنز, ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩, ص ٩.

٥٥- الوفد ١٠/٦ /٢٠٠٠.

٥٦- الوفد ١٠/١٠ /٢٠٠٠

٥٧- الوفد ١٠ / ١٠ / ٢٠٠٠.

٥٨- الوفد ١١/ ١٠ / ٢٠٠٠.

٥٩- الوفد ١٢ / ١٠ / ٢٠٠٠

٦٠- الوفد ٢٠٠٠/١٠/٣٠.

٦١- الوفد ٢٠٠٠/١١/٨.

٦٢- الوفد ٢٠٠٠/١١/٩

٦٣- الوفد ٢٠٠٠/١١/٢٩

٦٤- الأخبار ٢٠٠٠/١٠/٢٧

٦٥- الأخبار ٢٠٠٠/١١/٧.

٦٦- الأخبار ٢٠٠٠/١١/٢٠.

٦٧- الأخبار ٢٠٠٠/١١/٢٦

٦٨- روز اليوسف ٢٠٠٠/١٠/٢

٦٩- روز اليوسف ٢٠٠٠/١٠/٢٠.

٧٠- روز اليوسف ٢٠٠٠/١٠/٢١

٧١- روز اليوسف ٢٠٠٠/١٢/١

ملاحـق الدراسـة

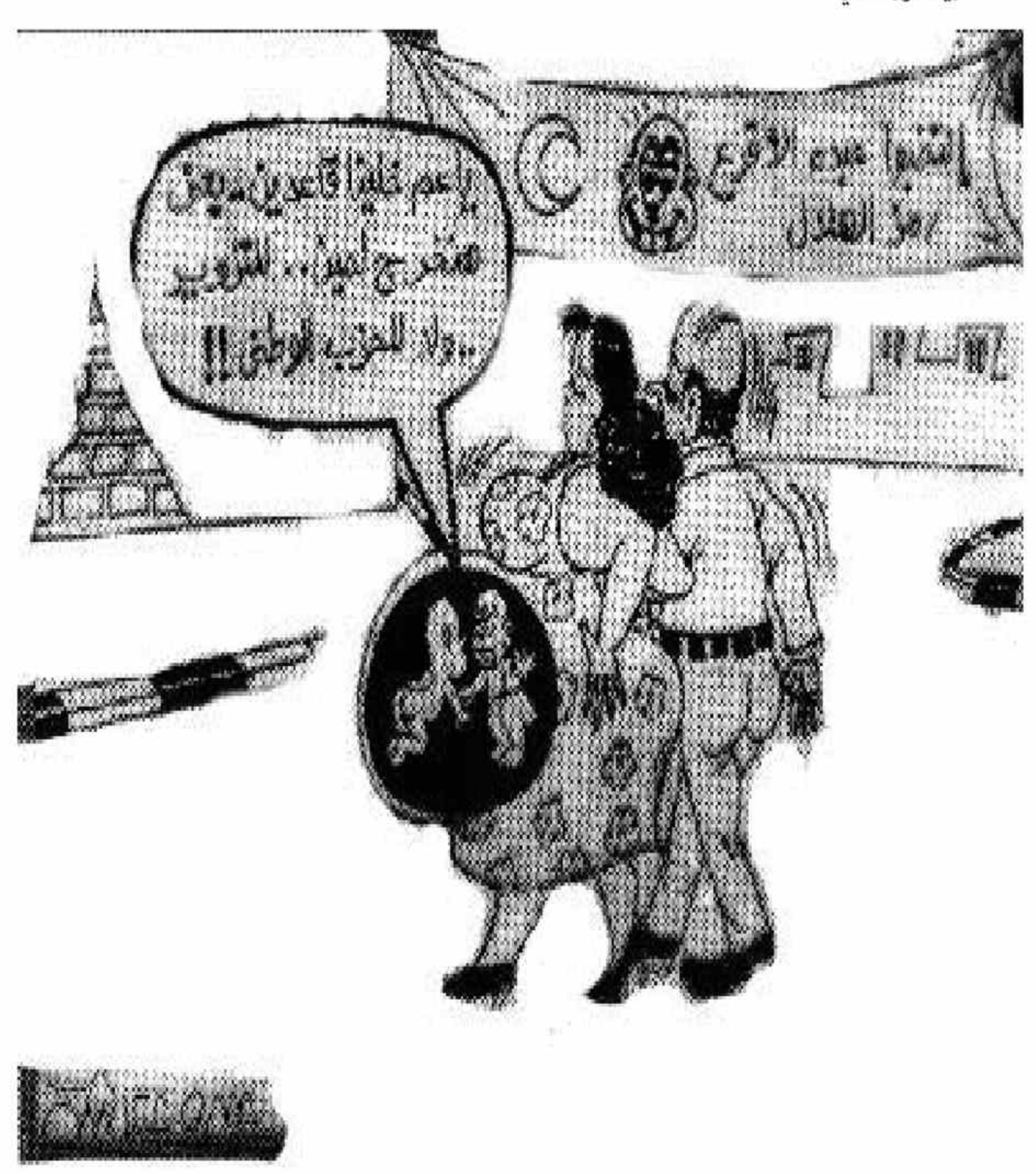
أولًا: عينة الكاريكاتور في صحيفة الوفد:

١-الكاريكاتور الأول:



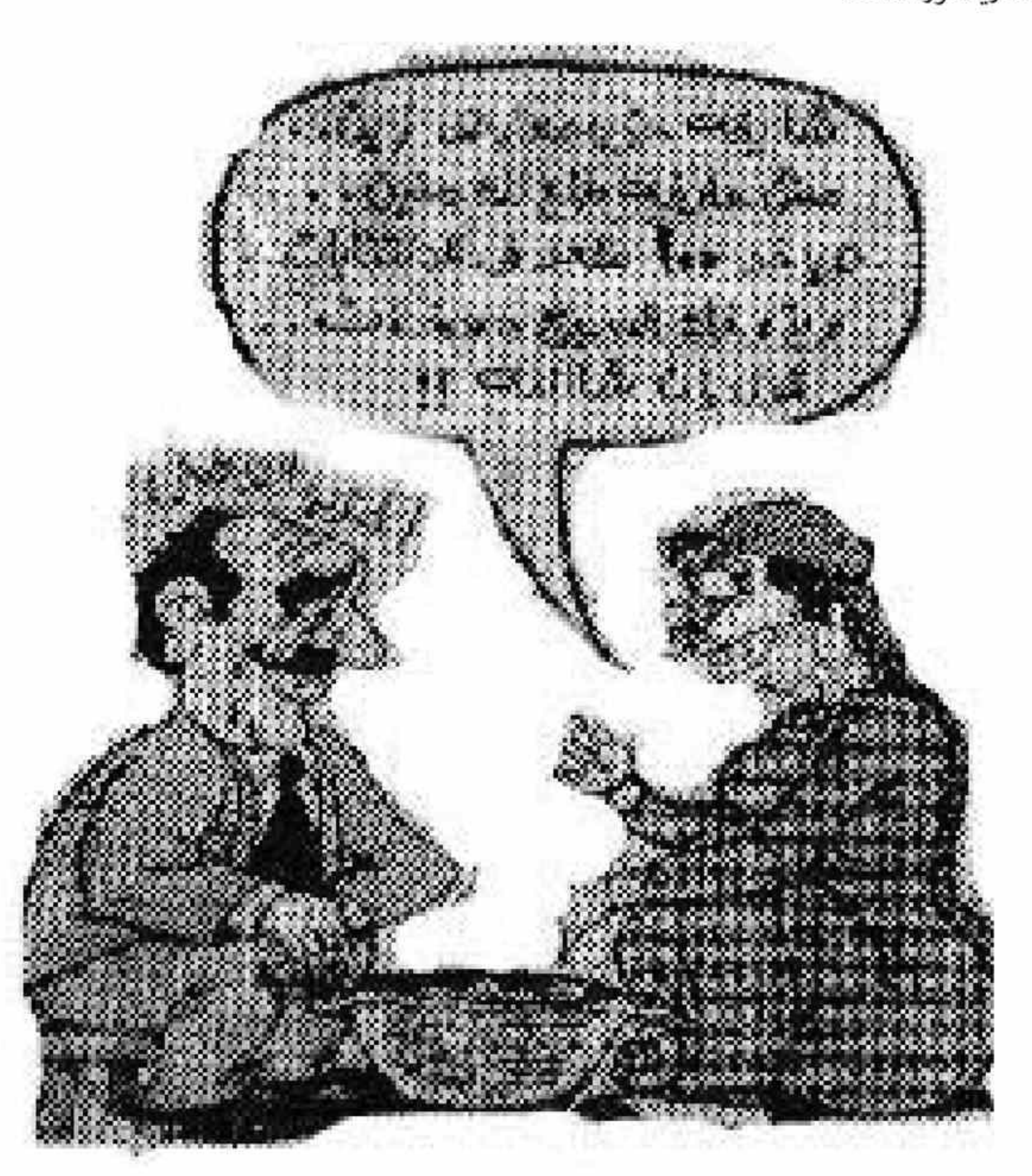
الوفد ٢٠٠٠/١٠/٦

٢-الكاريكاتور الثاني:



الوفد ٢٠٠٠/١٠/١٠

٣-الكاريكاتور الثالث:



الوفد ٢٠٠٠/١٠/١٠

٤-الكاريكاتور الرابع:



الوفد ٢٠٠٠/١٠/١١

٥- الكاريكاتور الخامس:



الوفد ١٢/١٠/٢٠٠٠

٦- الكاريكاتور السادس:



الوفد ٢٠٠٠/١٠/٣٠

٧-الكاريكاتور السابع:



الوفد ٢٠٠٠/١١/٨

٨- الكاريكاتور الثامن:



الوفد ٢٠٠٠/١١/٩

٩- الكاريكاتور التاسع:



الوفد ٢٠٠٠/١١/٢٩

ثانيًا: عينة الكايكاتور في صحيفة الأخبار:

١- الكاريكـاتـور الأول:



١- الأخبار في ٢٠٠٠/١٠/٢٧

٢- الكاريكـاتـور الثـاني:



٢- الأخبار في ٢٠٠٠/١١/٧

٣- الكـاريكاتــور الثـالـث:



٣- الأخبار في ٢٠٠٠/١١/٢٠

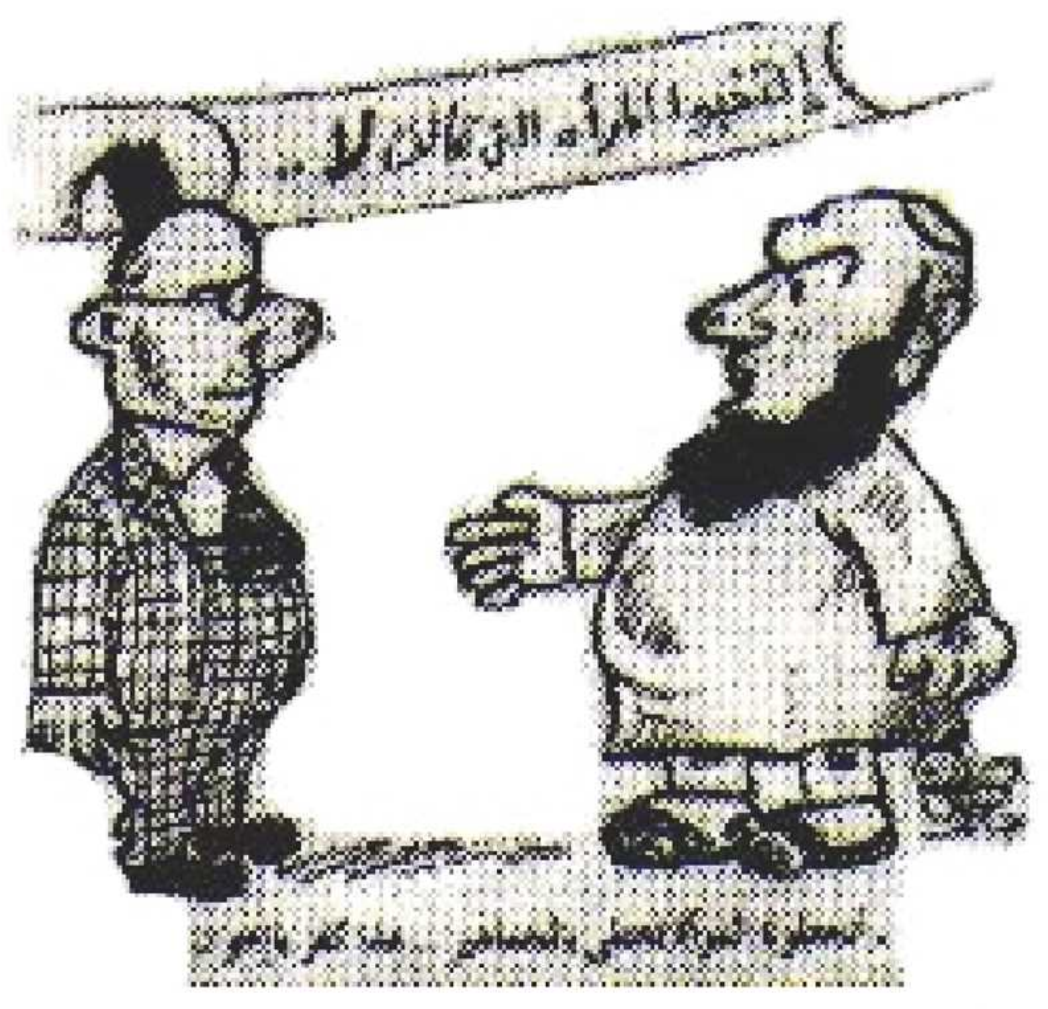
٤- الكاريكاتور الرابع:



الاخبار ٢٠٠٠/١١/٢٦

ثالثًا: عينة الكاريكاتور في مجلة روز اليوسف:

١- الكاريكاتـــورالأول:



روز اليوسف ٢٠/١٠/٢٠٠٠

٢- الكاريكـاتور الثـــاني:



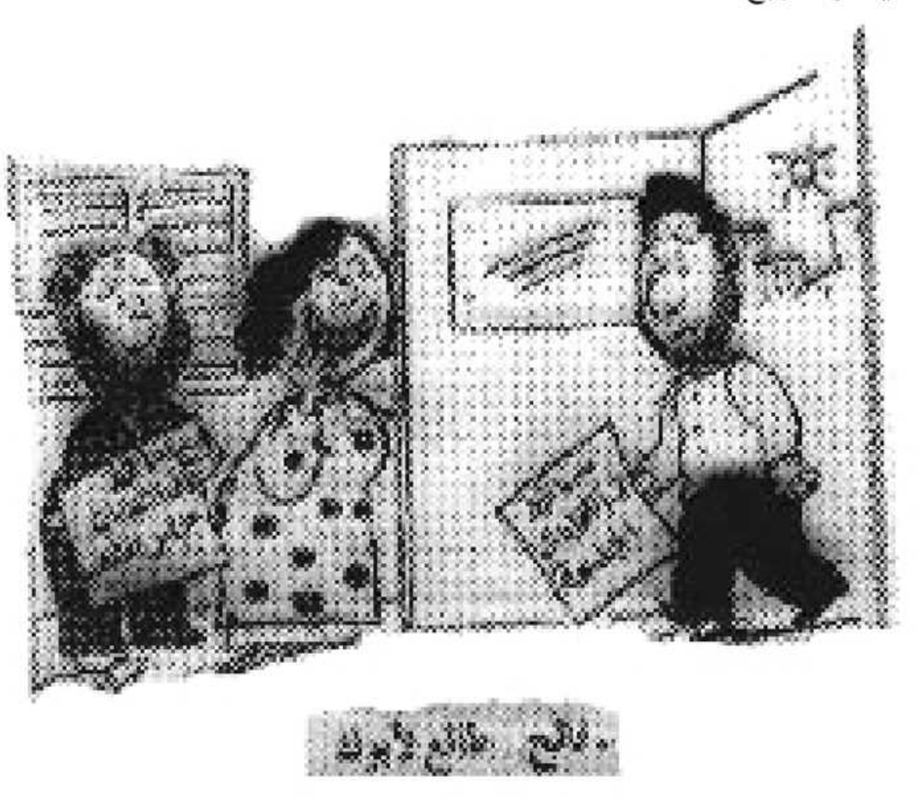
روز اليوسف ٢٠٠٠/١٠/٢٠

٣- الكاريكاتور الثالث:



روز اليوسف ٢٠٠٠/١٠/٢١

٤- الكاريكاتور الرابع:



روز اليوسف ٢٠٠٠/١٢/١

الفصل الرابع
صورة أمريكا في خطاب الإخوان المسلمين بمجلة الدعوة



المقدمة:

ثمة اتفاق عام بين الباحثين على اختلاف توجهاتهم ومواقفهم من جماعة الإخوان المسلمين على أن الجماعة لعبت أدوارًا بالغة الأهمية في الحياة السياسية والفكرية للمجتمعات العربية بعامة، والمجتمع المصري بخاصة، فالجماعة منذ تأسيسها على يد حسن البنا في الإسماعيلية عام ١٩٢٨ وهي محور للاستقطاب والصراع السياسي والاجتماعي، وفاعل رئيسي في الساحتين الدينية والسياسية، وذلك نتيجة طبيعتها الإدماجية للدين والدولة ودعوتها العامة إلى تطبيق حكم الإسلام، من حيث كونه انتماء سياسيًا وامتثالاً لما يقرر للحياة من نظم. (١)

ومع أن جماعة الإخوان لم تنفرد بالدعوة إلى حكم الإسلام، حيث سبقتها وظهرت إلى جانبها جماعات وتيارات فكرية وسياسية عديدة، إلا أن الجماعة ظلت من أكبر هذه الجماعات وأكثرها حيوية وتأثيرًا، (٢) وقد لا يتسع المجال للوقوف على أسباب قوة الجماعة واستمراريتها رغم اغتيال مؤسسها حسن البنا عام ١٩٤٩، ورغم الصدامات العنيفة والمتكررة مع النظام الناصري، لكن تجدر الإشارة إلى أن تعثر مشروع التحرر الوطني، والفشل في مواجهة التحدي الإسرائيلي، والشعور المتزايد بمخاطر التغريب والأزمة الاقتصادية، علاوة على ارتباط أيديولوجيا الجماعة بالإسلام كدين وثقافة سائدة لدى الجماهير قد ضمن الحياة والتأثير القوي لجماعة الإخوان المسلمين. (٣)

ورغم أهمية هذه الأسباب الموضوعية إلا أن هناك أسبابًا ذاتية تتمثل في الصيغ التنظيمية الفاعلة التي ابتكرتها وطورتها الجماعة، وسلسلة التحالفات السياسية الداخلية والإقليمية التي أقدمت عليها قيادة جماعة الإخوان المسلمين عبر تاريخها، ومكنتها من تحقيق مكاسب أحيانًا، والدخول في صدامات ومواجهات عنيفة في أحيان أخرى.

ومع التسليم بأولوية الأسباب والعوامل الموضوعية في الإبقاء على الجماعة وضمان

تطورهـا، إلا أن الطابـع التبشـيري الدعـوي المرتبـط بحكـم الإسـلام في صورتـه النقيـة قـد حافـظ عـلى قـوة الدفـع المعنويـة والطاقـة الروحيـة لأيديولوجيـا الجماعـة، فالجماعـة رغـم تحالفاتهـا السياسـية والحزبيـة لم تتـول مسـئولية الحكـم في مـصر أو أي بلـد عـربي بشـكل مسـتقل، وبالتـالي حافظـت عـلى نقـاء النمـوذج- الحلـم لقيـام دولـة الإسـلام (كتبـت هـذه الدراسـة قبـل وصـول الإخـوان للحكـم فى مـصر عـام ٢٠١٢ - ٢٠١٣).

مجلة الدعوة:

لعـل مـن أشـهر وأهـم التحالفـات أو بالأحـرى الاتفاقـات التـي عقدتهـا جماعـة الإخـوان المسـلمين مـا حـدث مـع الرئيـس الراحـل أنـور السـادات في بدايـة سـنوات حكمـه في مطلـع السـبعينات, حيـث لجـأ السـادات لجماعـة الإخـوان والجماعـات الإسـلامية لـكي يـوازن بهـا قـوة ونفـوذ فصائـل اليسـار التـي كانـت تعـارض سياسـاته، ويضمـن وجـود قـوة مؤثـرة في الشـارع المـصري تقـف إلى جانبـه، في المقابـل أفـرج السـادات عـن أعضـاء الجماعـة المعتقلـين ولبـى بعـض مطالبهـم، كـما أبـدى اسـتعداده لتسـهيل عـودة الإخـوان المسـلمين إلى النشـاط العلنـي، (٤) وفي إطـار هـذا الاتفـاق أعيـد إصـدار مجلـة الدعـوة في يوليـو ١٩٧٦، حيـث تـولى عمـر التلمسـاني، المرشـد العـام لجماعـة الإخـوان، إدارة المجلـة والإشراف عليهـا، بينـما تـولى صالـح عشـماوي أحـد قيـادات الجماعـة رئاسـة التحريـر، الأمـر الـذي يكشـف عـن التداخـل الكبـير بـين المجلـة والجماعـة، بـل وربمـا التوحـد بينهـما، في هـذا السـياق يمكـن القـول بتطابـق أهـداف الصحيفـة/ المجلـة مـع أهـداف الجماعـة. (٥)

عـلى أن اتفـاق أو تحالـف الإخـوان المسـلمين مـع السـادات سرعـان مـا تقـوض نتيجـة اتجـاه السـادات المتسـارع نحـو الانفتـاح عـلى الغـرب، وإقدامـه عـلى زيـارة إسرائيـل في نوفمـبر ١٩٧٧، فانضـم الإخـوان المسـلمون إلى جبهـة المعارضـة الواضحـة لنهـج السـادات، وتبنـت مجلـة الدعـوة الناطقـة باسـم الإخـوان المسـلمين إعـلان الرفـض التـام لكافـة توجهـات السـلام، فضـلًا عـن رفـض كل السياسـات التـي تـرى فيهـا خروجًـا عـن القيـم الدينيـة والروحيـة للمجتمـع، مـن هنـا

كانت مجلة الدعوة ضمن صحف ومجلات أخرى دينية وسياسية تضمنها قرار الرئيس السادات رقم ٤٩٤ لسنة ١٩٨١ بإلغاء التراخيص الممنوحة لها، تحت دعوى أنها شاركت في إشعال نيران الفتنة الطائفية. (٦)

هكذا لم تزد العودة الثانية لمجلة الدعوة عن خمس سنوات وشهرين فقط، ومع ذلك نجحت المجلة في التحدث باسم جماعة الإخوان المحظورة قانونيًا في مصر، وفي التعبير عن الخطاب السياسي والصحفي للجماعة، وقد جسد خطاب الإخوان المسلمين في الدعوة أفكار الجماعة ومواقفها تجاه قضايا السياسة الداخلية والخارجية، كما عبر عن مسار العلاقة بين جماعة الإخوان المسلمين والرئيس السادات، والتي بدأت بالتعاون والتحالف وانتهت بالصدام.

والثابت أن خطاب الإخوان المسلمين في مجلة الدعوة لم يقتصر على القضايا السياسية، بل كان معنيًا أيضًا بالتأصيل النظري والفكري للمشروع الإسلامي من كافة أبعاده ومكوناته، بل تطرق خطاب الإخوان المسلمين في مجلة الدعوة لعلاقة الجماعة بالثقافة الغربية. ومواقفها من السياسة الأمريكية، من هنا تبدو أهمية دراسة صورة الولايات المتحدة في خطاب الإخوان المسلمين بمجلة الدعوة، انطلاقًا من فرضية أن خطاب مجلة الدعوة هو خطاب الإخوان المسلمين، ومن كون مجلة الدعوة هي التمثيل والتعبير العلني المنظم لجماعة الإخوان المسلمين وأفكارها ومواقفها في أو اخر حقبة السبعينات, والتي شهدت نموًا ملحوظًا للجماعات والحركات الإسلامية، وفي مقدمتها جماعة الإخوان المسلمين، وربما شهدت أيضًا- ونتيجة لهذا النمو- اهتمامًا أمريكيًا متزايداً بدراسة الحركات الإسلامية والتعامل معها على كافة المستويات، خاصة بعد تصاعد الدور الأمريكي في مفاوضات السلام، وعلاقات الرئيس السادات بالولايات المتحدة.

تغطي الدراسة كل أعداد مجلة الدعوة في فترة إصدارها الثانية، وهي ٦٥ عددًا، صدرت في الفترة من يوليو ١٩٧٦ وحتى سبتمبر ١٩٨١، على أن تقتصر عينة المواد

الصحفية على كل مواد الرأي، وقد وقع الاختيار على مواد الرأي لسببين، الأول أن مواد الرأي أكثر قدرة من مواد التحرير الصحفي الأخرى على تقديم الصور الذهنية، لأنها تعتمد على المعلومات والانطباعات والآراء، الثاني أن مجلة الدعوة مجلة رأي وموقف أكثر من كونها مجلة خبرية، وذلك بحكم ارتباطها واندماجها في جماعة الإخوان المسلمين، وقيامها بدور الأداة الرئيسية للخطاب الصحفي والسياسي لجماعة الإخوان المسلمين.

وفي ضوء المعايير السابقة ظهرت ٤٤ مادة صحفية في ٣٨ عددًا بنسبة ٥٨,٤٪ من مجموع أعداد فترة الإصدار الثاني لمجلة الدعوة، وتوزعت المواد الصحفية على ٢٥ مقال رأي بأنواعه- منها ٩ مقالات افتتاحية لعمر التلمساني المرشد العام لجماعة الإخوان والمشرف على مجلة الدعوة- و ١٨ تقريرًا وتحقيق واحد فقط.. مما يعني أن المقال الصحفي بأنواعه جاء في المرتبة الأولى وبنسبة ٥٦,٨٪ بين المواد الصحفية التي خضعت للتحليل وشكلت خطاب مجلة الدعوة، أو خطاب جماعة الإخوان المسلمين في تقديم صورة أمريكا الرسمية والشعبية، والترويج له.

مكونات الصورة:

يمكن تفصيل هذه الصورة إلى المكونات الرئيسية الأربعة التالية:

١- أمريكا تقود مؤامرة دولية ضد العرب والمسلمين.

٢- أمريكا تحارب المسلمين.

٣- أمريكا منحازة لإسرائيل.

٤- المجتمع الأمريكي في طريقه إلى الانهيار.

لقد تناول خطاب الإخوان المسلمين في مجلة الدعوة هذه المكونات الأربعة في ٣٨ عددًا من أعداد المجلة بنسبة ٥٨,٤٪ من مجموع أعداد إصدارها الثاني، بينما لم يتناول ٢٧ عددًا ملامح صورة الولايات المتحدة.

ويلاحظ بشكل عام قلة عدد الأفكار والأطروحات والبراهين التي استخدمت في تقديم صورة الولايات المتحدة، واتسامها بالتكرار دون تنوع كبير في البراهين والحجج التى استخدمها هذا الخطاب, ويمكن تفسير ذلك في ضوء الطابع الأيديولوجي الدعوي الغالب على خطاب مجلة الدعوة، لسان حال الإخوان المسلمين، وطبيعته المغلقة، بمعنى أن مقدماته ومسلماته تكاد تكون هي نتائجه، ومن ثم عدم حاجة مثل هذا الخطاب إلى تنويع أطروحاته وبراهينه، أو مناقشة تفاصيل صورة الولايات المتحدة من زوايا أو جوانب مغايرة لموقفه، بقدر رغبته في تكرارها والتأكيد عليها.

١- أمريكا تقود مؤامرة دولية ضد العرب والمسلمين:

برزت في خطاب الدعوة صورة أمريكا كبلد قوي، يقود مؤامرة عالمية ضد العرب والمسلمين، وتهدف هذه المؤامرة إلى احتلال أراضي العرب والمسلمين واستغلال ثرواتهم إما بطرق مباشرة أو غير مباشرة، فضلًا عن تهديد الهوية الإسلامية، لكن من الغريب أن أمريكا التي تقود المؤامرة ضد العرب والمسلمين- تخطيطًا وتنفيذًا- تتعاون مع إسرائيل والشيوعية العالمية لتنفيذ هذه المؤامرة، رغم الخلافات أو التناقضات التي تظهر على السطح بين أمريكا والاتحاد السوفيتي أو أمريكا وإسرائيل، من هنا يهتم خطاب الإخوان بإثبات زيف هذه الخلافات، وأنها ليست سوى نوع من تقسيم الأدوار.

في هذا السياق يذكر عمر التلمساني المرشد العام للإخوان في افتتاحية مجلة الدعوة «وضح كل ما قلناه من أن الولايات المتحدة والغرب من جهة، والاتحاد السوفيتي من جهة ثانية، والصهيونية من جهة ثالثة، لن يهدأ لهم بال، ولن تنتهي لهم تخطيطات ومؤامرات حتى يروا العالم الإسلامي مشتعلًا نارًا تأتي على كل أخضر ويابس، ليأمنوا على صليبيتهم وإلحادهم وصهيونيتهم، بالقضاء على المسلمين الذين يقفون سدودًا مانعة- ولو في ضعف- ضد زحفهم الرهيب على المسلمين في كل بقاع الأرض» (٤٥).

إن مثل هـذه الأطروحـة المركبـة ومـا يرتبـط بهـا مـن براهـين تمثـل ركيـزة أساسـية لصـورة أمريـكا في خطـاب مجلـة الدعـوة لسـان حـال الإخـوان المسـلمون، إذ يتكـرر معنـى الأطروحـة في عـدة مواقـع، وتقـدم أحيانًـا عـلى أسـاس أنهـا بديهيـة لا تحتـاج إلى براهـين أو أدلـة، أونتيجـة مـن نتائـج ضعـف المسـلمين وعـدم التـزام حـكام المسـلمين بالشريعـة الإسـلامية، كـما تقـدم الأطروحـة ذاتهـا بصياغـات مختلفـة في سـياق تفسـير ضعـف المسـلمين، أي أن فكـرة المؤامـرة العالميـة التـي تقودهـا أمريـكا تشـخص كسـبب ونتيجـة في آن واحـد لضعـف المسـلمين وابتعادهـم عـن الإسـلام الصحيـح، وثمـة أطروحـة جامعـة لعبـد المنعـم سـليم مدعومـة بثلاثـة براهـين توضـح المنطلـق الأسـاسي لفكـرة- أو مـا يمكـن وصفـه بنظريـة- المؤامـرة في خطـاب الإخـوان المسـلمون، وموقـع أمريـكا القائـد في تنفيـذ هـذه المؤامـرة، يقـول: «الـشرق الشـيوعي واليهـود والغـرب الرأسـمالي ليسـوا سـوى سرطانـات حاولـت التغلغـل داخـل جسـم العـالم العـربي والإسـلامي.. – ببراهـين- للسـيطرة عـلى الموقـع الاسـتراتيجي الخطـير، ولاسـتغلال الـثروات، وقبـل هـذا وذاك لـضرب الإسـلام والخـلاص منـه كعقيـدة ونظـام, والوسـائل متعـددة, والسـبل كثـيرة، والهـدف الواحـد يجمـع بـين الأعـداء. (٤٦)

واسـتنادًا إلى نظريـة ثالـوث المؤامـرة «الغـرب الصليبـي بقيـادة أمريـكا والشـيوعية واليهـود» يقـدم خطـاب الإخـوان المسـلمون في مجلـة الدعـوة قـراءة للأحـداث والتطـورات السياسـية في العـالم الإسـلامي تؤكـد هـذه النظريـة وتدعمهـا بغـض النظـر عـن معطيـات الواقـع، فالوجـود السـوفيتي في أثيوبيـا والحـرب ضـد المسـلمين في الصومـال يتـم برضـا أمريـكا عـبر إسرائيـل. (٤٧)

ويقـدم (عمـر التلمسـاني) أطروحـة أن قيـام الحـرب بـين إيـران والعـراق مـا هـو إلا تخطيـط أمريـكي شـيوعي، (٤٨) ويؤكـد نفـس المعنـى في أطروحـة أن أمريـكا متواطئـة مـع الاتحـاد السـوفيتي في غـزوه العسـكري لأفغانسـتان، ببراهـين أن هـذا الغـزو حقـق أهـداف أمريـكا حيـث ألقـى الرعـب في قلـوب حـكام الـدول البتروليـة، ومنـع دخـول المجاهديـن إلى كابـول وإعـلان دولـة إسـلامية، كـما سـاعد أمريـكا عـلى إخفـاء وجههـا القبيـح كزعيمـة للصليبيـة العالميـة. (٤٩)

في الوقـت ذاتـه فـإن الرضـا الأمريـكي أو الـروسي عـلى خطـوات اليهـود أمـس واليـوم وغـدًا لـن يتغـير مـا دامـت لليهـود دولـة، مهمتهـا كـما قـال هرتـزل، أن تكـون جـزءًا مـن مـتراس أوربـا ضـد أسـيا وسـتكون موقعًـا أماميًـا للحضـارة ضـد البربريـة، (٥٠) ويـرى (التلمسـاني) في أطروحـة جامعـة أن سياسـة إسرائيـل وأمريـكا وروسـيا تعمـل ضـد العـالم الإسـلامي. (٥١)

لكـن مـع تطـور التسـوية السـلمية بعـد توقيـع مـصر لاتفاقيـة (كامـب ديفيـد) تركـزت أطروحـات خطـاب مجلـة الدعـوة عـلى العلاقـة الخاصـة والمميـزة بـين أمريـكا وإسرائيـل، وعـلى التحيـز الأمريـكي الكامـل لإسرائيـل، وتشـدد أطروحـات مجلـة الدعـوة عـلى أن أمريـكا ليسـت مجـرد وسـيط محايـد، بدليـل أن أمـن ووجـود إسرائيـل يدخـل ضمـن مصالـح أمريـكا في المنطقـة، (٥٤) وتشـير بعـض أطروحـات مجلـة الدعـوة إلى أن الحـل السـلمي هـو مسرحيـة أمريكيـة بـدأت أمريـكا في الإعـداد لهـا منـذ قيـام إسرائيـل, ببراهـين أن الاعـتراف بإسرائيـل واسـتقرار المنطقـة يضمـن المصالـح الأمريكيـة (٥٥)، وفي إطـار هـذه المسرحيـة يجـري الادعـاء بـأن هنـاك خلافـات بـين الحـزب الديمقراطـي والحـزب الجمهـوري تجـاه إسرائيـل، وأن هنـاك خـلاف بـين الرئيـس الأمريـكي جيمـي كارتـر ورئيـس وزراء إسرائيـل بيجـين. (٥٦)

هكـذا دفـع تطـور عمليـة التسـوية خطـاب الإخـوان المسـلمون إلى الاهتـمام بمتابعـة الـدور الأمريكي في التسـوية، والتركيـز عـلى انحيـازه لإسرائيـل، وقـد جـاء هذا الاهتـمام على حسـاب اتسـاق وتكامل خطاب الإخـوان في تصويـره لاتفـاق الاتحـاد السـوفيتي وأمريـكا عـلى دعـم إسرائيـل والوقـوف إلى جانبهـا ضـد العـرب، لقـد سـكت خطـاب الإخـوان المسـلمون عـن توضيح موقـف الاتحـاد السـوفيتي من التسـوية بعد كامـب ديفيـد، ولم يهتـم بتقديـم تفسـير أو توضيـح لمـا حـدث، حرصًـا منـه عـلى ما يبـدو على الإبقـاء على التماسـك الشـكلي والمريـح أيضًـا لنظريـة تآمـر القـوى الثـلاث بقيـادة أمريكا ضد العـرب والمسـلمين، وذلك رغـم أن هـذه النظريـة في التحليـل الأخـير تعنـي أن كل العالم يعادي المسـلمين، أو بكلـمات أخرى كل الآخر غـير المسـلم يتآمـر عـلى العـرب المسـلمين، فالعـالم في أواخـر السـبعينات- وقـت صـدور مجلـة الدعـوة-

منقسـم إلى غـرب مسـيحي «صليبـي» أو شرق شـيوعي، وذلـك رغـم أن خريطـة توزيـع عـالم المسـيحية أو عـالم الشـيوعية كان يتجـاوز نطـاق المعسـكرين الشرقـي والغـربي، ويمتـد إلى أفريقيـا وأسـيا وأمريـكا اللاتينيـة.

٢- أمريكا تحارب المسلمين:

ومـن الصـورة العامـة لأمريـكا كطـرف أصيـل وقائـد في المؤامـرة العالميـة ضـد العـرب والمسـلمين ينتقـل خطـاب مجلـة الدعـوة إلى نـوع مـن التخصيـص، فيركـز عـلى صـورة أمريـكا التـي تحـارب الإسـلام والمسـلمين، أي أن خطـاب مجلـة الدعـوة يتعامـل مـع أمريـكا عـلى مسـتويين: الأول، عـام: ينطلـق وينتهي إلى المقولـة- الصـورة أن أمريـكا تقـود الصليبيـة العالميـة والشـيوعية واليهوديـة في التآمـر عـلى العـرب والمسـلمين، والثـاني، خـاص: يركـز عـلى تفاصيـل دور أمريـكا في محاربـة العـرب والمسـلمين، بـل والإسـلام ذاتـه كعقيـدة وهويـة.

وثمـة ارتبـاط وثيـق، بـل نـوع مـن التداخـل والتكامـل بـين أطروحـات المسـتويين العـام والخـاص فـكل منهـما يدعـم الآخـر، فالمؤامـرة العالميـة التـي تقودهـا أمريـكا تقـدم كبديهيـة تفـسر لمـاذا تحـارب أمريـكا العـرب والمسـلمين، في الوقـت نفسـه فـإن تفاصيـل محاربـة أمريـكا للإسـلام والمسـلمين تسـتخدم للبرهنـة والتأكيـد عـلى أن أمريـكا تتآمـر عـلى الإسـلام والمسـلمين.

في ضـوء هـذا التـلازم والتكامـل بـين نظريـة المؤامـرة وحـرب أمريـكا عـلى الإسـلام والمسـلمين والعـرب تعـرض الدعـوة لهجـوم مجلـة أمريكيـة عـلى عـودة الإخـوان المسـلمون، ويـرى خطـاب الإخـوان أنـه هجـوم غـير موضوعـي، لكنـه ليـس غريبًـا عـلى الـشرق الشـيوعي ولا عـلى الغـرب الصليبـي, ببرهـان أن «الإخـوان هـم العقبـة الوحيـدة أمـام الإلحـاد الأحمـر، وأمـام المـد الغـربي التبشـيري، «وأن حـرب الـشرق الشـيوعي والغـرب الصليبـي عـلى الإخـوان هـي امتـداد لحربهـا عـلى الإسـلام». (٥٧)

والشـاهد أن أطروحـات خطـاب مجلـة الدعـوة فيـما يتعلـق بتصويـر أمريـكا كبلـد يحـارب

الإسلام والمسلمين، «تؤكد علاقة الارتباط والتلازم بين نظرية المؤامرة وكون أمريكا أحد أهم أطراف المؤامرة الدولية على الإسلام والعرب.. في هذا السياق تأتي أطروحات خطاب مجلة الدعوة في مقال (لعبد الحليم عويس) يرى فيه أن «أمريكا طوقت العالم الإسلامي خلال ثلاث مراحل»، في الأولى أو التمهيدية «نجحت أمريكا في تفريغ العالم الإسلامي من الاستعمار القديم التقليدي.. وأحدثت بعده أنواعًا من الانقلابات الدموية الثورية التي قضت على ما أبقاه الاستعمار رغمًا عنه من خمائر القوة الكامنة» ببرهان القضاء على الحركات الإسلامية الإيجابية كالإخوان المسلمين.

وبدأت المرحلة الثانية بين عامي ٦٦، ١٩٦٧ من مراحل ابتلاع أمريكا للعالم الإسلامي وفيها أشعلت الحروب.. وتسعى إلى «فرض الأمركة وتوابعها من تبشير وتحلل خلقي ونظام رأسمالي.. ويقرر الكاتب في أطروحة ذات دلالة أننا نعيش في المرحلة الثانية، أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الاستيلاء شبه الكامل على العالم الإسلامي، ويكون المبرر الأمريكي هو إنقاذ العالم من الشيوعية.

مجمل هذه الأطروحات التي تصور أمريكا كبلد يعمل على تطويق المسلمين والاستيلاء على العالم الإسلامي لا تبتعد كثيرًا عن نظرية ثالوث المؤامرة الدولية، فالكاتب يقدم أطروحة أن أمريكا تقوم في المرحلة الثانية من حربها على الإسلام والمسلمين «باستئجار الشيوعية لإشعال الحرائق كي تمهد الأرض للتطويق الأمريكي كمنقذ».. كذلك فإن أمريكا لديها مخطط تآمري للاستيلاء على العالم الإسلامي، لكن المفارقة أن الكاتب لا يستخدم كلمة (عدو) لوصف أمريكا ويكتفي في أحد الأطروحات بالقول «أننا لا ننظر لأمريكا كصديقة» وهو ما قد يعني ضمنيًا، وبالمعنى المعكوس أن أمريكا هي عدو للإسلام والمسلمين بما في ذلك بطبيعة الحال العرب.

وبصفه عامة فإن خطاب مجلة الدعوة في تصويره لأمريكا لم يستخدم كلمة (عدو) أو (خصم) في وصف أمريكا أو حتى السياسة الأمريكية، وأعتقد أن خطاب الإخوان كان

حريصًا على ذلك حتى لا يستعدي أمريكا على جماعة «الإخوان المسلمين» من جهة، وحتى يحافظ على شعرة معاوية بينه وبين أمريكا من جهة ثانية.

في هذا الصدد نشير إلى أن مجلة الدعوة نشرت تقريرًا منسوبًا إلى أحد عملاء المخابرات الأمريكية، يذكر فيه أن القوى الحقيقية التي ستقف ضد اتفاقية السلام المزمع عقدها بين مصر وإسرائيل هي التجمعات الإسلامية وفي مقدمتها جماعة الإخوان المسلمين، بصورها المختلفة في الدول العربية، وامتداداتها في أوربا وفي أمريكا الشمالية، من هنا يقترح مقدم التقرير ضرب جماعة الإخوان المسلمين بطريقة القمع الجزئي، وتتضمن هذه الطريقة التخلص من قيادات الجماعة بتقديم مغريات مادية لهم، كتوفير فرص لهم في البلاد النفطية، علاوة على زرع الخلافات بين التجمعات الإسلامية في أوربا وأمريكا.

ورغم أن مجلة الدعوة نشرت التقرير تحت عنوان ساخن هو (تقرير خطير للمخابرات الأمريكية ينصح بخطة جديدة لتصفية الحركات الإسلامية)، إلا أن (عمر التلمساني) قدم للتقرير بجمل لا تخلو من دلالة الحرص على علاقات غير عدائية مع السياسة الأمريكية في المنطقة، حيث بدأ بعبارة: «كنا ولا نزال كمسلمين نحسن الظن بالناس».. وأضاف: «ولكننا فوجئنا من أيام بخطاب من خارج القطر وبداخله صورة تقرير لأحد رجال المخابرات الأمريكية يرفعه إلى رؤسائه»، ويتابع «وترددت في نشره ولكن أمانة المسلم تحتم علينا أن نحذر المسلمين من أي خطر يتهددهم»، ويقول: قد يكون- يقصد التقرير- صادرًا فعلًا من أحد رجال المخابرات الأمريكية، فيجب على المسلمين أن يتعرفوا على نوايا هذه الدول نحوهم، ويتابع: «وقد يكون التقرير منسوبًا إلى رجال المخابرات بغير حق، فيجب على الأمريكيين أن يتعرفوا على صورة من المحاولات التي تبذل لتسميم الجو بينهم وبين المسلمين». (٥٩)

أفكار التلمساني وعباراته قدمت بلا أسانيد أو براهين، لكنها في الوقت ذاته لا تقطع بصحة التقرير أو تحدد اتهام معين، بل تثير تساؤلات مراوغة في مستوى لا يصل إلى الخلاف أو القطيعة، إذ تنطلق من حسن النية بالسياسة الأمريكية، وإلى احتمال وجود من يحاول تسميم الجو بين أمريكا والمسلمين، وتجدر الإشارة هنا إلى التماهي بين المسلمين والإخوان المسلمين، وإلى الرسالة الخفية التي يحملها خطاب مجلة الدعوة بإمكانية فتح حوار أو على الأقل قيام المسئولين الأمريكيين بنفي صحة هذا التقرير، وهو ما قام به المستشار الصحفي للسفارة الأمريكية بالقاهرة، حيث نشر في عدد تالٍ من مجلة الدعوة تكذيبًا، نُشِر كما يقول (عمر التلمساني) بنص كلماته وحروفه.

ويمكن النظر إلى نشر التقرير بدون توقيع (٦٠) على أنه بالونة اختبار للسياسة الأمريكية تجاه الإخوان، وفي الوقت نفسه دعوة غير مباشرة للحوار, ثم إنه أيضًا بمثابة إعلان قوي أمام أعضاء وجماهير جماعة الإخوان المسلمين بسلامة مواقفها وقوتها السياسية، فالولايات المتحدة تخشى من قوة الجماعة وامتداداتها في الدول الإسلامية وأوربا وأمريكا الشمالية، وقدرتها بالتالي على الوقوف ضد اتفاقية السلام المزمع عقدها بين مصر وإسرائيل، في الوقت نفسه فإن نسبة التقرير إلى المخابرات الأمريكية، يؤكد فكر الجماعة ومنطلقاتها الخاصة بنظرية المؤامرة التي تقودها أمريكا ضد الإسلام كما يتجسد في جماعة الإخوان المسلمين، وبالتالي يمكن القول إن خطاب الدعوة أقرب إلى تصديق نسبة هذا التقرير إلى عميل حقيقي في المخابرات، لاسيما وأن صورة أمريكا كدولة تتآمر وتحارب الإسلام والمسلمين لم تغب عن خطاب مجلة الدعوة، بل ربما كانت مكونًا أصيلًا من أيديولوجيا جماعة الإخوان المسلمين.

حصاد ما سبق أن أمريكا التي تحارب الإسلام والمسلمين والعرب هي أحد مكونات صورة الولايات المتحدة في خطاب مجلة الدعوة، ومع ذلك فإن هذا الخطاب حرص على عدم الدخول في مواجهة عنيفة مع أمريكا أو التنديد السافر بسياستها تجاه العرب

والمسلمين، من هنا لم يستخدم خطاب مجلة الدعوة كلمة (عدو) لوصف أمريكا، وحرص على الحفاظ على خط رجعة وربما قناة للاتصال والحوار مع أمريكا، ولعل ما يؤكد ذلك أطروحات عمر التلمساني المرشد العام لجماعة الإخوان في مقال افتتاحي لمجلة الدعوة بعنوان «أمريكا من وجهة نظر إسلامية» يقول في بدايته: «سألني سائل: أرى أكثر نقدك موجهًا إلى الأمريكان، وقليل منه نحو الروس؟، قلت قد يبدو في ظاهر الأمر أنك محق فيما تقول «ويقدم أطروحة مفسرة لذلك هي أن الروس ولجوا في إلحادهم، ويضيف في أطروحة ثانية: «وقد رأينا شناعة وبشاعة أساليبهم وسياساتهم، ليس لي معهم من عتاب ولا يجدي إزاءهم انتقاد».. «أما الأمريكان- والكلام للتلمساني- فهم وإن كانت إساءاتهم للإسلام بالغة المدى، فمازلنا نعتبرهم أهل كتاب.. وفي ظل هذا المعنى تستطيع أن تقرأ هذا المقال».

هكذا تصبح العبارة الأخيرة هي إجابة سؤال السائل من جهة، كما أنها هي المنطلق أو البوصلة التي توجه أطروحات التلمساني من جهة ثانية، في هذا الإطار يسلم التلمساني في أطروحة ذات دلالة «أن الولايات المتحدة هي أقوى دول الأرض من الناحية المادية» ويتابع «وأن عيونها على مختلف أسمائها تنفذ إلى أعمق أعماق أسرار دول الأرض»، كما أنها تستطيع «أن تجمع بين مصالحها الخاصة وبين العدالة في معاملة الشعوب»، ثم يعرض التلمساني في عدة أطروحات لمظاهر التناقض بين أقوال المسئولين الأمريكان وبين تصرفاتهم الفعلية بشأن سياسة إسرائيل تجاه لبنان، ويلاحظ أن الاستشهاد والبراهين التي يقدمها التلمساني تعتمد على ما تنشره صحيفة الأخبار بالدرجة الأولى ثم الأهرام بالدرجة الثانية، ويقرر في أطروحة جديدة أن أمريكا تكتفي بإدانة اعتداءات إسرائيل الوحشية على لبنان، وذلك رغم أن التأكيدات الأمريكية كانت بعدم السماح بهذه الاعتداءات وليس بمجرد الإدانة.

ويتابع التلمساني «فإذا عتبنا على أمريكا هذا الموقف أو انتقدناه أو استنكرناه نكون

قـد غاضبنـا أمريـكا وتجنينـا عليهـا وأسـأنا إليهـا» وتضيـف أطروحـة أخـرى: «إن في السـفارة الأمريكيـة بالقاهـرة مستشـارًا سياسـيًا غايـة في الرقـة والأدب والكياسـة، وقـد سـبق أن عتـب عـلى المجلـة لخـبر مـا، فهـل لـه اليـوم أن يعتـب عـلى حكومتـه؟»، ورغـم أن التلمسـاني لا يوضـح طبيعـة أو مضمـون هـذا الخـبر، إلا أنـه يكتفـي بالتذكـير بوجـود اتصـال وعتـاب متبـادل، ثـم يضيـف في أطروحـة تسـاؤلية» ألا يـسيء إلى سـمعة الولايـات المتحـدة أن يؤكـد رئيسـها أمـرًا فتتحـداه إسرائيـل هـذا التحـدي السـافر؟»، ويضيـف: «وهـل تعتـب أمريـكا علينـا إذا قلنـا لهـا أن هـذا موقـف غـير سـليم؟، وغـير هـذا كان أجـدر بهـا وأحفـظ لسـمعتها لهـا عنـد دول الـشرق الأوسـط وحـده ولكـن في العـالم كلـه».

إن خطـاب مجلـة الدعـوة كـما تجسـده هنـا أطروحـات المرشـد العـام يبتعـد عـن الأفعـال والأوصـاف العدائيـة للسياسـة الأمريكيـة في المنطقـة، كـما يصـف سياسـتها ومواقفهـا بأنهـا غـير سـليمة، وتـسيء إلى سـمعة أمريـكا، ولاشـك أن هـذا الأسـلوب في نقـد السياسـة الأمريكيـة يختلـف كثـيرًا عـما كان سـائدًا آنـذاك في خطابـات القـوى السياسـية العربيـة المعارضـة لمنهـج كامـب ديفيـد ولسياسـة أمريـكا تجـاه إسرائيـل، وذلـك رغـم موقـف الإخـوان المعـروف مـن معارضـة كامـب ديفيـد وسياسـة أمريـكا في المنطقـة، وربمـا يمكـن تفسـير ذلـك في ضـوء تسـليم خطـاب الإخـوان بـأن الأمريـكان أهـل كتـاب، وبالتـالي فهـم أقـرب للمسـلمين مـن الشـيوعيين، ومـن المطلـوب إقامـة حـوار وقنـوات اتصـال وربمـا تعـاون بـين الطرفـين، في هـذا الصـدد يؤكـد عمـر التلمسـاني عـلى تميـز أسـلوب خطـاب الإخـوان في مخاطبـة الأمريـكان حيـث يقـول: «أيهـا الامريـكان: هـا أنتـم تـرون كيـف نتحـدث إليكـم ونكتـب عنكـم، بعيديـن كل البعـد عـن التحـدي والألفـاظ النابيـة والتعبـيرات المؤذيـة، لا خوفًـا منكـم»- ببرهـان ربـاني- فاللـه وحـده هـو الـذي يعلـم أننـا لا نخـاف سـواه»،- وبرهـان سـياسي-» ولا اسـتجلابًا لعطفكـم فهـذا أمـر قـد وارينـاه الـتراب مـن أيـام ترومـان»، ويقـرر في أطروحـة تاليـة: «إن الحـق المنتهـب المسـتلب لا يسـترد إلا غلابـا، وإن ظننتـم- يقصـد الأمريـكان- أن يدنـا اليـوم قـاصرة فالأيـام تنقلـب، ببرهـان أن القـوة لـو دامـت لمـن قبلكـم لمـا وصلـت إليكـم, وينتهـي مقـال التلمسـاني بأطروحتـين تؤكـد رغبـة

المسلمين في التعامل مع العالم كله بمختلف ملله ونحله على أساس المساواة والعدل. (٦١)

هكـذا تنتهـي الأطروحـات الأخـيرة في مقـال عمـر التلمسـاني إلى تقديـم مزيـج معقـد مـن المعـاني المراوغـة، ويجمـع هـذا المزيـج بـين اللـين والعتـب وعـدم الخـوف مـن أمريـكا أغنـى وأقـوى دول العـالم فالحـق لا يؤخـذ إلا بالقـوة، والمسـلمون يرغبـون في التعامـل وفـق قواعـد الحـق والعـدل والمسـاواة بـين الأمـم، ولا شـك أن هـذا المزيـج المـراوغ يحقـق، وعـلى عـدة مسـتويات أهـداف متعـددة هــي:

أولًا: تقديـم صـورة معتدلـة للسياسـة الأمريكيـة والشـعب الأمريـكي، فالأمريـكان أهـل كتـاب، وليسـوا أعـداء، لذلـك نعتـب عـلى مواقـف السياسـة الأمريكيـة تجـاه قضايـا الشـعوب الإسلامية خاصـة القضيـة الفلسـطينية، ومـع ذلـك نحـن لا نخـاف مـن أمريـكا، ونأمـل في أن تجمـع سياسـتها قـولًا وفعـلًا بـين مصالحهـا الخاصـة وبـين العدالـة في معاملـة الشـعوب.

ثانيًـا: يخاطـب دوائـر صنـع السياسـة الأمريكيـة بلغـة معتدلـة وأسـلوب أقـل تشـددًا مـن القـوى السياسـية العربيـة المعارضـة للسياسـة الأمريكيـة، ويؤكـد أن الولايـات المتحـدة أقـرب إلى المسـلمين مـن الشـيوعيين، فالأمريكيـون أهـل كتـاب, في هـذا الإطـار يعتـب عليهـم ويلمـح لإمكانيـة الحـوار والتعـاون، بـل يعلـن عـن وجـود قنـوات اتصـال وعتـاب متبـادل.

ثالثًـا: يوضـح لأعضـاء جماعـة الإخـوان المسـلمين والمتعاطفـون معهـا قواعـد التعامـل مـع الأمريكيـين، والأسـلوب المتبـع في مخاطبتهـم، مـع التأكيـد عـلى عـدم الخـوف أو اسـتعطاف أكـبر وأغنـى دولـة، وأن الحـق المنتهـب لا يسـترد إلا بالقـوة- وهـي تقريبًـا نفـس المعـاني والكلـمات التـي شـاعت في الخطـاب النـاصري بعـد هزيمـة -١٩٦٧ ، ومثـل هـذا التشـدد رغـم قلـة الأطروحـات التـي عـبرت عنـه إلا أنـه يحـدث قـدرًا مـن التـوازن مـع الأطروحـات المعتدلـة العاتبـة، مـما قـد يزيـل أي لبـس لـدى الأعضـاء أو سـوء تفسـير مـن بعـض القـوى السياسـية أو الجماعـات الإسـلامية للأطروحـات المعتدلـة التـي قدمهـا

المرشد العام، وفي التحليل الأخير فإن أطروحات التشدد تعيد الاتساق والتواصل داخل خطاب الإخوان المسلمين نفسه بشأن نظرية المؤامرة ودور الولايات المتحدة في تنفيذ هذه المؤامرة، حيث تعيد الثقة إلى المتلقين من بين أعضاء جماعة الإخوان المسلمون والمتعاطفين معها في مصداقية نظرية المؤامرة، وعند هذا المستوى يمكن لبعض أعضاء الجماعة والمتعاطفين معهم النظر إلى أطروحات العتب والدعوة للتعاون على أساس أنها نوع من مكر المسلم وفق أيديولوجيا الإخوان، أو المواءمات السياسية وفق مقتضيات العصر والصراع السياسي.

رابعًا: يخاطب الدولة المصرية من زاوية أن خطاب مجلة الدعوة وأسلوبه لا يصل إلى مرحلة العداء أو القطيعة مع السياسة الأمريكية في المنطقة، وأن هناك اتصالات وحوار وعتاب متبادل بين جماعة الإخوان والأمريكان، وبالتالي فإن الدولة المصرية ليست الطرف الوحيد الذي تربطه علاقات طيبة بدوائر صنع السياسة الأمريكية، ومثل هذا الوضع قد يخلق ضوابط أو حدود في تعامل الدولة المصرية مع جماعة الإخوان المسلمون، وتجدر الإشارة إلى أن عمر التلمساني كتب في مذكراته أن أعوام ١٩٧٩، ١٩٨٠، ١٩٨١ شهدت اتصالات أمريكية وبريطانية وإسرائيلية مع جماعة الإخوان، ويقول: «أكثر المستر (جوزيف لورنز) المستشار الصحفي في السفارة الأمريكية بالقاهرة من الاتصال بي، وزيارتي في مجلة الدعوة مبديًا عواطف، وكانت معه مترجمته السيدة نادية الكيلاني، وكنت أحيط وزارة الداخلية بهذه الزيارات أولاً بأول... وما كانت وزارة الداخلية تعارض في هذه الزيارات لأنها لو عارضت لأوقفت تلك المقابلات قطعًا تطهيرًا لسمعة الإخوان المسلمين من الظنون والشبهات». (٦٢)

إن تعدد أهداف أطروحات عمر التلمساني تتماشى مع الأسلوب المراوغ الذي صيغت به، والأقرب إلى الاعتدال منه إلى التشدد، كما لا تتناقض مع الدعوة إلى الحوار والتفاهم

عوضًا عن القطيعة والصدام مع الولايات المتحدة التي تتآمر على الإسلام والمسلمين, ربما لأن الأمريكيين أهل كتاب على مستوى الخطاب المعلن، وربما لأن أمريكا أقوى وأغنى دولة على مستوى الخطاب المضمر، من هنا يجوز العتاب، لأن المسلم عليه ألا يقطع الأمل في تعديل السياسة الأمريكية، لكن الملاحظ أن خطاب مجلة الدعوة قد تخلى جزئيًا عن هذا التوجه في التعامل مع الولايات المتحدة، وبدأ في اتخاذ مواقف واستخدام كلمات أكثر تشددًا في تصوير أمريكا وانتقاد السياسة الأمريكية في المنطقة، إلا أنها لم تصل إلى حد وصف أمريكا بالعدو أو الدعوة لمقاطعة السلع الأمريكية أو الهجوم على المصالح الأمريكية على نحو ما كان سائدًا في خطاب القوى السياسية العربية المعارضة للسياسة الأمريكية في المنطقة.

ولعل ما يجسد التخلي عن توجيه العتاب والدعوة للحوار مقال افتتاحي لعمر التلمساني يرى في أحد أطروحاته أن أمريكا لها موقف ضد مصالح المسلمين ببراهين اضطهادها للمسلمين في كل مكان، ودعمها للنظام السوري بالمال والعتاد لضرب المسلمين، «وموقفها من كل دولة تحارب الإسلام حتى ولو كانت الدولة شيوعية مثل ليبيا والجزائر ومن إليها من تلك الدول، وبغض النظر عن صحة هذه البراهين، فإن ما يهمنا أن خطاب مجلة الدعوة يجاهر هنا بأن أمريكا لها موقف ضد مصالح المسلمين، كما يؤكد في أطروحة ثانية سوء مصير مفاوضات السلام، ببرهان عاطفي هو «إن الله أعلم بمصير مفاوضات أحد طرفيها أمريكا وإسرائيل، فيا لمضيعة الآمال»، وينتقل التلمساني في أطروحة ثالثة إلى التأكيد على الموقف السلبي للحزبين الديمقراطي والجمهوري في الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية، ثم يسخر في أطروحة رابعة من وجود قيم أمريكية، «أية قيم؟ وهل ما تزال هناك قيم تنعى ويبكى عليها حول حقوق الإنسان؟ أي إنسان؟ الذي ينبح ويعذب بين سمع كارتر وبصره في أفغانستان وسوريا وإريتريا والهند وغيرها».. ويتساءل في أطروحة خامسة «ويتجاهل- يقصد كارتر- حقوق الفلسطينيين في تقرير المصير مما يضع الولايات المتحدة في موقف يتسم بالنفاق»، ويجيب في أطروحة سادسة أن الله لن يرضى بذلك، ثم يختتم المقال بأطروحة سابعة هي أن العيب ليس في روسيا أو أمريكا أو العالم الصليبي

بـل في حـكام العـرب وشـعوبهم ببراهـين «مـا يـزال حـكام البـلاد العربيـة يتعاملـون مـع الولايـات المتحـدة في مـودة وصفـاء؟؟» «ونقـضي الصيـف في ربـوع أمريـكا مسرفـين». (٦٣)

هكـذا ينتقـل خطـاب مجلـة الدعـوة كعـادة خطـاب الإخـوان المسـلمون مـن السـياسي إلى الإنسـاني إلى الدينـي بـدون تمييـز وبشـكل إدماجـي، مـع إعـلاء شـأن كل مـا هـو دينـي ومنحـه الأولويـة، مـن هنـا يمكـن تفسـير التغيـير الـذي طـرأ عـلى التوجـه المعتـدل الـذي ميـز خطـاب الدعـوة والإخـوان المسـلمين في تصويـر الولايـات المتحـدة والتعامـل معهـا، فمـع توقيـع معاهـدة السـلام وزيـادة حـدة الخـلاف والاسـتقطاب السـياسي بـين الجماعـة والرئيـس السـادات أدرك الإخـوان المسـلمون صعوبـة تعديل أو تغيـير السياسـة الأمريكيـة تجـاه القضيـة الفلسـطينية، وأصبـح مـن الطبيعـي إبـداء قـدر أكـبر مـن التشـدد في تصويـر أمريـكا وإعـلان مواقـف واضحـة مـن سياسـتها، لذلـك يقـول عمـر التلمسـاني في أحـد الأطروحـات: «عارضنـا معاهـدة السـلام لأنهـا جرتنـا إلى حلـف مـع الولايـات المتحـدة باعتبارهـا أحـد الأطـراف الثلاثـة للمعاهـدة» ويضيـف في أطروحـة ثانيـة».. وعارضناهـا كذلـك لأنهـا أجحفـت بالأهـم مـن حقوقنـا»، ويؤكـد في أطروحـه ثالثـة أن موقـف الإخـوان هـو الحيـاد القائـم عـلى الصـدق وليـس الحيـاد المظهـري لمنظمـة عـدم الانحيـاز، ويوضـح في أطروحـة رابعـة: «نحـن كمسـلمين لا يبيـح لنـا ديننـا أن نناصر الشـيوعيين».. ببرهـان «أنهـم ينكـرون وجـود اللـه أصـلًا».. ثـم يضيـف: «كـما أننـا عقيـدة لا نناصر الولايـات المتحـدة ولا مـن في ركبهـا».. ببرهـان «أنهـا أعانـت إسرائيـل علينـا صراحـة ووضـوح، ومـن ينـاصر اليهـودي عـلى المسـلم فـلا يجـوز شرعًـا أن ينـصر أو ينـاصر».

ويقـترح التلمسـاني عـلى مـصر والعـرب والمسـلمين تبنـي الحيـاد، ويعـدد في براهـين سياسـية ودينيـة مزايـا الحيـاد، وبغـض النظـر عـن المفهـوم البسـيط والسـطحي للحيـاد كـما يطرحـه التلمسـاني فـإن الدلالـة الأهـم هنـا أن خطـاب مجلـة الدعـوة والإخـوان المسـلمين كـما صاغـه التلمسـاني هنـا لا يقطـع شـعرة معاويـة مـع الولايـات المتحـدة، فـلا يجـوز شرعًـا مناصرتهـا، أمـا اتخـاذ موقـف عـدائي فهـو أمـر لم يتطـرق إليـه خطـاب مجلـة الدعـوة والإخـوان المسـلمين، بـل تطـرق إلى موضـوع الحيـاد ودعـا إليـه بوضـوح، فعوضًـا عـن التحالـف أو منـاصرة

الولايات المتحدة على العرب والمسلمين اتخاذ موقف الحياد، ومثل هذا الاستنتاج يؤكد ما سبق للباحث الإشارة إليه من أن خطاب مجلة الدعوة والإخوان المسلمون حرص على عدم الصدام مع الولايات المتحدة أو تصويرها كعدو، وذلك رغم تراجعه عن علاقات العتاب والحوار وربما التعاون، والمرجح أن هذا التحول جاء كاستجابة من جماعة الإخوان المسلمين لمسيرة التسوية والدور الأمريكي في توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، وهو موقف شكل المكون الثالث في صورة الولايات المتحدة في خطاب الإخوان المسلمين وهو ما أتناوله تفصيلًا.

٣-أمريكا منحازة لإسرائيل:

إذا كانت أمريكا تقود الشيوعية واليهودية في مؤامرة عالمية ضد الإسلام والمسلمين، فمن المنطقي وفق بنية وآليات خطاب الإخوان المسلمين أن تحارب أمريكا العرب والمسلمين، وأن تنحاز لإسرائيل التي تحتل أراضٍ عربية وإسلامية، وتناصب العداء للإسلام والمسلمين.

هكذا ينطلق وينتهي خطاب مجلة الدعوة من مسلمة انحياز أمريكا لإسرائيل، ومع ذلك يجتهد خطاب الدعوة في إثبات هذا الانحياز ورصد صوره ومجالاته، ويلاحظ أن صورة أمريكا المنحازة لإسرائيل تزداد بروزًا مع تنامي الدور الأمريكي في عملية التسوية السلمية بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، في هذا السياق يقدم (عبد المنعم سليم جبارة) أطروحة أن الحل الروسي فشل، وهو ما يعني ضمنيًا نهاية الدور الروسي في عملية التفاوض، ويضيف في أطروحه ثانية: «إن الحل على الطريقة الأمريكية يحمل في طياته كل الخير لإسرائيل» (٦٤) وفي مقال ثاني للكاتب نفسه- والذي كان يحرر بابًا ثابتًا بعنوان (إسرائيل الحاضر والماضي)- يقدم أطروحة، «هناك وجهين للسياسة الأمريكية، وجه للعرب، ووجه لليهود «ببرهان أن أمريكا تعطي للعرب وعودًا، وتعطي المال والسلاح لليهود، ويكرر الكاتب ثلاث مرات أطروحة عدم وجود خلافات بين برنامجي الحزبين الديمقراطي والجمهوري الأمريكيين تجاه القضية الفلسطينية.

ورغـم اتسـاق صـورة أمريـكا كدولـة منحـازة لإسرائيـل في خطـاب الدعـوة إلا أن ثمـة خلافـات في بعـض تفاصيـل هـذه الصـورة، فيقـدم عبـد المنعـم سـليم جبـارة في مقـال جديـد أطروحـة أن أمريـكا وروسـيا تدعـم إسرائيـل، لكنـه يضيـف في أطروحـة ثانيـة أن الطـرف الوحيـد القـادر عـلى الضغـط عـلى إسرائيـل هـي أمريـكا، ثـم يؤكـد في أطروحـة ثالثـة عـلى أن أمريـكا لا تريـد الضغـط عـلى إسرائيـل بـل تحميهـا، ويوضـح ذلـك في أطروحـة رابعـة بقولـه: «أن الموقـف في يـد واشـنطن، التـي تسـلمه لليهـود في ظـل بنديـن هـما لا حلـول مـن خـارج المنطقـة، ودعـم إسرائيـل المسـتمر والمتزايـد. (٦٥).

لكـن مـا أسـباب هـذا الموقـف الأمريـكي؟ يوضـح عمـر التلمسـاني في أطروحـة حاسـمة أن: «اليهـود هـم سـادة الولايـات المتحـدة، وأصحـاب الـرأي في توجيهـات سياسـتها، ببراهـين سـيطرتهم عـلى أجهـزة الإعـلام في أمريـكا، كـما أنهـم مسـيطرون عـلى الكونجـرس والبنتاجـون، بـل والبيـت الأبيـض. (٦٦)

هكـذا يقـدم خطـاب الإخـوان المسـلمين في مجلـة الدعـوة تفسـيرًا بسـيطًا ومقنعًـا مـن الناحيـة الشـكلية لانحيـاز أمريـكا ودعمهـا المسـتمر والمتزايـد لإسرائيـل، ومثـل هـذا التفسـير قـد يتناقـض مـع بعـض الأطروحـات التـي أشـارت إلى دور إسرائيـل في حمايـة المصالـح الأمريكيـة في المنطقـة، لكنـه يظـل التفسـير الأكـثر بسـاطة والأكـثر قبـولًا وشـعبية في أوسـاط الـرأي العـام العـربي والإسـلامي، خاصـة وأن هـذا التفسـير ينسـجم بـل يدعـم مـن نظريـة خبـث ومكـر اليهـود، ومـن نظريـة المؤامـرة اليهوديـة للسـيطرة عـلى العـالم، والنظريتـان يعمـلان معًـا لتبريـر قـدرة الآخـر، (العـدو اليهـودي) في خطـاب الإخـوان المسـلمين عـلى تهديـد كيـان العـرب والمسـلمين، عـلاوة عـلى تفسـير متانـة العلاقـة بـين الولايـات المتحـدة وإسرائيـل، وانحيـاز ودعـم أمريـكا لإسرائيـل.

بيـد أن هـذا التفسـير لا يـروق تمامًـا لعبـد المنعـم سـليم جبـارة فينقلـب عليـه ولكـن دون براهـين كافيـة, إذ يـرى: «أن التأييـد الأمريـكي المتبجـح لليهـود هـو عنـد الزعامـات العربيـة نتيجـة

ضغوط يهودية مالية وإعلامية»، ويرفض صراحة في أطروحة ثانية أن اللوبي اليهودي في أمريكا يُسير السياسة الأمريكية، ويؤكد في أطروحة ثالثة أن السياسة الأمريكية هي التي تحرك إسرائيل ببراهين أن مصالح أمريكا هي في بقاء وجود إسرائيل، ويقرر في أطروحة رابعة أنه من المؤسف أن نعتقد أن أمريكا بلد مغلوب على أمره من اليهود. (٦٧)

إن أطروحات عبد المنعم سليم جبارة قد تختلف مع أطروحات عمر التلمساني في تكييف وتفسير علاقات أمريكا بإسرائيل، ولكن أطروحات الأخير يظل لها السيادة والتأثير الأكبر في خطاب الإخوان في الدعوة، ليس فقط لأنها تصدر من المرشد العام، بل لأنها أقرب إلى التفسيرات الشعبية الرائجة في الشارع العربي بما في ذلك جماهير جماعة الإخوان المسلمين.

وكان التلمساني في مقال سابق قد تهكم في سخرية مريرة من موقف أمريكا من العدوان الإسرائيلي المتكرر على لبنان، إذ كتب: إسرائيل تقتل بطائرات منحتها لها أمريكا، الدولة التي تقوم وتدعي المحافظة على حقوق الإنسان ويكرر هذه الأطروحة، ويقول في أطروحة ثالثة: «لكن أمريكا كانت على غير ما ظننا بها من سوء»، ويتابع: «هناك احتجاج وهناك توتر ماذا تريد إذن..»، ويضيف ساخرًا في أطروحة خامسة: «أتريد من أمريكا بعد كل هذا أن تمتنع عن تزويد إسرائيل بالسلاح، ألا يكفيك منها الاحتجاج السري المتكرر لدى ربيبتها وحبيبتها إسرائيل»، إذا كنت تريد ذلك فأنت- كما يقول في أطروحة سادسة- متآمر ضد الولايات المتحدة وحاقد على إسرائيل ويختتم التلمساني: «ألا تعلم أن أمريكا دولة حيية خجولة!! لا تتحدى أحدًا.. ولا تواجه أحدًا بما يكره!! وأنها رؤوف ودود!! وتُعلم الناس الديمقراطية في الحكم». (٦٨)

وأطروحات عمر التلمساني السابقة نجحت في طرح الكثير من المعاني، وانتقاد السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل والتي تتناقض، من وجهة نظره، مع ادعاءات الولايات المتحدة بأنها دولة تحافظ على حقوق الإنسان وتعلم الناس الديمقراطية، وبالتالي قدم

عمـر التلمسـاني صـورة سـلبية لسياسـة أمريـكا في المنطقـة تعتمـد عـلى إبـراز التناقـض بـين القـول والفعـل، وفي الوقـت نفسـه لم يتخـل عـن التزامـه بعـدم توجيـه نقـد قـاسٍ لأمريـكا أو اسـتخدام كلـمات أو عبـارات قـد تقطـع شـعرة معاويـة بـين أمريـكا والإخـوان المسـلمين، فالأسـلوب السـاخر رغـم مرارتـه إلا أنـه يختلـف في درجـة حدتـه ومباشرتـه عـن النقـد السـياسي المبـاشر، ويحافـظ - وهـذا هـو المهـم- على منطـق العتـاب الهـادئ الـذي التـزم بـه خطـاب الإخـوان عنـد تقديـم صـورة للولايـات المتحـدة في مجلـة الدعـوة.

المجتمع الأمريكي في طريقه إلى الانهيار:

تقتـصر المكونـات السـابقة لملامـح الولايـات المتحـدة في خطـاب الإخـوان المسـلمين عـلى صـورة السياسـة الأمريكيـة في تعاملهـا مـع العـرب والمسـلمين، خاصـة قضايـا الـشرق الأوسـط، إذ لم يتطـرق خطـاب الإخـوان في مجلـة الدعـوة إلى صـورة المجتمـع والشـعب الأمريـكي، وباسـتثناء بعـض الإشـارات والاستشـهادات مثـل قـول عمـر التلمسـاني، أننـا نعتـبر الأمريـكان أهـل كتـاب، يمكـن القـول بـأن السـياسي وليـس الثقـافي أو الاجتماعـي هيمـن عـلى خطـاب الإخـوان في تصويـره للولايـات المتحـدة، لكـن ثمـة تحقيـق وحيـد نـشر في مجلـة الدعـوة يـكاد يكـون اسـتثناءً نـادرًا للمنهـج السـياسي في رؤيـة أو تصويـر خطـاب الإخـوان المسـلمين لأمريـكا، حيـث يتطـرق لبعـض الجوانـب الاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة والأخلاقيـة في المجتمـع الأمريـكي، ورغـم أنـه تحقيـق وحيـد، إلا أنـه يـشي برؤيـة خطـاب الإخـوان للمجتمـع الأمريـكي وليـس السياسـة الرسـمية الخارجيـة.

نـشر التحقيـق عـلى ثـلاث صفحـات بعنـوان «سـقوط المجتمـع الأمريـكي»، وتصـدر العنـوان غـلاف المجلـة مـع رسـم لتمثـال الحريـة يرفـع كأسًـا بـدلًا مـن شـعلة الحريـة، بينـما يقـف شـخص في ثيـاب رعـاة البقـر عـلى سـلم مـوازٍ للتمثـال ويرفـع بـدوره كأسًـا، ورغـم أن القـارئ لا يسـتطيع أن يتعـرف عـلى محتـوى الكأسـين إلا أن الرسـم والعنـوان المصاحـب يدفعـان المتلقـي لاسـتنتاج أنهـما كأسـان مـن الخمـر.

وفي داخل المجلة تكرر نشر الرسم والعنوان مع عنوان آخر رئيسي: «الجنس أول ما يشغل بال الشعب الأمريكي»، وعنوان ثالث فرعي: «الأمريكيون يعتقدون أن العذرية تسبب مرض السرطان..»، وعنوان رابع فرعي: «أحدث ظواهر الانحراف ممارسة الجنس مع أطفال دون الثالثة!! ولعل الرسم والعناوين الأربعة تشي بمضمون ما جاء في التحقيق الذي كتبه (جابر رزق) عن مشاهداته لصور الحياة الاجتماعية في المجتمع الأمريكي، حيث قدم صوراً سلبية لحياة الأمريكيين وثقافتهم، استند فيها إلى آراء وتجارب ومشاهدات ثلاثة طلاب عرب يدرسون في أمريكا، ومسلم سوري مهاجر إلى أمريكا، ورغم قصر الفترة القصيرة التي قضاها جابر رزق في زيارته للولايات المتحدة لحضور مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم، إلا أنه قدم صورة بالغة السوء لأمريكا، وبأسلوب وصياغات قاطعة، علاوة على أحكام نهائية قاسية, مما قد يرجح أن جابر رزق لم ينقل واقع الحياة الاجتماعية في الولايات المتحدة أو بعض جوانبها بطريقة دقيقة، بل تعمد التقاط الجوانب التي تتفق والصور السائدة لديه سلفًا عن المجتمع الأمريكي وحياة الأمريكيين، ومثل هذا التصوير يؤكد دور الصحافة في نقل الصور المشوهة، بل وخلقها بطريقة غرضية تتفق في حالة خطاب الإخوان المسلمين مع المواقف والتحيزات الأيديولوجية لهذا الخطاب في تعامله مع المجتمعات الغربية.

تقول الأطروحة الأولى لجابر رزق أن الولايات المتحدة تقود العالم، وتدير الانقلابات، وتشعل الحروب في العالم وتذيق البشرية ألوانًا من العذاب، ويضيف في أطروحة ثانية أن الشعب الأمريكي لا يقل معاناة من داخله كما تعاني الشعوب الأخرى، بسبب الحكومة الأمريكية وأجهزة المخابرات الأمريكية، وما تدبره من فتن وحروب، ببرهان ما شاهده خلال رحلته إلى أمريكا، ورغم ضعف وهشاشة البرهان الذي يقدمه جابر رزق إلا أن الأطروحتين اللتان يستهل بهما الكاتب التحقيق تكشفان عن وعي عميق بالفروق بين الشعب والحكومة الأمريكية، ومع ذلك فإن ثقافة هذا الشعب وعاداته وتقاليده لم تقدم في صور واقعية، بل ركز الكاتب بقية أطروحاته على الجوانب السلبية في حياة المجتمع،

واعتمد على التعميم، وتجاهل- ربما عن عمد- تناول أي جوانب إيجابية في تصوير حياة المجتمع الأمريكي.

يقول جابر رزق في أطروحة ثالثة أن الجنس يمارس في شوارع مدينة (طالسة)، ويضيف في أطروحة جديدة أن أهالي (طالسة) متعصبون ضد الزنوج والمسلمين، ويتابع أن الكنيسة تسيطر على الجامعة بالمدينة.. ببراهين أنها تنفق على الجامعة، وينقل جابر رزق مشاهدات طالب عربي يدرس في (أو كلاهما) أن الطالبات يغازلن الطلاب في الجامعة.. ببرهان أن عدد الطالبات ضعف عدد الطلاب!، ويؤكد جابر رزق نقلًا عن مصدر آخر أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة في المجتمع الأمريكي لا تقوم على أساس نظام الزواج.. فقد حل نظام الصداقة محله «ورغم عدم واقعية هذا التعميم إلا أنها حصلت على ثلاثة تكرارات وبراهين تعتمد على روايات ومشاهدات عما يحدث بين الرجل والمرأة في المجتمع الأمريكى وحالة "السعار الجنسي" الذي يسيطر على عقل الأمريكي والأمريكية، ويجعل كل منهما يقبل أي عرض جنسي يتاح ولا يكتفي بالعلاقة التي تربطه بواحد فقط».

وتقرر أطروحة جديدة «لم يعد هناك معنى لكلمتي (حلال وحرام) في ممارسة الجنس.. ومع ذلك اجتاحت المجتمع الأمريكي ظاهرة الاغتصاب..، وتضيف أطروحة أخرى «حوادث الاغتصاب أصبحت شائعة بدرجة كبيرة».. ببراهين وجود مراكز في الجامعات الأمريكية تعمل ليل نهار لدراسة هذه الظاهرة، ويضيف جابر رزق ظاهرة انتشار البغاء بين الفتيات الصغيرات في المدارس الإعدادية.. ببرهان أن الأسرة الأمريكية تدفع أبناءها في سن ١٤- ١٥ سنة إلى العمل والاعتماد على النفس، فلا تجد الفتيات الصغيرات أسهل من احتراف البغاء لكسب نفقات الحياة، ثم يشير الكاتب إلى ظاهرة المتاجرة بالأطفال لأغراض الجنس، وإلى ظاهرة الجنس المثلي، وينتهي جابر رزق إلى أطروحة نتيجة هي انهيار الأسرة الأمريكية ببراهين أنها مفككة، والأبناء لا يحترمون الآباء، والآباء بدورهم لا يفكرون في مستقبل الأبناء.

ويخلص خطاب مجلة الدعوة على لسان جابر رزق إلى أن «أول ما يفكر فيه المواطن الأمريكي هو الجنس، واهتمامه بمستقبله قليل»، ببرهان أن المجتمع الأمريكي يقدم ضمانات اجتماعية تكفي لكل مواطن، ويرى الباحث أن هذا البرهان هو أول إشارة لوجود مكون إيجابي في الصور التي قدمها جابر رزق للمجتمع الأمريكي، لكن هذا المكون الإيجابي رغم عدم دقته يأتي في سياق إبراز سلبية المواطن الأمريكي وأنانيته المفرطة، كما أنه استثناء محدود داخل التحقيق لا يتكرر، فالصورة التي تقدمها أطروحات خطاب مجلة الدعوة للمجتمع الأمريكي انتقائية وغير واقعية وسلبية تمامًا، وتركز على السلبيات والأمراض الاجتماعية دون ذكر أو إبراز للجوانب الإيجابية في المجتمع، حيث يرى جابر رزق أن الظاهرة الحادة التي تميز المجتمع الأمريكي هي التمييز العنصري ضد الزنوج والمرأة وكبار السن.. ببرهان أن أمريكا هي مجتمع الشباب الأبيض الذي يحظى بفرص جيدة في التعليم والعمل على حساب الزنوج، ثم يقرر في أطروحة عامة ذات طابع سلبي.. أن الحقوق في المجتمع الأمريكي لا تؤخذ إلا عن طريق الشد والجذب، ثم ينتقل إلى انتشار ظاهرة الانتحار، وإلى ضعف إنتاجية المجتمع الأمريكي، وينهي التحقيق بأطروحة: «إن ما يمنع المجتمع الأمريكي من الانهيار السريع هو ضخامة عدد سكانه، وثراء الطبيعة في كل المواد الأولية، إلا أن عوامل الهدم كثيرة». (٦٩)

وتجسد الأطروحة الأخيرة رؤية جماعة الإخوان المسلمين للمجتمع الأمريكي وربما للغرب بعامة، فهذا المجتمع إلى زوال رغم موارده الطبيعية ورغم قوته، نتيجة ابتعاده عن الدين وانهياره الأخلاقي، والمتأمل للأطروحة الأخيرة يجد أنها أقرب إلى النبوءة التي تعتمد على مجمل أطروحات التحقيق من تدهور أخلاقي وفساد اجتماعي في المجتمع الأمريكي، بل وفي معتقدات وقيم المواطن الأمريكي، ومثل هذه النبوءة ذات طابع أيديولوجي إذا جاز القول، إذ أن انهيار الآخر، يؤكد صحة وسلامة المنطلق الأيديولوجي لجماعة الإخوان المسلمين، فالدين والأخلاق هما أساس بناء الحضارة ومعيار التقدم، على أن أطروحات جابر رزق قد ركزت على الأخلاق وأهملت تناول دور الدين في رسم صورة

المجتمع الأمريكي، بما قد يعني على مستوى الخطاب الضمني غياب الدين أو تغييبه من حياة الأمريكيين، من جانب آخر فإن أغلب أطروحات وبراهين خطاب مجلة الدعوة على لسان جابر رزق تناولت قضايا وشئون الجنس، وأهملت جوانب من الحياة السياسية أو الثقافية الأمريكية، كذلك خلت- باستثناء برهان وحيد فقط- من ذكر بعض نقاط القوة أو المكونات الإيجابية في الصورة العامة السلبية التي قدمتها للمجتمع الأمريكي.

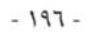
هكذا يختصر الإخوان المسلمون في مجلة الدعوة صورة المجتمع الأمريكي في التدهور الأخلاقي والحرية الجنسية التي لا تعرف الحرام والحلال، والتفكك الأسري، وانتشار مظاهر التمييز ضد الزنوج والمرأة وكبار السن، ولا شك أن هذا التناول يبرز أمراض وسلبيات اجتماعية قد لا يخلو منها أي مجتمع، لكن التركيز على هذه الجوانب دون سواها هو نوع من التحيز الأيديولوجي في رسم وترويج صورة المجتمع الأمريكي، ويمكن تفسير هذا التحيز في ضوء ثلاثة أسباب هي:

١- نقص معلومات وخبرة جابر رزق بالمجتمع الأمريكي.

٢- تحيز المصادر التي اعتمد عليها.

٣- تحيز الكاتب أيديولوجيًا ضد ثقافة المجتمع الأمريكي.

وأعتقد أن السبب الأخير هو الأهم، بل هو الأكثر تأثيرًا، فأيديولوجيا جماعة الإخوان المسلمين ترفض من حيث المبدأ نمط الحياة الغربية عمومًا، والأمريكية خصوصًا، على أساس أنها تتناقض وقيم وتعاليم الإسلام، بل والمسيحية، فضلًا عن مخالفتها لنواميس الطبيعة، وبالتالي فإن إبراز هذه السلبيات ورفضها على مستوى الخطاب الصحفي لمجلة الدعوة هو نوع من تأكيد سلامة ومصداقية منطلقات أيديولوجية الإخوان المسلمين وغاياتها.



حصاد ما سبق، انطلق خطاب الإخوان المسلمين في مجلة الدعوة من فكرة وجود مؤامرة من الصليبية الغربية- بقيادة أمريكا- والشيوعية- واليهود ضد العرب والمسلمين، بل وضد الإسلام، وفي إطار هذه المؤامرة الثلاثية الأطراف قدم خطاب الإخوان المكون الأول من مكونات صورة الولايات المتحدة، ثم قدم المكون الثاني ممثلًا في أن الولايات المتحدة تحارب العرب والمسلمين والإسلام، ولا شك في ارتباط وتداخل بل وتكامل المكونين الأول والثاني في صورة الولايات المتحدة، ثم يأتي المكون الثالث وهو أمريكا منحازة لإسرائيل كنتيجة طبيعية للمكونين الأول والثاني، الأمر الذي يعني في التحليل الأخير أن المكونات الثلاثة مترابطة ومتداخلة، ومتكاملة، وتقدم كسبب ونتيجة في آن واحد، فالولايات المتحدة التي تشارك في المؤامرة العالمية ضد العرب والإسلام من الطبيعي أن تحارب العرب والمسلمين والإسلام، ومن الطبيعي أيضًا أن تدعم وتنحاز لإسرائيل التي تناصب العرب والمسلمين العداء، والتي هي بالأصل أحد أطراف المؤامرة الدولية.

هكذا تبدو مكونات صورة الولايات المتحدة في خطاب الإخوان المسلمين مترابطة بغض النظر عن سلامة أو قوة المنطق الذي يقوم عليه هذا الترابط، فمثل هذا الترابط والتكامل يلعب أدوارًا وظيفية تتصل بطبيعة الصورة من حيث اعتمادها على التبسيط، والتعميم، وسهولة الاستيعاب والاختزال، والرموز الموحية وارتباط ذلك كله على مستوى صورة الولايات المتحدة، وخطاب الإخوان المسلمين ككل بفكرة وجود آخر عدو، يتمثل في قوى غاشمة تحارب الإسلام والعرب والمسلمين، وبالتالي تقديم تفسير مقنع ومقبول لحالة الضعف والانكسار التي يعيشها المسلمون، فلولا هذه القوة الغاشمة لما كان ضعفنا, أو بكلمات أخرى أن قوة الآخر هي ضعفنا, كما أن ضعفنا على مستوى الخطاب المضمر هو قوة الآخر.

ولا شـك في غلبـة الطابـع السـياسي عـلى المكونـات الثلاثـة وتركيزهـا عـلى السياسـة الأمريكيـة الخارجيـة، بينـما جـاء المكـون الرابـع الخـاص بسـقوط المجتمـع الأمريـكي في المرتبـة الأخـيرة مـن الأهميـة، أو بعبـارة أخـرى كان أقـل المكونـات بـروزًا في الصـورة التـي قدمهـا خطـاب الإخـوان المسـلمين في مجلـة الدعـوة للولايـات المتحـدة.

والمتأمـل في علاقـة المكـون الرابـع لصـورة الولايـات المتحـدة في خطـاب الإخـوان يجـده مرتبطًـا أيضًـا بالمكونـات الثلاثـة السـابقة، كـما أنـه يدعـم مـن وظائـف وتبريـرات هـذا الخطـاب، فالولايـات المتحـدة أو الآخـر يحـارب العـرب والمسـلمين والإسـلام ويتآمـر علينـا، ولكنـه عـدو ضعيـف وهـش مـن الداخـل، وهـو مجتمـع في طريقـه للسـقوط, وبالتـالي فإننـا عـلى مسـتوى الخطـاب المضمـر أفضـل منـه وأقـوى منـه أخلاقيًـا، مـما يكسـب الخطـاب دلالات رمزيـة وقـدرة تعويضيـة عاليـة تقـدم للمتلقـي التبريـر والتعويـض العاطفـي لضعفنـا، كـما قـد تمنحـه ثقـه في المسـتقبل وتقـدم لـه حـل يرتبـط بالحـاضر والمسـتقبل, وهـو الرجـوع إلى صحيـح الديـن والالتـزام بالأخـلاق, فهـي أسـاس الحضـارة والمدنيـة.

في ضـوء مـا سـبق يتضـح التماسـك الشـكلي والتكامـل العاطفـي في صـورة الولايـات المتحـدة حكومـة وشـعبًا في خطـاب الإخـوان المسـلمين, كـما تتكشـف وظائـف وغايـات هـذا الخطـاب والـذي لم يتبلـور مـع الأيـام الأولى لصـدور مجلـة الدعـوة، بـل تدرجـت مواقفـه وغاياتـه تجـاه الولايـات المتحـدة، ويمكـن القـول بـأن خطـاب الإخـوان في مجلـة الدعـوة- خاصـة أطروحـات المرشـد العـام عمـر التلمسـاني- في السـنوات الثـلاث الأولى ١٩٧٦- ١٩٧٩ لم تبـادر بالهجـوم عـلى الولايـات المتحـدة أو تقدمهـا في صـورة العـدو، بـل اجتهـد خطـاب الإخـوان في عـدم الاصطـدام بهـا، أو الدخـول في مواجهـة مفتوحـة وعلنيـة مـع أقـوى دولـة في العـالم كـما يقـول التلمسـاني, والـذي يقـدم مزيجًـا مـن العتـب والنصـح والنقـد للسياسـة الأمريكيـة، فالأمريكيـون أهـل كتـاب وليسـوا أعـداء.

وفي هـذا السـياق يكشـف تحليـل خطـاب الإخـوان في مجلـة الدعـوة أنـه لم يصـف الولايـات المتحدة بالعـدو حتـى عـام ١٩٧٩، لكـن تطـور وتعقـد علاقـة الإخـوان بالنظـام السـياسي المـصري آنـذاك، فضـلاً عـن موقـف الولايـات المتحـدة المتحيـز لإسرائيـل، قـد دفـع ضمـن أسـباب أخـرى لاتخـاذ مواقـف مغايـرة تنحـو باتجـاه الخصـام والمعارضـة والصـدام.

لم يميـز أو يفـرق خطـاب جماعـة الإخـوان بـين المجتمـع الأمريـكي والحكومـة الأمريكيـة، خاصـة فيـما يتعلـق بسياسـتها الخارجيـة، بـل قـدم خطـاب الإخـوان المسـلمين صـورة سـلبية سـواء للمجتمـع الأمريـكي أو السياسـة الأمريكيـة الخارجية.

ويمكـن القـول أن غلبـة البراهـين والأسـانيد الدينيـة والعاطفيـة عـلى خطـاب مجلـة الدعـوة في البرهنـة عـلى صـورة السياسـة الأمريكيـة والمجتمـع الأمريـكي، يرجـع إلى الطابـع الأيديولوجـي المغلـق والمسـيطر عـلى أداء مجلـة الدعـوة، والخطـاب الـذي تقدمـه، ومثـل هـذا الطابـع المسـيطر يفـسر إلى حـد كبـير المنحـى السـلبي والانتقـائي والبعيـد عـن الواقـع الـذي غلـب عـلى صـورة الولايـات المتحـدة- المجتمـع والدولـة- في خطـاب الإخـوان المسـلمين في مجلـة الدعـوة.

المراجع والهوامش:

(١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر -١٩٤٥ ١٩٥٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٣، ص ٤٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: إبرهيم البيومي غانم، الفكر السياسي للإمام حسن البنا، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر:

- سعد الدين إبراهيم «محرر» مصر في ربع قرن -١٩٥٢ ١٩٧٠، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨١.

- نبيل عبد الفتاح، المصحف والسيف، صراع الدولة في مصر, القاهرة، مكتبة مدبولي, ١٩٨٤.

- ريتشارد دكميجيان، الأصولية في العالم العربي، ترجمة عبد الوارث سعيد، المنصورة، دار الوفاء، ١٩٨٩.

- محمد عمارة، الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري، القاهرة، دار الشروق, ١٩٩١.

(٤) محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٣، ص ص ٢٦٩- ٢٧١.

(٥) محمد منصور محمود هيبة، الصحافة الإسلامية في مصر بين عبد الناصر والسادات -١٩٥٢ ١٩٨١، المنصورة، دار الوفاء، ١٩٩٠، ص ١٥٠.

(٦) المرجع السابق، ص١٤١.

(٧) أيمـن منصـور أحمـد نـدا, صـورة الوطـن العـربي وأوربـا كـما تعكسـها المـواد الإخبارية في القنـوات الفضائيـة العربيـة والأوربيـة, دراسـة مقارنـة, رسـالة دكتـوراه غـير منشـورة, جامعـة القاهـرة, كليـة الإعـلام, قسـم الإذاعـة, ٢٠٠٠

(٨) د. نائلـة إبراهيـم عـمارة, صـورة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في النـشرات الإخباريـة العربيـة : المؤثـرات والتأثـيرات, دراسـة حالـة للمضمـون والقائـم بالاتصـال والجمهـور في مـصر, دراسـة مقدمـة للمؤتمـر العلمـي السـادس لكليـة الإعـلام, جامعـة القاهـرة, مايـو ٢٠٠٠.

(٩) حـماد إبراهيـم حامـد, صـورة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في الصحافـة المصريـة اليوميـة, دراسـة مقارنـة بـين حقبتـي السـتينات والسـبعينات, رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة, كليـة الإعـلام, جامعـة القاهـرة, ١٩٨٦.

(١٠) Louise F.Montgomery , Images of the United States in theLatin American Press, Journalism Quarterly, Vol ٦٥ . No ٣ , Autumn ١٩٩٨.

(١١) Laid Zaghlami (١٩٩٩) Mass media and the US image : An Algerian Perspective , in Kamalipour , Y. (ED) images of the US around the world . A Multi cultural Perspective . State of New York Press PP . ١٠٣ - ١١٤

(١٢) Lee . K . young (١٩٩٩) from savior to Villian : Redefining america in South Korea in Kamalipous ,Y (ed) OP. cit . PP ٧٠-٥٥

(١٣) Usluate , Ayseli , (١٩٩٩) US . image Reflected through cartoons in Turkish Newspapers in Kamalipour , Y. (ED) OP .cit . PP . ٨٧ - ١٠٢

(١٤) التقرير الاستراتيجي للأهرام، ١٩٩٠، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

(١٥) أيمن منصور أحمد ندا, مرجع سابق, ص ص ٤ – ٥.

(١٦) Walter lippman, stereotypes From public opinion PP. ٥٩ – ٧٠. Copyright ١٩٢٢, renewed ١٩٥٠ by walter lippman, in reader in public opinion & mass communication- Morris janowitz & Raul M. Hirsch, eds, Newyork, the free press, ١٩٨١. PP. ٢٩ – ٣٧.

(١٧) Ibid-

(١٨) لمزيد من التفاصيل انظر: السيد ياسين، الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلي والمفهوم العربي، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٤.

(١٩) أيمن منصور أحمد ندا, مرجع سابق, ص ص ٨٦- ٨٧.

(٢٠) حلمي خضر ساري, الصور النمطية للإناث في برامج الأطفال التليفزيونية: دراسة في سسيولوجيا الاتصال لمحتوى مسلسل (بيت الأطفال), مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية, جامعة قطر, العدد ٢٦, السنة ٢٦, ٢٠٠٣, ص ص ٧٩- ١٤٩.

(٢١) Karle Deutch & Richard Meritt, effects of events on national & international images in Keman, ed, international behavior, ١٩٦٥, PP ٧٢ – ٧٧.

(٢٢) سلوى العامري، تصورات المثقفين المصريين لخصائص بعض الجماعات القومية واتجاهاتهم نحو هذه الجماعات، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس, ١٩٨٩، ص ١٢

(٢٣) معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد ١٣٧، مايو ١٩٨٩، ص ص ٦٢- ٦٣.

(٢٤) سلوى العامري، مرجع سابق، ص ١١.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل، انظر:

محمد شومان، دور الإعلام في تكوين الرأي العام، حرب الخليج نموذجًا، القاهرة، المنتدى العربي للدراسات والنشر، ١٩٩٨، ص ص -١٢٢ ١٢٨.

(٢٦) علي عجوة، الأسس العلمية للعلاقات العامة، القاهرة، عالم الكتب، بدون تاريخ، ص ١٦٣.

(٢٧) Denis mcquail, mas communication theory, An introduction, Benerly Hills, CA: sage, ١٩٨٣, PP. ٢٧ – ٤٤.

(٢٨) Alex S. Edelstein, Youichi Ito and hans Mathias Kepplinger, op, cit, PP, ١٠٠ – ١٠٤.

(٢٩) P.J. Shoemaker and E. K. maufild, building a theoty of news content, journalism monographs, No, ١٠٣, ١٩٨٧, PP, ١ – ١٣٠.

(٣٠) فيليب بروتون وسير جوبرو، ترجمة هالة عبد الرؤوف مراد، ثورة الاتصال، القاهرة، المستقبل العربي، ١٩٩٣، ص ص -١٦٣ ١٦٧.

(٣١) لمزيد من التفاصيل انظر:- عواطف عبد الرحمن, نادية سالم, ليلى عبد المجيد, تحليل المضمون في الدراسات الإعلامية, القاهرة, دار العربي للنشر والتوزيع, ١٩٨٢.

(٣٢) James Carey, The concept of discourse in the analysis of complex communication events, CBS - working paper series (١٩٩٨)

(٣٣) الـزواوي بغـورة, مفهـوم الخطـاب في فلسـفة ميشـيل فوكـو, القاهـرة, المجلـس الأعـلى للثقافـة, ٢٠٠٠, ص ص ٩٣- ١١٣.

(٣٤) James Carey, op. cit.

(٣٥) Andrew Tolson, mediation text and discourse in media studies , Arnold, and London , ١٩٩٦ . pp . ١٩٢

(٣٦) Norman fair clough , pp ١٧-١٦

(٣٧) Ibid . p. ١٩٨

(٣٨) يبرز هذا الاهتمام في أعمال Raul Riccear، انظر على سبيل المثال:

- Raul ricceur, Du texte al`action. Essais D`hermeneutique ١٢, (Paris: Editions du Seuil, ١٩٩٣)

(٣٩)- Ibid-

(٤٠)D. Maingueneau. Op. Cit. PP.١٦-١٦٣

(٤١) مارلين نصر، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٤٢) طـرح، يطـرح، طرحًـا: ألقـاه، رمـاه، طـرح القضيـة للبحـث وللمناقشـة، والأطروحـة جمـع أطروحات، وهــي رســالة علميــة يكتبهــا الطالــب للحصــول عــلى درجــة الماجســتير أو الدكتــوراه- المعجــم العــربي الأســاسي «المنظمــة العربيــة للتربيــة والثقافــة والعلــوم، ١٩٨٩» ص ٧٨٩.

(٤٣) اعتمــدت مارلــين نــصر في دراســتها عــن التصــور القومــي العــربي في فكــر جــمال عبــد النــاصر عــلى أن لــكل أطروحــة مجموعــة مــن الحجــج والبراهــين التــي تدلــل عليهــا وتثبتهــا أو تنفيهــا، إلا أنهــا لم تســتخدم الأطروحــات والحجــج مــما قلــل مــن نتائــج دراســتها حيــث

أن الحجـة تفصـل وتوضـح الأطروحـة فقـط، كذلـك فقـد كانـت تسـتخلص طبيعـة كل حجـة ولا تهتـم بمضمـون أو سـياق الأطروحـات.

(٤٤) برهـن، يبرهـن، برهنـة: الـشيء وعليـه أقـام الدليـل، وبرهـان جمـع براهـين، وهـو الحجـة البينـة الفاصلـة، وفي الفلسـلفة القيـاس المؤلـف في مقدمـات يقينيـة، وفي الرياضيـات مـا يثبـت قضيـة مـن مقدمـات مسـلم بهـا- المعجـم العـربي الأسـاسي، مرجـع سـابق، ص ١٥١.

(٤٥) عمـر التلمسـاني، «حـرب العـراق وإيـران فجيعـة المسـلمين»، مجلـة الدعـوة, العـدد ٥٤, السـنة ٣٠, ذو الحجـة ١٤٠٠ هــ أكتوبـر ١٩٨٠.

(٤٦) عبـد المنعـم سـليم جبـارة، إسرائيـل الحـاضر والمسـتقبل، مجلـة الدعـوة, العـدد ١٤، السـنة ٢٦، ١٣٩٧هـ يوليـو ١٩٧٧.

(٤٧) عبـد المنعـم سـليم جبـارة، العـرب بـين الصداقـة الأمريكيـة والصداقـة الروسـية، مجلـة الدعـوة, العـدد ٢٢، السـنة ٢٧، غـرة ربيـع الثـاني ١٣٩٨ هــ مـارس ١٩٧٨.

(٤٨) عمر التلمساني، مصدر سابق.

(٤٩) بـدون توقيـع، المجاهـدون الأفغانيـون واللعبـة الأمريكيـة القـذرة، مجلـة الدعـوة, العـدد ٥١ السـنة ٣٠, رمضـان ١٤٠٠هـ/ أغسـطس ١٩٨٠.

(٥٠) عبـد المنعـم سـليم جبـارة، القضيـة الفلسـطينية بـين الكنيسـت والإسـماعيلية، مجلـة الدعـوة, العـدد (٢٠) السـنة ٢٦، غـرة صفـر ١٣٩٨هـ ينايـر ١٩٧٨.

(٥١) عمـر التلمسـاني، يـا حـكام المسـلمين انـصروا اللـه ينصركـم، مجلـة الدعـوة, العـدد ٢٨، السـنة ٢٧ غـرة شـوال ١٣٩٨ هــ سـبتمبر ١٩٧٨.

(٥٢) عصام سابق، الصراع العربي الإسرائيلي له طبيعة خاصة، المصدر السابق.

(٥٣) عمر التلمساني، اليوم القدس والجولان وغدًا الأردن ولبنان، مجلة الدعوة، العدد ٥٢، السنة الثلاثون، شوال ١٤٠٠هـ سبتمبر ١٩٨٠.

(٥٤) انظر على سبيل المثال، عبد المنعم سليم جبارة، العرب يجيدون الحرب على الورق، مجلة الدعوة, العدد ٢٣، السنة ٢٧، غرة جمادى الأول ١٣٥٨هـ ١٩٧٨.

(٥٥) سامي السيد، الإعداد الأمريكي للحل السلمي بدأ قبل ١٩٥٢، مجلة الدعوة, العدد ٥١، السنة ٣٠، رمضان ١٤٠٠هـ أغسطس ١٩٨٠.

(٥٦) عبد المنعم سليم جبارة، قراءة سياسية لمسرحية أمريكية، مجلة الدعوة, العدد ٢٧، غرة رمضان ١٣٩٨ هـ أغسطس ١٩٧٨.

(٥٧) بدون توقيع، الإخوان المسلمون في الصحافة الأمريكية، مجلة الدعوة, العدد السابع، السنة ٢٦، غرة المحرم ١٣٩٧ هـ، ديسمبر ١٩٧٦.

(٥٨) حسن دوح، الجامعة والحركة الوطنية في مصر، مجلة الدعوة، العدد ٨، السنة ٢٦، غرة صفر ١٣٩٧ هـ/ يناير ١٩٧٧.

(٥٩) بدون توقيع، تقرير خطير للمخابرات الأمريكية ينصح بخطة جديدة لتصفية الحركات الإسلامية، مجلة الدعوة، العدد ٣٢، السنة ٢٧، غرة صفر ١٣٩٩هـ يناير ١٩٧٩.

(٦٠) ذكر عمر التلمساني أنه نشر وثيقة جاءت إليه بالبريد منسوبة إلى أحد رجال مخابرات الولايات المتحدة, عمر التلمساني، أيام مع السادات، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٤، ص١٩.

(٦١) عمر التلمساني، أمريكا من وجهة نظر إسلامية، مجلة الدعوة، العدد ٤٣، غرة المحرم ١٤٠٠هـ ديسمبر ١٩٧٩.

(٦٢) عمـر التلمسـاني، ذكريـات لا مذكـرات، القاهـرة، دار الطباعـة والنـشر الإسـلامية، ١٩٨٥، ص ص ١٩٤- ١٩٥.

(٦٣) عمـر التلمسـاني، إسرائيـل ليسـت غافلـة ولا تريـد سـلامًا, مجلـة الدعـوة، العـدد ٥٣، السـنة ٣٠، ذو القعـدة ١٤٠٠هـ سـبتمبر ١٩٨٠.

(٦٤) عبـد المنعـم سـليم جبـارة، التوسـع اليهـودي بـين بنـاء المسـتعمرات والاسـتنكار الأمريـكي، مجلـة الدعـوة، العـدد ١٦، السـنة ٢٦، غـرة شـوال ١٣٩٧هــ- سـبتمبر ١٩٧٧.

(٦٥) عبـد المنعـم سـليم جبـارة، التغيـير والثبـات في الموقـف الأمريـكي مـن القضيـة الفلسـطينية، مجلـة الدعـوة، العـدد ٣٢، السـنة ٢٧، غـرة صفـر ١٣٩٩هــ ينايـر ١٩٧٩.

(٦٦) عمـر التلمسـاني، لا نخـاف مـن السـلام، مجلـة الدعـوة، العـدد ٣٨، السـنة ٢٨، غـرة شـعبان ١٣٩٩هـ يوليو ١٩٧٩.

(٦٧) عبـد المنعـم سـليم جبـارة، حقيقـة موقـف الأطـراف في الـصراع العـربي الصهيـوني، مجلـة الدعـوة، العـدد ٥٣، السـنة الثلاثـون، ذو القعـدة ١٤٠٠هــ سـبتمبر ١٩٨٠.

(٦٨) عمـر التلمسـاني، الحيـاء الأمريـكاني، مجلـة الدعـوة, العـدد ٤٨، السـنة ٢٩، جـمادى الأخـرة ١٤٠٠هــ مايـو ١٩٨٠.

(٦٩) جابـر رزق، سـقوط المجتمـع الأمريـكي، مجلـة الدعـوة، العـدد ٢٦، السـنة ٢٧، غـرة شـعبان ١٣٩٨ هـ يوليـو ١٩٧٨.

الفصل الخامس

قراءة في خطاب الإعلان

المعولم في الصحافة العربية

الإعلان والعولمة : -

على كثرة وتنوع محاولات تعريف العولمة وتحديد آلياتها , وتتبع مسارها ونتائجها المتوقعة تبرز مساهمات ممثلي النموذج النقدي , خاصة تلك المساهمات التي ركزت على علاقة الإعلام والاتصال بعمليات العولمة , في هذا السياق يرى شيللر أن العولمة في مجالات الإعلام والاتصال تعني تركيز وسائل الإعلام كحافز للاستهلاك على النطاق العالمي , ويؤكد شيللر أن أسلوب الإعلان الغربي ومضمون الإعلام يدفع إلى التوسع العالمي لثقافة الاستهلاك عبر إدخال قيم أجنبية تطمس أو تزيل الهويات القومية أو الوطنية. (١)

وفي الإطار نفسه يرى تشومسكي أن عولمة الإعلام هي الزيادة الضخمة في الإعلان, خاصة الإعلان عن السلع الأجنبية , والتركيز في ملكية وسائل الإعلام الدولية , وبالتالي انخفاض التنوع والمعلومات في المادة الإعلامية مقابل الزيادة في التوجه للمعلن , ويتابع تشومسكي أن العولمة هي التوسع في التعدي على القوميات من خلال شركات عملاقة شاملة ومستبدة يحكمها أولاً الاهتمام بالربح وتشكيل الجمهور وفق نمط خاص , حيث يدمن الجمهور أسلوب حياة قائماً على حاجات مصطنعة , مع تجزئة الجمهور, وفصل كل فرد عن الآخر, حيث لا يدخل الجمهور الساحة السياسية , ويزعج أو يهدد نظام القوى أو السيطرة في المجتمع .(٢)

هكذا يزاوج كل من شيللر وتشومسكي بين عمليات العولمة وبين استخدام وتوظيف الإعلان عبر وسائل الإعلام المعولم لنشر ثقافة الاستهلاك , ومثل هذه المزاوجة تعني أمرين :ـ

الأول : أن الإعلان باعتباره صيغة عصرية للدعاية قد أصبح وسيلة براقة , وسلطة رمزية لا تقاوم لتفعيل عولمة الاقتصاد وفتح الأسواق وتنشيط التجارة من خلال نشر ثقافة الاستهلاك والتنميط ألحصري لاحتياجات وأذواق البشر .

الثاني : أن اقتصاديات الإعلان هي العمود الفقري لنمو وانتشار الشركات متعدية أو متعددة الجنسية في قطاع الإعلان والاتصال والمعلومات والترفيه , وفي الوقت نفسه فإن التنافس بين هذه الشركات على الحصول على حصة أكبر من كعكة هذا الإعلان المعولم - بكسر اللام - هو أحد أهم آليات الاحتكار والتركيز بين هذه الشركات .

التحليل الثقافي للإعلان المعولم :

هكذا يصبح الإعلان المعولم - بكسر اللام - آلية بالغة الأهمية في إدراك وتحليل أبعاد عمليات العولمة في الاقتصاد والإعلام والسياسة والثقافة . ولا يتسع المجال لدراسة الأبعاد الاقتصادية والإعلامية والسياسية والثقافية والاجتماعية للإعلان المعولم , من هنا يسعى هذا الفصل إلى تحليل الأبعاد الثقافية للإعلان المعولم من خلال تحليل عينة من الإعلانات التي نشرت في صحيفة الأهرام المصرية خلال عام واحد يبدأ من نوفمبر ١٩٩٩م إلى أكتوبر ٢٠٠٠م باعتبارها خطاباً إعلانياً معولماً صادراً عن عدد من الشركات المتعدية أو متعددة الجنسيات التي تنتج وتروج لمجموعات من السلع والخدمات .

وقع اختيار الباحث على ٩ إعلانات نشرت في الأهرام إلى جانب عدد من الصحف العربية هي الشرق الأوسط , والحياة ، والرياض السعودية , وقد اختيرت هذه الإعلانات بطريقة عمدية حيث روعي في اختيارها مجموعة الشروط التالية : -

١. أن يكون الإعلان قد نشر في صحيفة الأهرام إلى جانب عدة صحف عربية خلال الفترة الزمنية للدراسة.

٢. أن تكون السلعة أو الخدمة المعلن عنها لإحدى الشركات متعدية أو متعددة الجنسيات، بغض النظر عما إذا كانت السلعة أو الخدمة تصنع في مصر أو إحدى الدول العربية عبر وكيل محلي.

٣. أن يحتوي الإعلان على صور ورموز تتجاوز الوصف المجرد بالصور والكلمات للسلعة أو الخدمة المعلن عنها.

٤. تعدد وتنوع السلع والخدمات التي يروج لها الإعلان المعولم .

وبناء على هذه الشروط وقع الاختيار على إعلانين لنوعين من الهاتف النقال (المحمول), وإعلانين لنوعين من السيارات, وإعلان عن مبيد حشري وإعلان لمشروب غازي, وإعلان عن سلسلة مطاعم , وإعلان عن طعام للأطفال , وإعلان عن شركة طيران. (انظر ملاحق هذا الفصل)

ويمكن القول أن الشروط الثلاثة الأولى توفر ما يمكن تسميته بخطاب الإعلان المعولم في الصحافة العربية, فالإعلانات التي وقع عليها الاختيار نشرت في توقيت متزامن في أكثر من صحيفة عربية , مع ملاحظة أن بعض هذه الصحف ذات توزيع إقليمي عربي ودولي كالشرق الأوسط والحياة, كذلك فإن السلع والخدمات موضوع كل إعلان تنتج ويجري ترويجها من خلال شركات متعددة الجنسيات , أي أنها سلع وخدمات غير وطنية ، ومن المرجح أن مثل هذه الإعلانات يجري ترويجها في صحف عربية وغير عربية ، أي أنها تمثل الإعلان المعولم عبر دول وثقافات متعددة , خاصة إذا ما نظرنا للأبعاد الرمزية والدلالية لما يحمله ويتضمنه كل إعلان .

وتعتمد الدراسة على مدخل التحليل الثقافي Cultural Analysis Approach الذي استخدم في الكثير من البحوث الاجتماعية, خاصة بحوث اللغة, وعلم النفس, والاجتماع, والأنثربولوجيا, والإعلام, علاوة على الدراسات الأدبية, وقد ساعد انتشار استخدامات مدخل التحليل الثقافي على تطويره وبلورته، حيث ظهرت الدراسات الثقافية Cultural Studies كحقل معرفي جديد, يهدف إلى التحليل النقدي لمفاهيم ونظريات العلوم الاجتماعية ومحاولة التأليف بينها والاستفادة من إسهاماتها . (٣) ورغم عدم تبلور

الدراسـات الثقافيـة وافتقارهـا لإطـار نظـري موحـد , فقـد انتـشرت عـلى نطـاق واسـع في التسـعينيات باعتبارهـا تركـز عـلى نقـد الخطـاب , والاهتـمام بالثقافـة الشـعبية وآليـات الهيمنـة, ونقـد الطابـع الأيديولوجـي للتأثـير الإعلامـي , فضـلاً عـن نقـد عمليـات إنتـاج الجمهـور المتلقـي - المطـوع - مسـتهلك السـلع والخدمـات . (٤)

ويـرى كلنـر Kellner أن الدراسـات الثقافيـة في حاجـة إلى إعـمال مقـولات الحداثـة وما بعـد الحداثة في آن واحـد, والاسـتفادة مـن تحـولات البنيويـة, ومقـولات مدرسـة بيرمنجهـام ومدرسـة فرانكفـورت، والاهتـمام بنقـد ثقافـة وسـائل الإعـلام الجماهـيري Media Culture الـذي يقـوم عـلى أسـاس أخـذ الثقافـة كمجـال للدراسـة، بحيـث لا يجـري التفريـق بـين نـص راق وآخـر هابـط وعـدم الانحيـاز لأي منهـما, ولا التفريـق بـين الشـعبي والنخبـوي, ثـم إن المصطلـح - يقصـد ثقافـة الوسـائل - يكـسر الفواصـل التقليديـة فيـما بـين الثقافـة وفعـل الاتصـال , ويفتـح المجـال للنظـر في الثقافـة بوصفهـا إنتاجـاً , وللنظـر في وسـائل توزيعهـا وطـرق اسـتهلاكها, ذلـك لأن الثقافـة ذات طبيعـة اتصاليـة , والتفريـق بينهـا وبـين فعل الاتصـال مـا هـو إلا تفريـق عشـوائي وتعسـفي, فالثقافـة تحـدث بالاتصـال ,والاتصـال يحـدث بهـا . (٥)

وكان مارشـال ماكلوهـن قـد قـرر أن أدوات الاتصـال تعتـبر امتـداداً لحـواس الإنسـان , ولهـا دورهـا في تغيـير الإنسـان والتأثـير عـلى أسـلوب حياتـه ، أي ثقافتـه . (٦) ومـن الثابـت أن وسـائل الإعـلام تلعـب دوراً ضمـن عوامـل أخـرى في تشـكيل القوالـب النمطيـة Stereotypes والتصـورات ونوعيـة الخطابـات ، عـلاوة عـلى تأثيرهـا في اللغـة والقيـم والمعايـير , وهـى متغـيرات تؤثـر بدورهـا في تكويـن الرأي العـام . (٧)

إن الثقافـة كـما أشـار إدوار هـول E.Hall هـي اتصـال , ومـن ناحيـة أخـرى توصلـت بعـض الدراسـات إلى أن الاتصـال بـين أشـخاص متشـابهين في خلفيتهـم الثقافـة يكـون أيـسر وأسرع وموثـوق فيـه بدرجـة أكـبر مقارنـة بالاتصـال بـين أشـخاص مـن ثقافـات مختلفـة , كـما أن التعـرض لوسـائل الإعـلام - بمـا في ذلـك مـا تقدمـه مـن إعلانـات - يختلـف مـن ثقافـة لأخـرى . (٨)

ويمكـن القـول بـأن الامتـزاج والتدخـل بـين الثقافـة ووسـائل الاتصـال يسـاعد في إدراك وتحليـل عمليـات إنتـاج الثقافـة وتوزيعهـا واسـتهلاكها, وكذلـك في الكشـف عـن عمليـة الهيمنـة وفـق المفهـوم الغرامـشي حيـث لا تحـدث الهيمنـة وفـق قـوة المسـيطر فحسـب, ولكنهـا أيضـاً تتمكـن منـا بسـبب قدرتهـا عـلى جعلنـا نقبـل بهـا ونسـلم بوجاهتهـا. في هـذا الإطـار فـإن ثقافـة الإعـلام تصيـغ مسـتهلكيها وتسـخرهم كـذوات برغبـات وقيـم محـددة, وهـذا مـا يسـميه ألتوسـير بالاسـتجواب Interpellate, وهـذا مفهـوم يشـير إلى مـا تفعلـه الإعلانـات الدعائيـة حينـما تخاطبك كإنسـان ذي خصوصيـة بوصفك مسـتهلكاً تتحـلى بـذوق نوعـي متقـدم, وعـبر زخ هـذه الصفـة فيـك مـرة, ومـرة أخـرى تصبـح أمـام نفسـك وكأنـك المصنـف بتلـك السـمات(٩).

هكـذا تـبرز أهميـة الإعـلان ضمـن وسـائل الاتصـال وفي إطـار عمليـة تشـكيل ثقافـة الاسـتهلاك التـي بدورهـا أحـد أهـم تجليـات عولمـة الثقافـة, لكـن تبقـى إشـكالية تحليـل الإعـلان المعـولم فهـو ليـس مجـرد أداة أو وسـيلة اتصـال محايـد, بـل هـو نـص ثقـافي غنـي بالرمـوز والـدلالات، كـما أنـه لـه تأثـيره الثقـافي ودوره في تشـكيل التاريـخ وتنميـط الثقافـة , وقـد اعتـبر رولان بـارت الدعايـة والإعـلان ضمـن المؤسسـات الرسـمية للغـة. " فالمدرسـة والرياضـة والدعايـة والعمـل الجماهـيري والأغنيـة والإعـلام تعـبّر كلهـا وعـلى الـدوام عـن البنيـة نفسـها, عـن المعنـى ذاتـه, وأحيانـاً عـن الكلـمات ذاتهـا, إن تقولـب التعبير هـو واقـع سـياسي, وهـى الصـورة العظمـى للأيدولوجيـا " . (١٠)

إن كلـمات رولان تبـدو أكـثر دقـة إذا مـا فهمنـا أن الايدولوجيـا هنـا هـي إيديولوجيـا العولمـة, وأن المؤسسـات الرسـمية للغـة أصبحـت تتجـاوز الدولـة القوميـة وسـلطاتها إلى سـلطة عـبر دوليـة تحوزهـا الـشركات متعديـة أو متعـددة الجنسـيات التـي تعمـل عـلى دعـم وترسـيخ مؤسسـاتها الرسـمية.

كذلـك الحـال إذا نظرنـا إلى مجمـل تحليـلات رولان بـارت ونقـده الحـاد لوسـائل الإعـلام

والثقافة الجماهيرية في كتابيه « أساطير »عام ١٩٥٦م, و «نسق الموضة » عام ١٩٦٧م، حيث ركز في الكتاب الأول على قراءة الإعلان بوصفه نمطاً للأسطورة المعاصرة التي تخلقها وتروج لها وسائل الإعلام , بينما قدم في الكتاب الثاني تحليلاً سميولوجياً لما أسماه لغويات الأزياء، كشف فيه عن الايدولوجيا التي تبثها مجلات الأزياء, قاصداً التعرف على الكيفية التي يتواصل بها من يرتدي الثوب أو القبعة - على سبيل المثال - مع موضة الأزياء, وباحثاً في الوقت نفسه عن المعنى الذي يمكن أن تنطوي عليه العلاقات بين عناصر الزي - الموضة . (١١)

لكن رولان بارت المتقلب دائماً اعتبر كتاب « نسق الموضة « تجربة ساذجة وبدأ يطور أفكاره ويميز بين نص الكتابة ونص القراءة, على اعتبار أن الأخير قرين الثبات, وتتدرج نصوص الإعلان والنصوص المقدمة في وسائل الإعلام ضمن نصوص القراءة التي تتوجه إلى مستهلكين قد يقبلونها أو يرفضونها, أي أن بارت نظر إلى نصوص الدعاية والإعلان والموضة نظرة ازدراء ٠٠ لكنه يتخلى فيما بعد عن هذه النظرة في إطار حديثه عن دور القارئ - المتلقي في تفسير النص واكتسابه سياقات عديدة ومعاني مختلفة . (١٢)

تحولات رولان بارت لا تقلل من أهمية مساهماته في تحليل الإعلان وبعض أشكال الثقافة الجماهيرية, كما لا تحول دون الاستفادة منه , وكذلك الاستفادة من مساهمات ميشيل فوكو فيما يتعلق بالخطابات كمصطلح يجمل فيه كل أشكال الحياة الثقافية وتصنيفاتها, (١٣) ذلك أن الاعتقاد بموضوعية النص ينطلق من الاعتقاد بالخطاب الكوني للغة بوصفها أداة الاتصال ذات أبعاد منطقية , وبنية لغوية أو بنية الجملة , ولكن في اللغة, كل لغة, مستوى آخر من الخطابات هو خطاب الثقافة التي تنتمي إليها اللغة, ومستوى ثالث من الخطاب يكون فيه المتحدث أو السامع فرداً تُوجه فهمه واستجابته خبراته بالواقع واللغة , وهى خبرات أكثر خصوصية تسمح بالتأويل . (١٤)

وعلى ذلك فإننا نقوم بتحليل عدد من الإعلانات المنشورة في الصحافة العربية بوصفها تشكل خطاباً , هو خطاب الإعلان المعولم - بكسر اللام - الذي يتوجه إلى القارئ - المستهلك في الدول العربية , بغية التسريع بعملية العولمة في الوطن العربي .(أنظر الإعلانات في ملاحق الفصل)

الإعلان الأول :

يقدم الإعلان الأول للقراء محمولاً صغيراً ومتطوراً من إنتاج شركة إريسكون Ericsson إحدى أكبر شركات إنتاج أجهزة التليفون المحمول.. وتقوم فكرة الإعلان على ارتباط الصورة بالكلمات ٠٠ بحيث يصعب فصل الكلمات عن الصورة ٠٠ أو قراءة الإعلان بدون دمج لدلالة الصورة والتعليق ٠٠ فالكلمة هنا علامة, وكذلك الصورة, ولا تكتمل الدلالات بدون الدمج بينهما . (١٥)

الصورة الرئيسية بالإعلان هي للجهاز نفسه وتعلوها عبارة « أخيراً وعلى كوكب الأرض دليل الذكاء » , الصورة تبرز صغر الجهاز , وانسياب تصميمه ودقته , وعالميته أيضاً ،إذ كتب على الشاشة كلمة World ٠٠ أي أن الجهاز عالمي الانتشار , ومع ذلك فإن الدلالة الأهم أن هذا الجهاز لا مثيل له على الأرض أو على أي كوكب آخر .

وتتأكد دلالة التفرد الكوني لهذا الجهاز إذا ما تأملنا أرضية الإعلان ٠ والألوان المستخدمة فهي تصور الفضاء الخارجي , وتبدو صورة الجهاز وكأنها مركبة فضائية تسبح في فضاء لا نهائي ٠٠ فضاء مجهول ٠٠ ومظلم ٠٠ بينما تبدو صورة الجهاز واضحة وشامخة بل وكاشفة لهذا الفضاء .

دلالات التفرد ٠٠ والذكاء والتقدم التكنولوجي كلها دلالات تجعل من الدعوة لامتلاك الجهاز وكأنها حيازة للتفرد والذكاء والتقدم التكنولوجي, فهو جهاز فريد لا مثيل له على

الأرض أو على أي كوكب ٠٠ ومع ذلك جاءت دعوة التملك أو الشراء مضمرة وبأسلوب غير مباشر , لكن الإعلان يؤكدها بعبارة Make Your Self Heard أي اجعل نفسك مسموعاً ٠٠ وتبدو دلالة ذلك هنا في استحواذ وشراء هذا الجهاز . بما يعني أن شراء الجهاز يحقق قدراً من السلطة والنفوذ. فكي تكون مسموعاً اشتري هذا الجهاز, وهكذا تتماهى السلطة والنفوذ مع شراء جهاز اريكسون .

ويلاحظ أن عبارة اجعل نفسك مسموعاً جاءت بالانجليزية, كما أن اسم الجهاز لم يكتب بالحروف العربية, مما يعكس توجه الإعلان المعولم لاستخدام اللغة الانجليزية , وتفضيلها عن اللغة العربية وذلك كنوع من التميز والاستعلاء .

الإعلان الثاني :

ومن التفرد والتقدم التكنولوجي والتفوق الزائف لجهاز التليفون المحمول في الإعلان الأول ينتقل بنا الإعلان الثاني – عن سيارات كيا KIA – إلى الهيمنة والإجماع الزائف والبحث عن الأنثى في السيارة !!

فالإعلان مكون من جزئين غير متساويين , في الجزء الأعلى , والذي يحتل ٦٠٪ من مساحة الإعلان تقريباً صورة لإستاد رياضي يتوسطه ملعب كرة قدم , والإستاد مزدحم تماماً بالجمهور ٠٠ ولكن ماذا يشاهد هذا الجمهور ؟ إنه لا يشاهد شيء محدد ٠٠ بل تنتقل المشاهدة ودلالة الصورة إلى القارئ - المستهلك ٠٠ حيث يشاهد قطعة قماش بيضاء ضخمة أقرب إلى الخيمة , تغطي أرضية الملعب ٠٠ وقد كتب على القماش الأبيض " KIA الكل يفضلونها " ، واللافت للانتباه أن كيا كتبت باللغة الانجليزية ولم تكتب في الإعلان باللغة العربية , بمعنى أنها علامة معولمة ٠٠علامة تتجاوز الثقافة العربية , بل وكل ثقافة ٠٠ إن كيا KIA العلامة ستظل ذات دلالات عالمية , تماماً كما هو الحال في الإعلان الأول عن الهاتف المحمول أو المتنقل إريكسون.

الجمهور في الصورة جمهور كبير للغاية ومتنوع ٠٠يشاهد شيء واحد ٠٠ فريق في الملعب هو منتجات كيا من السيارات المختلفة, والتي ظهر منها ٨ أنواع مختلفة في الجزء الثاني من الإعلان أسفل صورة الإستاد الرياضي .

إن الجمهور ، كل الناس ، يفضلون منتجات كيا التي أصبحت تهيمن على أرض الملعب، أو بعبارة أخرى هي اللاعب الوحيد, ومع ذلك فالناس يفضلون هذا اللاعب الوحيد فيما يشبه الإجماع على منتجاتها, لكن هذا الإجماع - مع وجود غطاء فوق أرض الملعب - لا يخلو من غموض مقصود ٠٠ فأي نوع من منتجات " كيا " يمكن أن يقع عليه اختيار الجمهور - المشاهد في الصورة , والقاري - المستهلك للصحيفة, لا إجابة محددة, ولا يمكن رصد دلالة محدودة ٠٠إذ لا توجد أي مساحة حقيقية للاختيار، فهو اختيار زائف, فالهدف أن يقوم القارئ المستهلك بالشراء, شراء أي سيارة من منتجات شركة كيا .

إذن لما قصد تغطية أرض الملعب ؟ وماذا يعني هذا الغموض ؟ إنه يرمز بداية لنوع من المساواة بين كل منتجات شركة كيا ٠٠ ثم إنه يقدم ثانياً نوعاً من الوعد للقارئ - المستهلك - بإمكانية أن يختار بين أكثر من نوع, وإمكانية أن يطلق لخياله العنان لكي يتصور ماذا تحت الغطاء ٠٠ وماذا يمكن أن يشتريه, ولا شك أن عملية الاختيار والتخيل لما تحت الغطاء، ولما قد يستطيع القارئ المستهلك شرائه، لا تخلو من دلالة جنسية, فهناك إمكانية لرفع هذا الغطاء ٠٠ لتعرية الملعب للوصول إلى الأرض ٠٠ أو حتى السيارة ٠٠ وكل من الأرض والسيارة تدخل في إطار الرموز الأنثوية.

الأنثى كامنة في هذا الإعلان , رغم أن الموضوع عن منتجات كيا من السيارات ٠٠ ولا غرابة في ذلك, فقد ربطت صناعة الإعلان منذ زمن طويل بين الأنثى والسيارة، وما تزال صور الفتيات الحسناوات تستخدم في كل أنحاء العالم للإعلان عن السيارات بأنواعها المختلفة، وطالما أن الإعلان يدور في ملعب للكرة، فإن معظم الجمهور من الرجال، والرجال بكل المقاييس يفضلون ويرغبون في النساء ، كذلك الحال بالنسبة لمنتجات " كيا ", فالكل يفضلونها ٠٠ يفضلون سيارة " كيا " بمقاييس كل منهم .

الإعلان الثالث :

من الهيمنة والإجماع الزائف, والتماهي المشوه بين الأنثى والسيارة يفاجئنا الإعلان الثالث بفيض من الدلالات والمعاني عن القوة والعنف, إنه يفجر في القارئ - المستهلك شعور بالتفوق, والحق كل الحق في استخدام العنف المشروع ٠٠ وهذا التفوق والعنف المشروع موجه ضد الآخر, سواء كان إنساناً أو حيواناً أو مجرد حشرة .

هذه الدلالات والمعاني قد تكون بعيدة غير واضحة تماماً في الصور والكلمات التي تتكون منها بنية الإعلان وهو عن " فليت الأصلي قاتل الحشرات الزاحفة " . لكن تأمل العلامات والدلالات والمعاني التي حملتها الصور والكلمات , بل والألوان المستخدمة في الإعلان والتي تؤكد أننا إزاء دعوة صريحة لامتلاك وسائل القوة , ووسائل القتل , إما لممارسة القتل ، قتل الآخر ، أو على الأقل لممارسة العنف ضد الآخر .

تتصدر الإعلان صورة لعبوة فليت الأصلي , في وضع رأسي , والعبوة لونها أخضر, وخلف صورة العبوة مباشرة وبعرض الإعلان كله يبرز خنجر ذو نصل حاد , يواجه القارئ – المستهلك ٠٠ وعند مقبض الخنجر تقبع في خلفية الإعلان – ناحية اليمين – قنبلتان يدويتان , يقابلهما – ناحية اليسار – مسدس لا تظهر كل تفاصيله , فثمة غموض مقصود يرجع بالأساس إلى استخدام اللون القرمزي الغامق كأرضية للإعلان ككل , ومثل هذا اللون يشي بالغموض المحير , غموض ممتزج بلون الدم ٠٠ وتجدر الإشارة هنا إلى أن مقدمة الإعلان وردت فيها عبارة " يوجد ما هو أقوى لقتل الصراصير في خنادقها " وقد كتبت باللون الأبيض وببنط كبير , عدا كلمة " لقتل " التي جاءت باللون الأحمر .

دلالة التركيز على الدعوة للقتل لم تأت فقط من خلال استخدام اللون الأحمر - لون الدم - في إظهار كلمة " لقتل " ٠٠ بل إن فعل يقتل والكلمات المشتقة منه جاءت ٥ مرات من أصل ٤٥ كلمة وردت في الإعلان ككل وبنسبة ١١,١٪ ، كما ظهرت هذه الدعوة واضحة في عرض أنواع للأسلحة التي تستخدم في القتل (خنجر ومسدس وقنابل)

وربما تبدو الدلالة السطحية للتركيز على فعل القتل ومشتقاته وكأنها محاولة لدعم وتبرير قوة المبيد الحشري على القتل المشروع للحشرات الضارة – الصراصير - ، لكن استخدام صور ترسانة الأسلحة التي تستخدم في القتال بين البشر في الإعلان – والتي لم ولن يسبق لها أن استخدمت في قتل الصراصير – يفتح أعيننا على ما يمكن وصفه بالدعوة إلى شرعية أن يحوز القارئ – المستهلك - عناصر القوة والتفوق, فالحياة للأقوى, القادر على استعمال العنف ضد الآخر الذي قد يختلف معه .

في هذا الإطار يبدو امتلاك " فليت الأصلي " وكأنه يحقق نوعاً من أنواع التفوق والشعور بالقوة, فهو بمعنى من المعاني امتلاك لأحد أدوات القوة وممارسة العنف, والتدريب على استخدامه, وممارسة القتل , فعوضاً عن استخدام الخنجر أو المسدس أو القنابل اليدوية يمكنك أن تكون قوياً وقاتلاً من خلال شراء واستخدام " فليت " . باختصار ثمة نوع من الإحلال في امتلاك وسائل القتل وممارسة العنف أو حتى القتل, غير أن هذا الإحلال قد لا يكون كافياً , وقد يكون مجرد تدريب على ممارسة العنف ضد إنسان آخر .

ولا يخلو الأمر من إشارة إلى أن قوة القتل والفتك التي يتمتع بها " فليت " تفوق بكثير الأسلحة التي تقتل عدواً هو أقوى من الصراصير (الإنسان) ، وظهر الحرص على إبراز قوة " فليت "واضحة في معظم الكلمات المستخدمة في الإعلان مثل " أقوى .. يقتل فوراً .. أسرع إبادة "، ولم ينس المعلن إبراز جوانب في قوة " فليت " أهمها الجودة والعراقة، فهو حصيلة " أكثر من ١٥ سنة خبرة وثقة في الجودة والتركيبة " ، كما أن مفعوله ممتد فهو " يستمر ويستمر" ، وحاسم فهو يبيد الصراصير " بلا عودة "

الإعلان الرابع :

غطرسة التفرد عبر القوة والاستعلاء والتفوق هي الدلالات الرئيسية في الإعلان الرابع

الـذي نـشر عـلى نصـف صفحـة , باللونـين الأبيـض والأسـود فقـط لترويـج شراء السـيارة الأمريكيـة الشـهيرة " جيـب شـيروكي " التـي يجـري تجميعهـا في احـد مصانـع القطـاع الخـاص بمـصر.

ينقسـم الإعـلان طوليـاً إلى جزئـين , في مقدمـة الجـزء الأيـسر سـورة لسـيارة تقـف في شـموخ وعنـاد عـلى أرضيـة غـير مسـتوية , مغطـاة بقطـع صغـيرة مـن الصخـر، وفي خلفيـة الصـورة, في مسـتوى أدنى مـن السـيارة ، صـورة لأحـد منـازل كوبـري الأزهـر , المزدحـم بالسـيارات, وتبـدو الطرقـات مزدحمـة بالنـاس والسـيارات، ولا يوجـد مـكان لانتظـار السـيارات, في المقابـل نجـد مالـك السـيارة " جيـب شـيروكي " قـد تمكـن مـن إيجـاد مـكان الانتظـار بفضـل قـوة السـيارة وصلابتهـا ، فهـي تعمـل بالدفـع الرباعـي , وبالتـالي فقـد نجـح مالـك السـيارة في ارتقـاء هـذا المـكان المرتفـع الصعـب ذو الأرضيـة غـير الصالحـة وإيجـاد مـكان آمـن للسـيارة بعيـدا عـن الزحـام , ومرتفـع عـن الشـارع والنـاس, ولا شـك أن دلالـة التميـز وارتفـاع المكانـة الطبقيـة واضحـة , فالسـيارة تقـف في مقدمـة الصـورة , وفي أعـلى نقطـة مسـتوى الشـارع, ومـن يمتلكهـا هـو بالـضرورة لديـه دخـل مرتفـع يتناسـب مـع قـوة السـيارة وثمنهـا، وبالتـالي فهـو يسـتحق هـذه المكانـة المرتفعـة, والمتعاليـة عـن النـاس والشـارع وعـن الزحـام باختصـار مكانـة عاليـة في المجتمـع .

ولعـل مـا يؤكـد هـذه الدلالات مفارقة أن السـيارة تقف في حي شـعبي يعتبر من أعرق وأقدم شـوارع قاهـرة المعـز, إن الحـي العريـق هنـا لا يخلـو مـن دلالـة أنـه المجتمـع المـصري ككل، وهـو المجتمـع الـذي أشـارت الكلـمات المصاحبـة للإعـلان أنـه مزدحـم بالناس وبالسـائحين, بـل وبالمصريـين القادمـين والعائدين مـن الخـارج . إننـا هنـا إزاء عـدة مفارقـات دلاليـة: الأولى بـين التفرد والـثراء وارتفـاع المكانـة الطبقية، وبين الشـارع في هـذا الحـي الشـعبي, والثانيـة بـين الزحام وعـدم وجـود أماكن انتظار وبين سـهولة إيجـاد مكان خـاص للانتظـار لمـن يملـك السـيارة شـيروكي, والمفارقـة الثالثـة بـين حـي الأزهـر العريـق وبـين تلك السـيارة الحديثـة والانتصـار لهـا, فهـي فـوق النـاس والشـارع والحـي بمـا يعنـي نـوع مـن الاسـتخفاف بالتاريـخ

والـتراث الوطنـي ،ومـن جانـب ربمـا اسـتعار المعلـن مـن المـكان عراقتـه وقيمتـه ليضيفهـا عـلى سـيارته التـي هـى بالإعـلان تتمتـع بنفـس القيمـة والعراقـة .

ومـن عجـب أن الـكلام المصاحـب للصـورة والـذي يشـغل النصـف الأيمـن مـن الإعلان يـشي بالدلالات والمعـاني السـابقة ولا يـصرح بهـا ٠٠ فالعناويـن التـي كتبـت ببنـط كبـير هـي : " أماكـن الانتظـار لم تعـد مشـكلة ! " ٠٠ ثـم بعـد العنـوان تـرد ٣ عبـارات غنيـة بالمعـاني والـدلالات "

- يزداد معدل السكان بـ ٩٠٠,٠٠٠ نسمة في العام الواحد!
- نسبة السائحين القادمين إلى مصر ٢,٠٠٠,٠٠٠ في السنة .
- المصريون القادمون إلى مصر ٣٠٠,٠٠٠ في السنة !
- وهكـذا تتضـح الصـورة ..أصبحـت جميـع مشـاكل أماكـن الانتظـار مـع سـيارة جيـب شـيروكي .. محلولـة. توجـه لزيـارة أقـرب مـوزع معتمـد ، Jeep there's only one بمـا يعنـي أنهـا الوحيـدة مـن نوعهـا ٠٠ إنهـا متفـردة.

عـلى أن الكلـمات والعبـارات المصاحبـة تقـدم صـورة قاتمـة عـن الزحـام في القاهـرة بـل عـن الزحـام في مـصر بعامـة, فالأرقـام التـي وردت عـن زيـارة عـدد السـكان والسـائحين والمصريـين في الخـارج القادمـين إلى مـصر كلهـا تتعلـق بمـصر وليـس القاهـرة فقـط, رغـم أن الزحـام يـكاد يكـون مشـكلة خاصـة بالمـدن فقـط ، لأن الإعـلان يقـرر " وهكـذا تتضـح الصـورة ٠٠ " وهنـا قـد نسـأل :أي صـورة ؟٠٠ هـل الصـورة المصاحبـة أم الصـورة التـي رسـمتها الكلـمات والعبـارات الخاصـة بزيـادة عـدد السـكان والسـائحين والمصريـين القادمـين مـن الخـارج ؟

اعتقـد أن خطـاب الإعـلان تعمـد إيجـاد نـوع مـن الالتبـاس والتداخـل الـدلالي ٠٠ خاصـة وأن الصـورة بالمعنـى الحـرفي – صـورة السـيارة والشـارع والزحـام – تجسـد المشـكلة وتقـدم

الحـل ٠٠ أمـا الصـورة الكلاميـة فإنهـا تجسـد المشـكلة وتبالـغ في تصويرهـا لكنهـا تـشي بالحـل٠٠ فهـي تقـرر أن جميـع مشـاكل أماكـن الانتظـار محلولـة ،لكنـه حـل فـردي يقـوم عـلى شراء سـيارة جيـب القويـة ذات الدفـع الرباعـي التـي تشـعرك بالتفـوق والتعـالي ، فهـي مرتفعـة عـن غيرهـا مـن سـيارات الركـوب , كـما أنهـا قويـة ٠٠ صلبـة ٠٠ قـادرة عـلى ارتقـاء الأماكـن المرتفعـة، والسـير عـلى كل أنـواع الطرقـات الممهـدة والوعـرة ،إنهـا تحقـق لـك التفـرد ٠٠ التفـرد بدايـة مـن إيجـاد حـل فـردي لمشـكلات الزحـام وأماكـن الانتظـار وحتـى القـدرة عـلى خـرق قواعـد المـرور , أي انتهـاك النظـام والقانـون , فمـع هـذه السـيارة يمكنـك أن تجـد مكانـاً للانتظـار، ولـن يفكـر رجـال المـرور في تنظيمـه أو السـيطرة عليـه، لأنـه مـكان لا يصلـح للسـيارات العاديـة٠٠ مـكان خـارج القانـون ولم ولـن يطالـه النظـام ، ولا شـك بوجـود دلالـة عـلى أن صاحـب أي سـيارة عاديـة مقيـد بأماكـن الانتظـار العاديـة التـي تعـاني مـن الزحـام ، أمـا صاحـب سـيارة جيـب شـيروكي فيمكنـه الانتظـار في أي مـكان دون أن يعوقـه شيء ، فـالأرض كلهـا ملـك لـه .

وإذا كنـت تملـك سيارة " جيـب شـيروكي " فأنـت إذن خـارج دائـرة الزحـام ٠٠ خـارج دائـرة النـاس , لأنـك أقـوى وأغنـى منهـم , وأيضـاً خـارج دائـرة النظـام والقانـون , ومثـل هـذه الدعـوة للخـروج لا تخلـو مـن ممارسـة لنـوع مـن العنـف الـدلالي ٠٠ عنـف غـير مبـاشر ٠٠ عنـف مـع الشـارع ومـع النـاس ٠٠ ومـع أماكـن الانتظـار ٠٠ وضـد القانـون ٠٠ لكنـه عنـف محبـب فهـو عنـف رمـزي يـبرره امتـلاك سـيارة أمريكيـة قويـة مشـهورة باسـتخداماتها العديـدة في الحيـاة العسـكرية والمدنيـة , إذ لا تخفـى دلالـة أن سـيارات جيـب مـن أكـثر أنـواع السـيارات المسـتخدمة في القـوات المسـلحة الأمريكيـة .

الإعـلان في عبـارة واحـدة ينشـد التفـرد عـبر اسـتخدام القـوة والـثراء, القـوة الماديـة والرمزيـة لهــذه الســيارة الأمريكيــة ذات الاســتخدامات المدنيــة والعســكرية, فمــن يمتلــك مثــل هــذه الســيارة هــو أقــوى, وأعــلى مــن الآخريــن ومــن النظــام ومــن القانــون, إنــه هــو الــذي يصنــع بقوتــه القانــون والنظــام, ويجــد لنفســه ولســيارته حــلاً مريحــاً بعيــداً عــن النــاس والمجتمــع,

وذلـك باسـتخدام سـيارته الأمريكيـة الحديثـة القويـة في ذلـك الحـي (المجتمـع) العريـق القديـم المزدحم. بمـا يعنـي انتصـاراً للقيـم الفرديـة وللنمـوذج الحضـاري الغـربي, ولعـل دلالات التغريـب تتجـلى في ختـام الكلـمات المصاحبـة للإعـلان والتـي جـاءت باللغـة الانجليزيـة بمعنـى أن جيـب هـي الوحيـدة ٠٠ هـي الـشيء الوحيـد المتفـرد لشـخص متفـرد ٠٠ ولعـل مـا يعكـس حـرص الإعـلان المعـولم عـلى تأكيـد علامـة السـلعة أو الخدمـة التـي يـروج لهـا بالعلامـة التـي تزيـن منتجاتـه, وقـد لاحظنـا ذلـك في الإعـلان الخـاص بسـيارات كيـا التـي تتوسـل بالحـروف الانجليزيـة لصنـع علامتهـا رغـم كونهـا شركـة كوريـة .

الإعلان الخامس :

رغـم أن الإعـلان الخامـس يبـدو تقليديـاً مـن حيـث التصميـم والعلامـات والـدلالات إلا أن فيـه جديـداً مهـماً يتمثـل في محاولـة الإعـلان المعـولم الاسـتفادة مـن بعـض ملامـح ومكونـات الخصوصيـة لتحقيـق أهدافـه, بعبـارة أخـرى يتوسـل الإعـلان المعـولم بكلـمات عاميـة تنتـشر بـين الشـباب للوصـول إليهـم والتأثـير فيهـم, ومثـل هـذا الاسـتخدام يقـدم نموذجـاً لإمكانيـة اسـتخدام وتوظيـف بعـض مكونـات الثقافـة المحليـة لفـرض ثقافـة العولمـة، ولعـل هـذا يعـبر عـن تطـور لافـت في اسـتخدام لغـة الإعـلان المعـولم، والتـي انتقلـت مـن الإنجليزيـة إلى العاميـة المحليـة ، وربمـا فرضـت طبيعـة السـعلة المعلـن عنها .

يـروج الإعـلان الخامـس لمنتجـات شركـة بيبـسي متعديـة أو متعـددة الجنسـيات والأمريكيـة الأصـل, واعتمـد الإعـلان المنشـور عـلى ربـع صفحـة عـلى صـورة للمطربـة اللبنانيـة نـوال الزغبـي تمسـك بزجاجـة بيبـسي وتقدمهـا بيدهـا اليمنـى إلى القـارئ - المسـتهلك , وخلـف صـورة نـوال الزغبـي رسـم لشـعار الشركـة المكـون مـن دائـرة مقسـمة عرضيـا إلى ثلاثـة ألـوان الأحمـر في أعـلى الشـعار - العلامـة ، يليـه الأبيـض ثـم الأزرق ٠٠ وقـد أحيـط الشـعار - العلامـة بتيـارات هوائيـة أخـذت درجـات مختلفـة مـن اللـون الأزرق .

والملاحظ أن اللون الأزرق بدرجاته المختلفة قد غلب على الإعلان بما في ذلك ملابس المطربة نوال الزغبي , وعادة ما يمنح اللون الأزرق , خاصة درجاته الفاتحة دلالات بالقرب الإنساني والانطلاق , كما أن له ارتباطاً ذهنيا بالبحر والصيف ، ولعل ما ضاعف من قوة دلالات المرح والانطلاق تيارات أو موجات الهواء التي أحاطت شعار - علامة الشركة وصورة نوال الزغبي . وجعلت شعر المطربة نوال الزغبي يتطاير في دلال ومرح وانطلاق وهى دلالات يكثر استخدامها في إعلانات بيبسي , لكن هذه المرة تختفي الدعوة الصريحة للمرح والانطلاق , ليحل محلها كلمات عامية كتبت ببنط كبير أعلى الإعلان وفوق رأس المطربة نوال الزغبي : " إديها بيبسي ٠٠ إديها مزيكا " ٠٠

والدلالات المباشرة " اشرب بيبسي أو خذ بيبسي وخذ أيضاً مزيكا " , فهناك نوع من الارتباط والارتهان بين المزيكا والبيبسي ٠٠ وبطبيعة الحال تبدو بوضوح دلالات ومعاني استخدام كلمات عامية ينتشر استعمالها بين الشباب وهى كلمات حديثة ابتكرها الشباب في مصر كنوع من أنواع التمايز الجيلي , ويلاحظ الإعلان المعولم ذلك ويوظفه لصالحه , وذلك من خلال محاولة الاقتراب والتفاعل مع أجيال الشباب المستهلك الأكبر للمشروبات الغازية والأكثر إقبالاً على حفلات نوال الزغبي التي تعتبر واحدة من أبرز مطربات الأغنية الشبابية .

خذ أو استهلك أو استمتع تصبح " إديها " ٠٠ والموسيقى تصبح " مزيكا "٠٠ لكن أي موسيقى ؟ إنه حفل غنائي تنظمه شركة بيبسي لنجمة بيبسي نوال الزغبي في كل من الإسكندرية والقاهرة ٠٠ وكل المطلوب لحضور هذا الحفل كما يقول الإعلان جمع ٢٠ غطاء من منتجات الشركة " بيبسي - سفن أب - ميراندا " , وعندا الانتهاء من جمعها - أي مزيد من الاستهلاك - تبدل فوراً بدعوة مجانية لحضور الحفل.

بقراءة كلمات الدعوة ٠٠ الإعلان ٠٠ وتحليل علامات الإعلان تتبلور دلالات خطاب الإعلان الخامس ممثلة في الإعلاء من شأن القيم والمعاني المادية ٠٠ فالاستهلاك ومزيد

مـن الاسـتهلاك يحقـق لـك مزيـداً مـن المتـع الماديـة , وعـبر هـذه المعادلـة السـهلة تـبرز دلالات المقايضـة وتبـادل الرمـوز , والغوايـة .

فأنـت أيهـا الشـاب القـارئ - المسـتهلك سـوف تتمتـع مرتـين ، مـرة بـشرب منتجـات بيبـسي، ومـرة بالحفـل الغنـائي ، وذلـك مـن خـلال وسـيلة سـهلة جـدا هـي جمـع ٢٠ غطـاء, مجـرد أغطيـة فارغـة قـد تكـون ملقـاة في الشـارع , أشـياء ورمـوز ماديـة لكنهـا سـتتيح لـك الحصـول عـلى تذكـرة مجانيـة لحفـل غنـائي ٠٠ يقـدم سـلعة غـير ماديـة , يقـدم غنـاءً وفنـاً وموسـيقى ٠٠وبغـض النظـر عـن مسـتوى الغنـاء في هـذا الحفـل إلا أن تذكـرة الدخـول جـاءت عـبر اسـتهلاك - أو الحصـول عـلى - أشـياء ماديـة رخيصـة ٠٠ بمـا يعنـي في التحليـل الأخـير التقديـر المبالـغ فيـه , والاحتفـاء الكبـير بمـا هـو مـادي مقابـل مـا هـو معنـوي أي تسـليع الموسـيقى والغنـاء .

عـودة لعنـوان الإعـلان " إديهـا بيبـسي " " إديهـا مزيـكا" تكشـف عـن قصـد الإعـلان ٠٠ وعـن دلالـة أن الغلبـة والتفـوق دائمـاً في الثقافـة الاسـتهلاكية للعولمـة هـي للأشـياء الماديـة ٠٠ فالشـق الأول أو الـشرط الأول في العنـوان خـذ أو اسـتهلك بيبـسي ٠٠ وتـأتي المكافـأة أو الحافـز في الشـق الثـاني مـن العنـوان إديهـا مزيـكا , أي خـذ أو احصـل عـلى تذكـرة للحفـل الموسـيقي, والعنـوان بشـقية أو شـطريه يقـرن الدعـوة بسرعـة الفعـل , فعـل الاسـتهلاك . ويبـدو هـذا واضحـاً في اسـتخدام كلـمات وعبـارات تحـث القـارئ - المسـتهلك - عـلى سرعـة الفعـل مثـل " جمـع ٢٠ غطـاء وبدلهـم فـوراً " وينتهـي الإعـلان بعبـارة " العـرض سـاري حتـى نفـاذ الكميـة " للتأكيـد عـلى ضرورة سرعـة الفعـل خاصـة وأن التاريـخ المحـدد لإقامـة الحفلـين قريـب جـداً.

الغنـاء والموسـيقى هنـا تصبـح أشـياء ماديـة يمكـن الحصـول عليهـا أو الاسـتحواذ عليهـا لمجـرد أنـك حققـت الـشروط الماديـة ممثلـة في اسـتهلاك أو جمـع ٢٠ غطـاء لثلاثـة منتجـات لشركـة بيبـسي , وعـبر هـذه المقايضـة تـبرز الغوايـة ٠٠ غوايـة جمهـور الشـباب المسـتهدف مـن هـذا الإعـلان .

إنهـا غوايـة متعـددة الـدلالات فهـي لاسـتهلاك المزيـد والمزيـد مـن منتجـات بيبـسي ، أو حتـى غوايـة لجمـع أغطيـة هـذه المنتجـات مـن الطرقـات , ثـم هنـاك غوايـة إعـلاء شـأن كل مـا هـو مـادي , وتحويـل المعنـوي (الموسـيقى) إلى سـلعة ٠٠ إلى مـادة ٠٠ بـل وتحويـل جـمال وفتنـة نجمـة بيبـسي نـوال الزغبـي إلى سـلعة ٠٠ إلى جـزء مـن صفقـة المقايضـة بـين المسـتهلك الشـاب وشركـة بيبـسي , ولمـا لا ٠٠ فالمطربـة هـي نجمـة بيبـسي أي أنهـا عنـد مسـتوى دلالي معـين هـي إحـدى منتجـات شركـة بيبـسي , أو عنـد مسـتوى آخـر هـي إحـدى الموظفـات في الشركـة ٠٠ ونجمـة بيبـسي بدورهـا تظهـر بالإعـلان في صـورة شـيقة لا تخلـو مـن فتنـة وغوايـة , فالشـعر منطلـق بـلا قيـود , وفي عينيهـا جـمال وغمـوض وفتنـة ووعـود لا نهائيـة , ومـع سـحر وغمـوض العينـين ثمـة ابتسـامة سـاحرة وغامضـة و وذراعهـا الأيمـن ممتـدة للأمـام لتقـدم بيدهـا زجاجـة بيبـسي ٠٠ تقدمهـا لمـن يشـتري ٠٠ لمـن يدفـع ٠٠ ودلالـة الصـورة بسـيطة فـشراء بيبـسي يمكنـك مـن شراء قـدر مـن فتنـة وجـمال نجمـة بيبـسي نـوال الزغبـي ٠٠ وإذا لم تقنـع بذلك ففـي مقـدورك جمـع ٢٠ غطـاء مـن منتجـات بيبـسي وحضـور الحفـل ومشـاهدة نجمـة بيبـسي الفاتنـة عـن قـرب , وعـلى أرض الواقـع , باختصـار سـتتمكن مـن الإمسـاك بالحلـم الجميـل لنجمـة بيبـسي .

الإعلان السادس :

لـذة الاتصـال , وجـبروت وهيمنـة هـذه اللـذة هـي أهـم دلالات الإعـلان السـادس الـذي يـروج لنـوع مـن الهاتـف المحمـول Trium مـن إنتـاج شركـة ميتسـوبيشي متعـددة الجنسـيات واليابانيـة الأصل .

والإعــلان منشــور عــلى ربــع صفحــة , ويســتخدم اللونــين الأبيـض والأسـود فقـط , مـع عــدد محــدود مــن الكلــمات , ويتكــون الإعــلان مــن نصفــين غــير متســاويين, النصــف الأعــلى هــو الأكــبر إذ يحظــى بحــوالي ٦٠٪ مــن مســاحة الإعــلان, وهــو عبــارة عــن وجهــين متقابلــين

لرجل وامرأة , وجه الرجل في يمين الصورة يتحدث بعنف , بينما يقابله وجه لامرأة جميلة فمها مفتوح ويشى بصرخة وثمة عبارة مكتوبة بخط واضح هي " متعة التحدث " ٠٠ ومن الواضح أن الرجل والمرأة عاريين تماماً, لكن عند مستوى الكتف يبدأ النصف الثاني من الإعلان وهو أرضية سوداء تماماً , يبرز فيها صورتان لجهازين متجاورين , في الوضع الرأسي , أحدهما مفتوح يقع على اليسار, والثاني مغلق ويتميز عن الأول بأن لونه أبيض ٠٠ ثم بعض الكلمات عن الحجم الصغير للجهاز والتصميم الأنيق للجهاز والذي يمنحكم متعة التحدث ٠٠ بالإضافة إلى اسم الجهاز, وهو في الوقت نفسه علامة أو شعار للجهاز ، ويلاحظ أن اسم الجهاز لم يكتب بالحروف العربية , بل التزم بالحروف الانجليزية على العادة المتبعة في الإعلان المعولم وذلك رغم أن شركة ميتسوبيشي التي تنتج الجهاز هي شركة يابانية الأصل .

والتباين اللوني ضمن درجات الأسود والأبيض يمنح الإعلان حالة من الغموض تتداخل على المستوى الدلالي مع غموض وتراوح دلالات صورة الوجهين المتقابلين للمرأة والرجل العاريين ٠ مواجهة تشى بدلالات من التحدي والغضب والثورة ٠٠ لكن هذه المواجهة تشير إلى مستويات من العنف اللفظي تنقلنا دلالياً إلى مستوى آخر من عنف ودفء وحميمة الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة , فالعري تفضحه الصورة لكن في غموض ساحر , ومع تباينات اللون ينطلق الخيال لتصوير علاقة جسدية بين الرجل والمرأة, هذه العلاقة تتأكد دلالاتها من عبارة " متعة التحدث " التي تلتحم في علاقة عضوية مع الوجهين المتقابلين المتصارعين المتحابين للرجل والمرأة .

إن صورة الوجهين تبرز دلالات حب وكراهية لكن الانتصار دائماً لمتعة التحدث , وهى في الحقيقية متعة للاتصال , اتصال بين رجل وامرأة , اتصال مراوغ يشمل الحوار الهادئ والمواجهة العنيفة وحوار الجسد ٠٠ إذ أن كل أنواع الاتصال هي متعة أو تتحول إلى متعة حقيقية تأتي من خلال استخدام هذا النوع من الهاتف المحمول أو المتحرك , وبالتالي فإن

القارئ - المستهلك يستطيع أن يحقق هذه المتعة عبر امتلاك هذا الجهاز الذي قد يكون سبباً في جذب الطرف الآخر إليه، أو وسيلة للاتصال به في أي وقت .

والشيق أن امتلاك الجهاز هو دلالة على امتلاك الآخر, الرجل أو المرأة فثمة مقابلة فريدة في تصميم هذا الإعلان بين الوجهين المتصارعين - المتحابين وبين صورة اصغر في أسفل الإعلان على اليسار لجهازين احدهما مفتوح والآخر مغلق , يمثل كل منهما امتداداً دلالياً للمواجهة الاتصالية بين الرجل والمرأة .

الإعلان السابع :

الأمركة هي الدلالة المهيمنة على هذا الإعلان الذي يروج لمحلات بيتزا هت والمنشور بالألوان على صفحة كاملة تحتل ٧٠٪ منها صورة لقرص شهي من البيتزا الكبيرة بالحجم الطبيعي , وتظهر فيه قطع من البصل والطماطم والفلفل الأخضر واللحوم وعش الغراب, وقد أطلقت الشركة على هذا النوع من البيتزا " بيج نيويوركر بيتزا " ووصفته في عنوان كبير بأنه أكبر بـ ٣٣٪ من اكبر بيتزا وبطعم جديد, وإلى جانب هذا العنوان الكبير شعار - رمز مطاعم بيتزا هت .

بالإضافة إلى هذا النوع الجديد يظهر في الجزء الأسفل من الإعلان اسمان لنوعين جديدين من البيتزا: فيجي بانكي وأميركان فيفوريت, مع قائمة بعناوين المطاعم التي تقدم خدمة التوصيل للمنازل, ثم تظهر في أسفل الصفحة على اليسار صورة لتمثال الحرية الشهير وتتقاطع رأس التمثال والشعلة مع أطراف قرص البيتزا الشهي . وعند قاعدة التمثال شعار - علامة أمريكانا , وبيبسي.

الدلالة المباشرة لهذا الإعلان أننا بصدد ترويج بريء لنوع من الطعام المعولم - بفتح اللام - إذا جاز الوصف, فالبيتزا الايطالية الأصل لم تتحول إلى طعام عابر للثقافات إلا عبر صناعة الاستهلاك الأمريكية, ومن خلال تغليب لقيم ومعاني الاستهلاك المادي, ولم

تنجح هـذه الصناعـة إلا عـبر ربـط المنتـج - نـوع الطعـام بقيـم وآليـات الأمركـة سـواء فيـما يتعلـق بالسرعـة في إعـداد وتنـاول هـذا الطعـام أو في الأسـماء والرمـوز التـي اكتسـبها .

وعلى سبيل المثال فإن النوع الجديد المعلن عنه يأخذ اسماً منسوباً إلى نيويورك ٠٠ والنوعان الجديدان فيجي يانكي , وأمريكان فيفوريت يشيران إلى علامات ورموز أمريكية تقليدية , كذلك فإن الإعلان يربط دلالياً بين البيتزا بأنواعها الثلاثة الجديدة وبين تمثال الحرية , بل تتداخل صورة التمثال ومكوناته مع مكونات البيتزا نفسها في علاقة ارتباط حميم , علاقة جسد بجسد , حتى يصور التهام هذا القرص الشهي من البيتزا بمثابة تحقيق للحرية ٠٠ وتماهي مع أبرز علامات الأمركة ٠٠ تمثال الحرية . ولا يخلو الأمر من ربط بين اسم البيتزا واسم مدينة ونيويورك التي يعتبر التمثال أبرز معالمها، وربما كانت هناك مقارنة مقصودة بين حجم التمثال الذي هو كبير جداً في الحقيقة وصغير جداً في الصورة بالنسبة لحجم البيتزا التي هي أكبر من أكبر بيتزا .

ويصير تمثال الحرية بكل دلالاته الرمزية ومعانية غير المادية شيئاً مادياً يمكن الإمساك به أو الحصول عليه بمجرد التهام قرص البيتزا , ويتجرد بالتالي التمثال من دلالاته المعنوية ليصير وجبة طعام أو نوع من منتجات بيتزا هات .

هكذا يتحقق حلم الأمركة من خلال تناول قرص بيتزا , ويستطيع القارئ - المستهلك تذوق الحرية ونمط الحياة الأمريكية القائم على الرفاهية من خلال وعبر التهام قرص البيتزا . أي تصبح الحرية كقيمة معنوية مجرد وجبة طعام شهية , ويصير التماهي مع الولايات المتحدة الأمريكية أقوى وأغنى دولة مجرد زيارة لمطعم وتناول لقرص من البيتزا .

أي غواية وإغراء في هذا التماهي الميسور والزائف بين البيتزا والحرية أو بين الأمركة التي روج لها الإعلان المعولم - بكسر اللام - وبين التهام قرص من البيتزا مجرد حلم بيتزا يجعلك تعيش الحلم الأمريكي ٠٠ حلم الحرية والرفاهية والهيمنة على العالم . حلم نموذج الاستهلاك المادي , حلم الأمركة .

الإعلان الثامن :

من فضاء الأمركة ينقلنا الإعلان الثامن إلى فضاء الأمومة بكل سموه وثرائه الدلالي والمعنوي، لكنه يحاول اقتحام هذا الفضاء الجميل ونشر ثقافة الاستهلاك وتسليع الأمومة, فالإعلان على طعام نستله سيريلاك للأطفال , وقد كتب اسم وشعار المنتج باللغة العربية, وباللغة الانجليزية على حد سواء , وظهر في أسفل الإعلان الملون صورة لأم تداعب طفلها أو طفلتها, لا توضح الصورة عن عمد نوع الطفل, كما لا توضح ملامح وجه المرأة, بينما تبرز الصورة ملامح وجه طفل ممتلئ بالصحة والحيوية, وهو يضحك في براءة وعفوية لا حد لها. وقد كتب في الإعلان : " الغذاء المتوازن في كل وجبة " .

أما في أعلى الإعلان فهناك رسم مرح لدب صغير . يسير في ثقة على حبل معلق في الهواء, ويمسك بيده اليسرى علبة نستله سيريلاك, وفي يده اليمنى كيس ممتلئ ببروتينات ومواد دهنية ونشويات وكالسيوم ومعادن وفيتامينات ٠٠ وفوق رأس الدب كتب ببنط كبير عنوان في صيغة سؤال : " هل تعطي طفلك الغذاء المتوازن " ؟

الكلمات وأسلوب السؤال أقرب إلى الاستنكار والاستهجان وليس السؤال المجرد , الاستنكار من كون الأم قد لا تعطي طفلها الغذاء المتوازن ٠٠ ومع ذلك فإن كلمات وعبارات الإعلان تجيب بسرعة وفي حسم , إذ ظهرت عبارة تحت رسم الدب تقول : " نستله سيريلاك يضمن لك وجود العناصر الغذائية بنسب متوازنة والتي من الصعب الحصول عليها من تحضيرك للأكل العادي".

هكذا يصبح شراء نستله سيريلاك واستخدامه ضرورة لتغذية الطفل, وعلامة من علامات حب ورعاية الأم لطفلها, بل وشرط لوجود هذا الحب , فهو أي - نستله سيريلاك - يضمن الغذاء المتوازن, والذي من الصعب على الأم - أي أم - توفيره من خلال الأكل العادي ٠٠ وربما نتأمل هنا استخدام تعبير مغرض ومتحيز هو الأكل العادي عوضاً عن

الأكل الطبيعـي, لأن الـدلالات والمعـاني المتولـدة عـن التعبـير الأول أفقـر وأقـل كثـيراً مـن تعبـير الأكل الطبيعـي, أي أن خطـاب إعـلان نسـلته سـيريلاك لـلأم هـو أن الأكل أو الطعـام غـير الصناعـي أيـاً كان هـو أكل عـادي , وأن أي أم يصعـب عليهـا تحضـير غـذاء متـوازن مثـل غـذاء نسـتله سـيريلاك , في دلالـة واضحـة هـي إعـلاء شـأن الغـذاء المصنـع, أي غـذاء مصنـع مقابـل الغـذاء الطبيعـي الـذي يمكـن لـلام أن تصنعـه في المنـزل, في الوقـت نفسـه التقليـل مـن قـدرة وكفـاءة الأم , أي أم في الارتفـاع إلى مسـتوى الغـذاء المصنـع .

ثقافـة الاسـتهلاك والاستسـهال في تغذيـة الأطفـال ، دلالات ضمنيـة واضحـة في خطـاب الإعـلان الثامـن, لكـن رعايـة الأم لطفلهـا في هـذا الإعـلان يحـول معنـى وقيمـة الأمومـة إلى سـلعة ترتبـط بقـدرة ماديـة عنـد مسـتوى معـين للـشراء, إذ لا تخفـى حقيقـة أن نسـتله سـيريلاك كغـذاء مصنـع أو غـيره مـن الأغذيـة قـد لا يكـون في متنـاول أغلبيـة نسـاء العـالم الثالـث بمـا قـد يولـد لديهـن شـعوراً بالعجـز, أو التقصـير في رعايـة الأطفـال مـن خـلال عـدم تقديـم غـذاء مصنـع متـوازن .

إن الإعـلان في مجمـل دلالاتـه ومعانيـه يـروج لثقافـة الاسـتهلاك , مـن خـلال تأكيـد هيمنـة التغذيـة المصنعـة والتشـكيك في قـدرة الأمهـات عـلى إعـداد طعـام متـوازن مـن المـواد الطبيعيـة , وهـو مـا يقـود دلاليـاً إلى تسـليع الأمومـة , فـالأم القـادرة عـلى الـشراء سـتكون أفضـل مـن غيرهـا مـن وجهـة نظـر خطـاب الإعـلان المعـولم .

الإعلان التاسع :

الإعـلان التاسـع والأخـير يقـدم لنـا فيضـاً مـن علامـات ودلالات المتعـة ٠٠ متـع غامضـة مراوغـة تطلـق العنـان لخيـال القـارئ - المسـتهلك كي يفكـر ويأمـل ويحلـم بـكل أنـواع المتـع وكثـير مـن التسـلية ٠٠ كل ذلـك عـبر السـفر المريـح والآمـن بواسـطة الخطـوط الجويـة البريطانيـة .

والإعـلان منشـور عـلى ثلـث صفحـة تقريبـاً, ويعتمـد عـلى اللونـين الأسـود والأبيـض بدرجاتهـما المختلفـة , وتـبرز فيـه صـورة دقيقـة لأصابـع دقيقـة لامـرأة تمسـك في حنـان وهـدوء بجهـاز تحكـم عـن بعـد (ريمـوت كنـترول) حديـث, والأصابـع مرسـوم عليهـا بالحنـاء أغصـان وزهـور بالغـة الرقـة والروعـة بينـما خلفيـة الإعـلان عبـارة عـن أرضيـة سـوداء , لكـن في أسـفل الصـورة ظهـرت ثلاثـة اسـطر عـن التسـلية أثنـاء الرحلـة ٠٠ وقـد وردت في صيغـة أسـئلة : " مـا الـذي سيسـليك أكـثر " , هـل هـي الأفـلام المترجمـة عـلى كافـة الدرجـات أم الأفـلام العربيـة عـلى الدرجـة الأولى ودرجـة النـادي العالمـي ؟ أم هـي محطـات الراديـو التـي تذيـع الموسـيقى والأغـاني العربيـة وتـلاوات مـن القـرآن الكريـم ؟ هـل هـي الصحـف العربيـة ٠٠ لدينـا الكثـير مـن وسـائل التسـلية ٠٠ ولكـن هـل سيسـع لهـا وقـت الرحلـة ؟ وقـد كان العنـوان الرئيـسي لهـذه الأسـئلة " كثـير مـن التسـلية قليـل مـن الوقـت".

العنـوان في الحقيقـة يلخـص دلالات ومعـاني الإعـلان ككل , فالإعـلان لم يسـتعمل كلمـة سـفر ٠٠بـل ركـز عـلى أن التسـلية الكثـيرة والمتنوعـة .. متوفـرة ولـن تشـعرك برحلـة الطـيران, ويعنـي هـذا عـلى المسـتوى المضمـر أن السـفر في أمـان وراحـة هـو أمـر بديهـي بالنسـبة للشركـة لكـن المهـم هـو وسـائل التسـلية والتـي هـي متوفـرة أيضـا ولا تحتـاج سـوى إلى اختيـارك بينهـا. وأن المعادلـة أو الوعـد الـذي تقدمـه الخطـوط الجويـة البريطانيـة هـو التسـلية لتقليـل وقـت الرحلـة ٠٠ أي رحلـة .

إن خيـال القـارئ – المسـتهلك - هـو الـذي يجيـب عـلى هـذه الأسـئلة أو يتمنـى أو يحلـم. كذلـك فـإن خيـال القـارئ – المسـتهلك هـو الـذي سـيجيب هـل وقـت الرحلـة سيتسـع لـكل هـذه الأنـواع مـن التسـلية والمتعـة. ووسـائل التسـلية هنـا كثـيرة ومتنوعـة وممتعـة وتناسـب كل أفـراد الأسرة حتـى الأطفـال ، وهـي ممتعـة لدرجـة أنهـا لـن تشـعرك بوقـف الرحلـة ، أو أن طائـرات الشركـة تختـصر المسـافات والزمـن فـلا تـترك لـك وقتـاً كافيـاً للاسـتمتاع بـكل وسـائل التسـلية، لذلـك فالسـفر مـرة واحـدة عـلى طائـرات الشركـة لـن يجعلـك تحقـق المتعـة الكاملـة مـن كل هـذه الوسـائل للتسـلية ، ولتحقيـق ذلـك عليـك السـفر عـلى طائـرات الشركـة دائمـاً .

ثقافـة التسـلية والمتعـة هـي غايـة هـذا الإعـلان ووسـيلته في التأثـير عـلى القـارئ - المسـتهلك, لكـن المتـع ووسـائل التسـلية والترفيـة التـي تظهـر في كلـمات وعبـارات الإعـلان ليسـت كل شـئ ٠٠ فالغمـوض في تصميـم الإعـلان , وهيمنـة اللـون الأسـود في الإشـارة إلى ظـلام الفضـاء والسـكون المحيـط بالطائـرة والـذي يؤكـد الحاجـة إلى هـذه التسـلية ٠٠ كـما أن الأنامـل الرقيقـة للمـرأة ورسـوم الأغصـان والزهـور عـلى الأصابـع يفجـر دلالات ومعـاني كثـيرة عـن متـع ماديـة ومعنويـة ٠٠ ووعـود مراوغـة ٠٠فالانثـى هنـا أنامـل دقيقـة, دافئـة, سـاحرة , وغامضـة , تمثـل حلـم بعيـد وقريـب, الأنامـل الدقيقـة تلخـص جسـد أنثـوي, جسـد أنثـوي لامـرأة شرقيـة في الأغلـب, فالأنامـل مرسـوم عليهـا زهـور وأغصـان جميلـة بالحنـاء مـما قـد يشـير إلى أن المـرأة هنـا هـي الطبيعـة أو مضيفـة الطائـرة, أو المـرأة الحقيقيـة بـدون زينـة عصريـة, المـرأة الحقيقـة مـن وجهـة نظـر الاسـتشراق والـذي يبـدو أنـه عـبر عـن نفسـه في هـذا الإعـلان ربمـا دون أن يـدري مصمـم الإعـلان . لكـن بافـتراض صحـة ذلـك فـإن هـذا الإعـلان الموجـه إلى قـارئ مسـتهلك عـربي يقـترب مـن ثقافتـه ويسـتجيب لعلامـات ورمـوز تـربي عليهـا ويعيـش مـن خلالهـا.

عـلى مسـتوى آخـر ثمـة دلالـة مؤثـرة تـبرز مـن المقابلـة المقصـودة بـين أنامـل المـرأة بزينتهـا التقليديـة - الجسـد الأنثـوي التقليـدي - وبـين اسـتخدام جهـاز التحكـم عـن بعـد - الريمـوت كنـترول - في الاسـتمتاع بـكل وسـائل وخيـارات المتعـة والتسـلية التـي توفرهـا الخطـوط الجويـة البريطانيـة. دلالـة تلـك المقابلـة هـي إمكانيـة التعايـش بـين العالمـين, عـالم المتعـة الأصليـة أو الطبيعيـة, وعـالم المتـع الصناعيـة أو الإعلاميـة. الانسـجام والتعايـش أيضـاً بـين القديـم والحديـث, بـين سـحر وأصالـة الـشرق وتقـدم ورفاهيـة الغـرب.

الخاتمة : فصل الخطاب

يعمـل الإعـلان المعـولم - بكـسر الـلام - كآليـة فاعلـة لتسريـع عمليـة العولمـة, ومـن هنـا فإنـه يجسـد بوضـوح قيـم ومعـاني ورمـوز أيديولوجيـة العولمـة, ويـروج لهـا مـن خـلال خطـاب مـراوغ وبـراق, لكنـه مضلـل وزائـف, إذ يركـز كـما ظهـر في تحليـل عينـة محـدودة مـن الإعـلان المعـولم المنشـورة في الصحافـة العربيـة عـلى:

١- نشر وتمجيد ثقافة الاستهلاك , والربط بين الاستهلاك وتحقيق المتعة والشعور بالحرية , بل وأحياناً يكون استهلاك المنتجات الأمريكية شرطاً للتماهي مع نمط الحياة الأمريكية. من جانب آخر يربط خطاب الإعلان المعولم بين الاستهلاك وتميز الفرد واثبات قوته المادية أو المعنوية بين بني وطنه , وذلك بغض النظر عن نوعية السلع والخدمات التي سيقوم الفرد باستهلاكها . فلكل سلعة أو خدمة وفق نظام خطاب الإعلان المعولم حلم خاص بها, ووعد زائف يمكن تحقيقه ولو للحظات هي عمر استهلاك المنتج أو الخدمة , ومن عجب أن بعض هذه الأحلام تحفل بدعوة صريحة لاستخدام العنف ضد الآخر .

٢- تمجيد التقدم التكنولوجي واستخدامه كمدخل لتبرير اقتناء واستهلاك النماذج الجديدة والحديثة من السيارات والهواتف النقالة من دون أن تكون هناك حاجة موضوعية لذلك .

٣- فرض الهيمنة على السوق وعلى المستهلكين من خلال توحيد وتنميط الأذواق, وخلق إجماع زائف على استهلاك سلع وخدمات قد لا يكون الفرد أو المجتمع في حاجة إليها أو قد لا تتفق مع احتياجات وأولويات أغلبية المجتمع ونذكر هنا على سبيل المثال العلاقات الزائفة التي يصنعها خطاب الإعلان المعولم لتبرير استخدام مواد مصنعة لتغذية الأطفال. (الإعلان الثامن)

٤- تسليع القيم والأفكار والمعاني والمشاعر من خلال الاحتفاء المبالغ فيه بأهمية الرموز والعلامات المادية, وخلق نوع من الارتهان الزائف بين الحصول على سلعة أو استهلاك سلعة أو خدمة وبين تحقيق السعادة أو الحرية أو حتى الحصول على الحب . في هذا السياق يستعمل الإعلان المعولم صوراً ورموزاً جنسية عديدة تسيء إلى المرأة, وتجعل منها جزءاً من الحلم الزائف الذي يدعو إليه .

٥- طمس الخصوصيات الثقافية والدعوة إلى التغريب مع إعلاء شأن القوة الأمريكية ونمط الحياة الأمريكية. حيث رصدنا في قراءة خطاب الإعلان المعولم تمسكه باستخدام كلمات وعبارات انجليزية, وحرصه على عدم ترجمة اسم المنتج سواء كان سلعة أو خدمة, باعتبار أن الاسم جزء من الشعار - علامة الشركة أو المنتج, وحتى إذا ما كتب الاسم باللغة العربية فإن الاسم الأجنبي المكتوب بحروف انجليزية يظل موجوداً, في الوقت نفسه قد يستخدم خطاب الإعلان المعولم رموزاً أو عبارات مستمدة من اللهجات العامية العربية أو الثقافة العربية الإسلامية , لكن المفارقة أنه يوظف ذلك من أجل تحقيق أهدافه والتي قد يكون من بينها طمس الخصوصيات الثقافية .

هذا باختصار خلاصة قراءة خطاب الإعلان المعولم, وهى قراءة في إطار اجتماعي ثقافي محدد, يقوم على الوطنية المصرية والعروبة والإسلام, ومن ثم قد تظهر قراءات أخرى للإعلان المعولم في ضوء ثقافات مغايرة. والله أعلم .

المــراجــع

١ - Silvio Waisbord, (١٩٩٨) when the cartfof media is before the horse of identity. A critique of technology – centered, views on Globalization, communication research, vol ٢٥ , No, ٤, August, pp. ٣٧٧ - ٣٩٨

٢- www, Third World network

٣-Bernard Sharratt (١٩٨٦), towards the cultural study of time, David Runtered (ed) Introduction contemporary cultural studies. Longman ١٩٩٨, pp ٣٥٩-٣٥٨

٤- لمزيد من التفاصيل انظر :

محمد شومان , (٢٠٠٠) النموذج النقدي , التغيير الإنساني وقضايا التأثير الإعلامي في بحوث الصحافة المصرية , كتاب جماعي مهدي إلى أ.د. عواطف عبد الرحمن , القاهرة : العربي للنشر والتوزيع , ص ص ٢٧٣-٢٨٨ .

٥- عبد الله الغذامي , (٢٠٠٠) النقد الثقافي , قراءة في الأنساق الثقافية العربية , بيروت : الدار البيضاء , المركز الثقافي العربي , ص ٢١ – ص ص ٢٥-٢٦ .

٦- وليام ريفرر وآخرون (١٩٧١) , وسائل الإعلام في المجتمع الحديث , ترجمة إبراهيم إمام , القاهرة : دار الفكر العربي , ص ٤٩ .

٧- , ٨- محمد شومان , (١٩٩٨) دور الإعلام في تكوين الرأي العام , حرب الخليج نموذجاً , القاهرة : المنتدى العربي للدراسات والنشر , ص ١٨ .

٩- عبد الله الغذامي , مرجع سابق , ص ص ١٨- ١٩ .

١٠- رولان بـارت , (١٩٧٣) , لـذة النـص , ترجمـة محمـد خـير البقاعـي , القاهـرة : المجلـس الأعـلى للثقافـة , ١٩٨٨ , ص ٤٦ .

١١-أديـث كريرويـلي , عـصر البنيويـة (١٩٩٣) , ترجمـة جابـر عصفـور , القاهـرة , الكويـت: دار سـعد الصبـاح , ص ٢٧١ .

١٢- رولان بارت , لذة النص , مرجع سابق , ص ص ٥٦- ٦٥ .

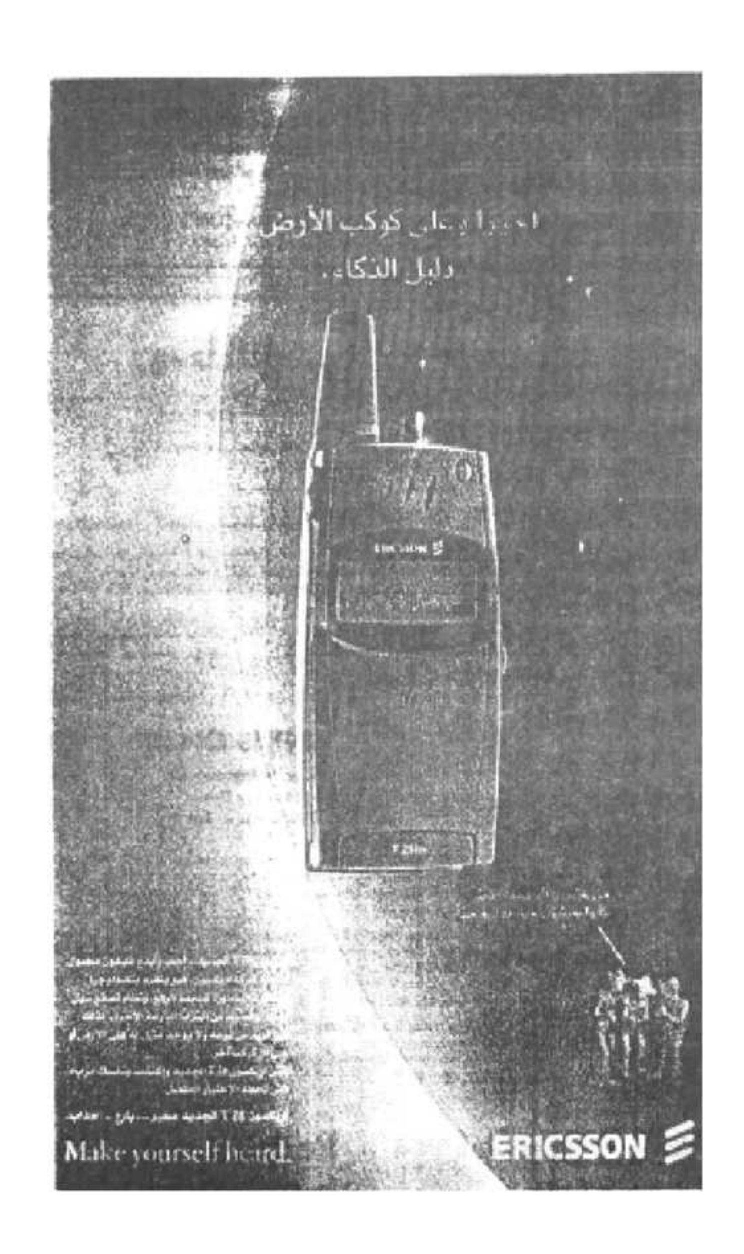
١٣- هيـدن وايـت (١٩٩٦) , ميشـيل فوكـو , في البنيويـة ومـا بعدهـا, مـن ليفـي شـتراوس إلى دريـدا, تحريـر جـون سـتروك, ترجمـة محمـد عصفـور, الكويـت: عـالم المعرفـة , ص ١١٤ .

١٤- محمـد جـواد حسـن الموسـوي (تقديـم) في نقـد اسـتجابة القـارئ مـن الشـكلانية إلى مـا بعـد البنيويـة, تحريـر جـين ب . تومبكنـز (١٩٩٩) ترجمـة حسـن ناظـم وعـلى حاكـم, القاهـرة : المجلـس الأعـلى للثقافـة , ص ٩ .

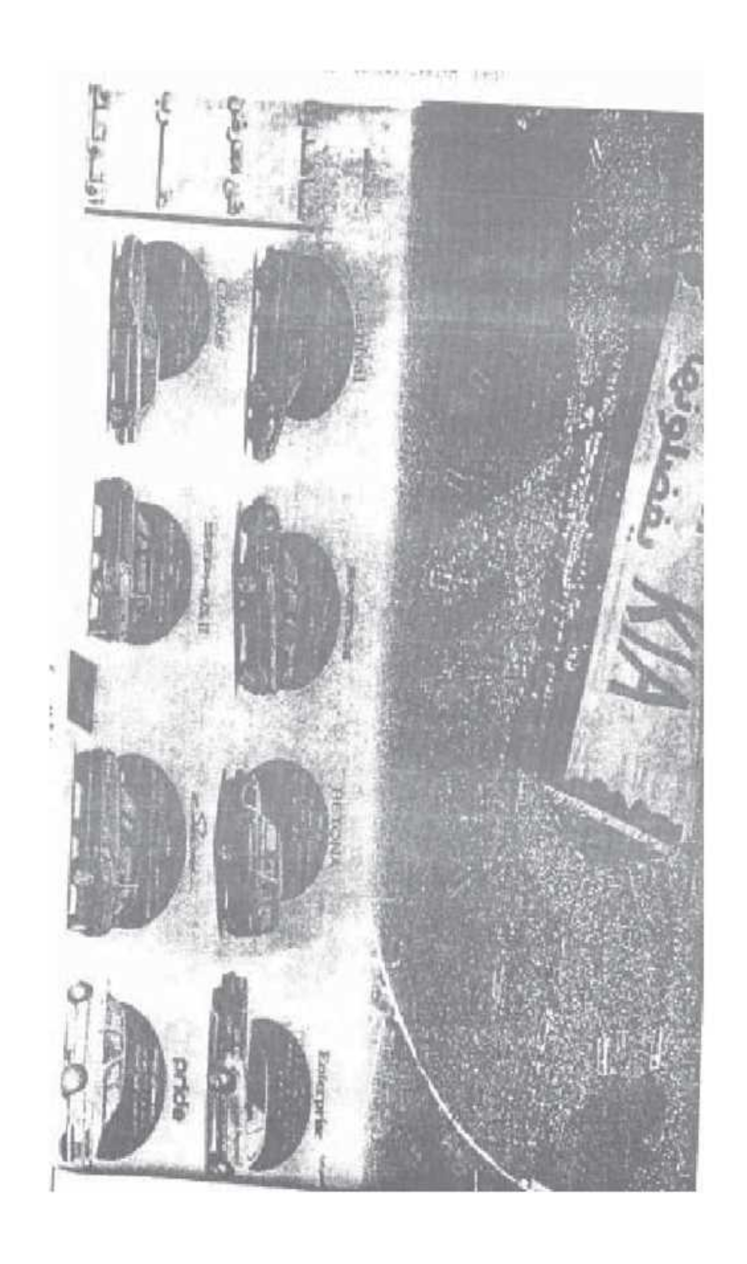
١٥- لمزيد من التفاصيل انظر:

يـوري لوتمـان, (١٩٨٦) سـيميوطيقا السـينما, ترجمـة نـصر أبـو زي , في أنظمـة العلامـات في اللغـة والأدب والثقافـة, مدخـل إلى السـيميوطيقا. القاهـرة: دار إليـاس, ص ص ٢٦٥ – ٢٨١.

الملاحق



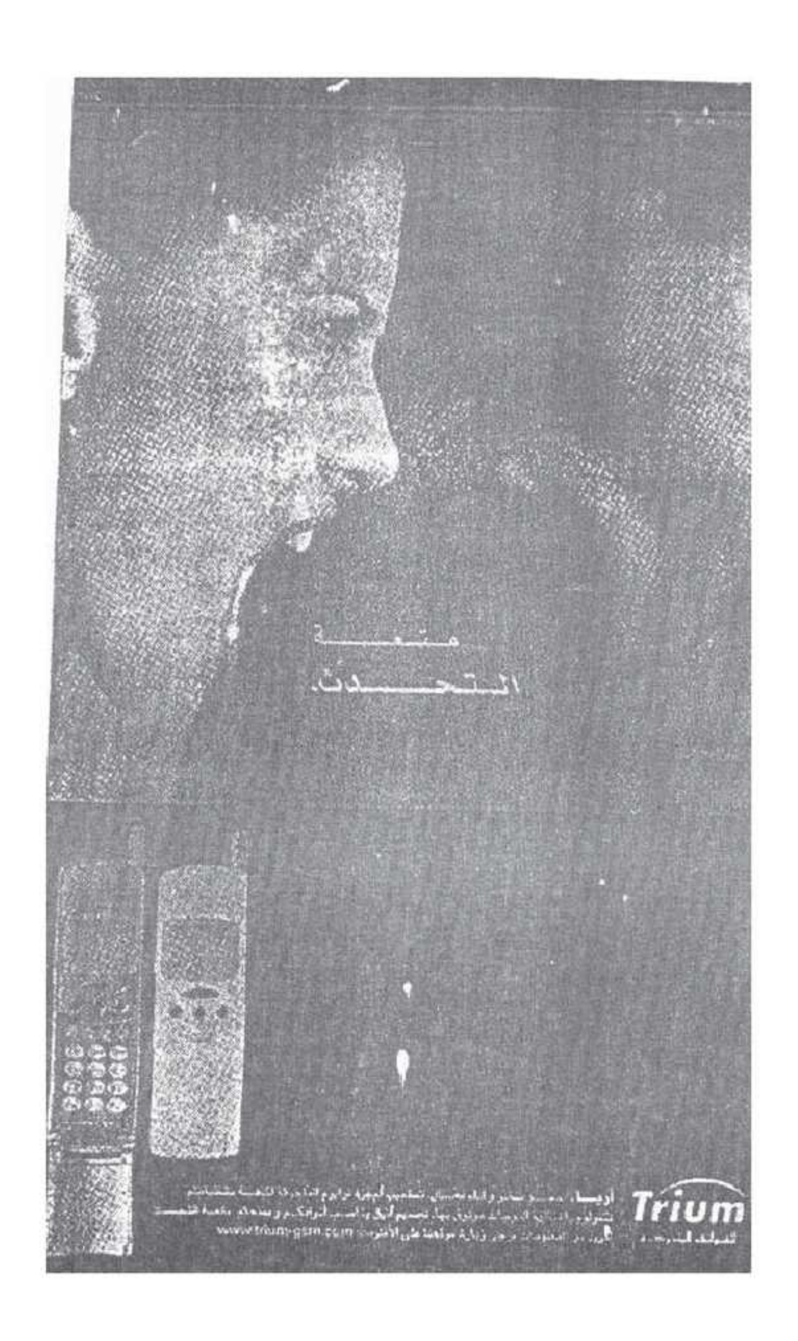
كوكب الأرض
دليل الذكاء.
Make yourself heard.
ERICSSON


KIA


يوجد ما هو أقوى
الصراصير فى خنادقها.
فليت الأصلي ... أكثر من ١٥ سنة خبرة وثقة في الجودة لتركيبة
لقتل الحشرات الزاحفة فوراً وبلا عودة
أقوى و أسرع إبادة يستمر و يستمر ويقتل

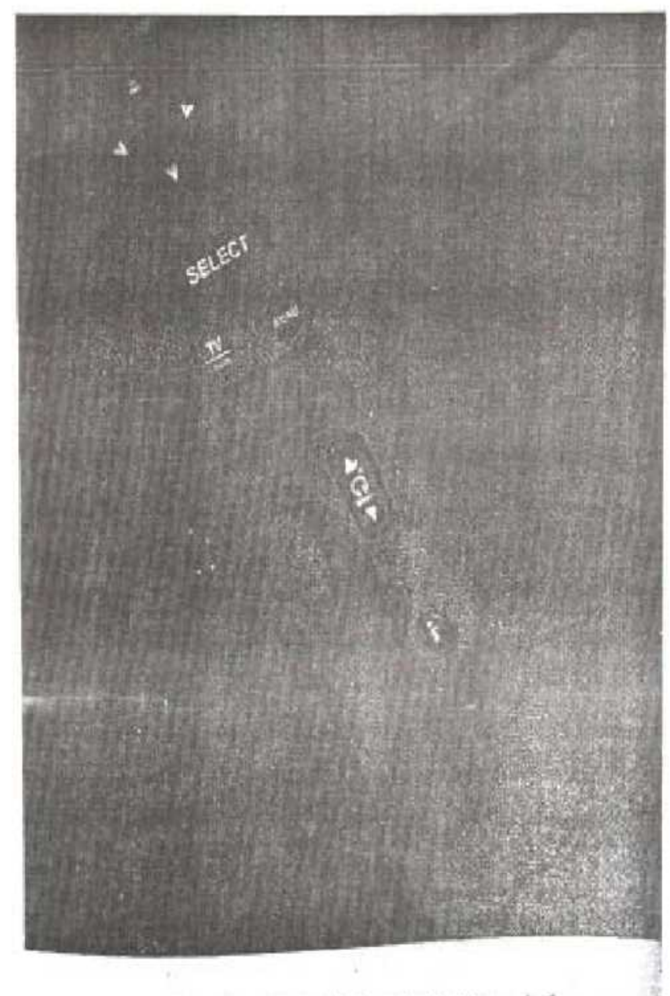



اديها بيبسي ..
اديها مزيكا
نوال الزغبي
جمع ٢٠ غطاء بيبسي - سفن أب - ميرندا
ويدلهم فوراً من أكشاك حفلة بيبسي بدعوة مجانية لحضور أكبر حفلة
غنائية لنجمة بيبسي نوال الزغبي
الاسكندرية:
٢٥ أغسطس بأرض المعارض
بنادي سموحة
القاهرة:
١ سبتمبر بقاعة المؤتمرات
بمدينة نصر
أكشاك حفلة بيبسي
الاسكندرية
القاهرة

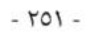

متعة
التحدث.
Trium
www.trium-gsm.com




Nestle
CERELAC
نشويات
كالسيوم
معادن
فيتامينات
ستله سيريلاك
يضمن لك وجود
العناصر الغذائية
متوازنة
من الصعب
حصول عليها من
للأكل العادي



كثير من التسلية، قليل من الوقت.





أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامي

يدعو هذا الكتاب إلى نقد ومراجعة النموذج الإرشادي Paradigm الكمي، الوظيفي، السائد في بحوث ودراسات الإعلام في مصر والمشرق العربي، والي الانفتاح على مدارس وتوجهات نظرية، وممارسات بحثية جديدة، أصبحت جزءا لا يتجزأ من بحوث ودراسات الإعلام في العالم، ويقدم الكتاب بدائل منهجية ونظرية مهمة، وممارسات بحثية تتسم بالجدة والتنوع.

يضم الكتاب مجموعة من البحوث التي استخدمت نظريات ونماذج أقرب إلى التفسيرية الاجتماعية، وهو مفهوم واسع يندرج تحته مجموعة من النظريات الجديدة عن الثقافة والمجتمع، ويعتبر تحليل الخطاب واحداً من أهم مناهج التفسير الاجتماعي، حيث لا يتوقف كثيراً عند الأرقام وإنما يهتم بالتحولات والانقطاعات.واعتمدت بحوث الكتاب علي المنهج النقدي، ومناهج وأدوات التحليل الثقافي، وحاولت التأصيل لمدارس تحليل الخطاب، وذلك من خلال التعرف علي الأصول لنظرية والتطبيقات المختلفة لأبرز مدارس واتجاهات تحليل الخطاب في مجالات الاتصال والإعلام، مع استخدام مناهج التحليل السميولوجي، والهرمونطيقا، ونظريات القراءة التي تتيح للمتلقي الفرد إمكانية إدراك وفهم النص في ضوء خبراته الذاتية ومعارفه،والظروف المجتمعية المحيطة به.

تصميم الغلاف/ريم السقاوي



